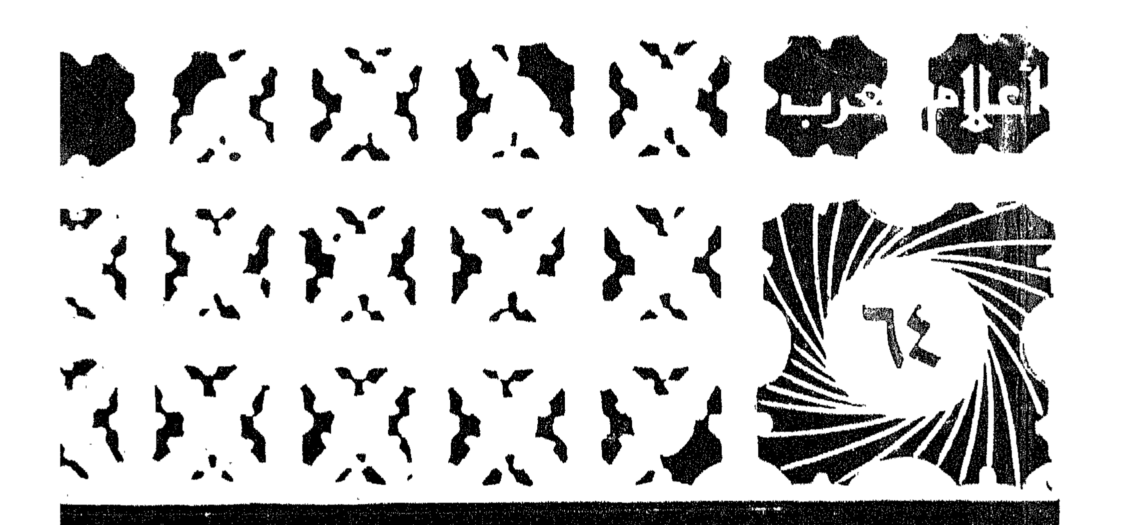


تأليف

دكتور ماهر حسن فهمي

أبريل سنة ١٩٦٧

أعلام العرب

٦٤



محمد توفيق البكري

تأليف

دكتور ماهر حسن فهمي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة
١٩٦٧

المقدمة

كان حر أغسطس يلفح الوجوه ، وكان وقت الظهيرة عندما تركت منزلى فى أقصى القاهرة ، لأنى على موعد مع أحد أقرباء السيد محمد توفيق البكرى فى أقصى القاهرة من الطرف الآخر ، وكنت أعجب لهذا الموعد المبكر ، ولكنى كنت أومن بانها فرصة أخيرة ، ظفرت بها بعد عناء شديد ، فليس من السهل أن يصل الباحث الى معارف وأقرباء أديب من أدباء أول القرن ، الا بعد أن يدور دورانا متصلا مملا ، وقد يصل فى النهاية وقد لا يصل على الاطلاق ، فانا اذن سعيد الحظ ، ولا ينبغى أن أدع الفرصة تفلت من يدى خاصة والسيد على وشك الرحيل الى أوربا أو أمريكا .

استقبلنى السيد وجلس ، على كنفه ببغاء ، ودهشت ، ولكن ليس هذا ما جئت من أجله ، وران علينا صمت كنت أختلس خلاله نظرات الى بشرته البيضاء المشربة بحمرة وعينيه الزرقاوين ، وأحاول أن أستعيد صورة السيد محمد توفيق البكرى فى ذاكرتى ، وكانت أشجار الحديقة تخفف كثيرا من شدة الحر فطاب لى الجلوس وأدرت الحوار التالى :

ـ كنتم تعيشون مع السيد رحمه الله فى سراى الخرنفش ، وسمعت أنه كان يحاول تاليف كتاب جديد بعد عودته من لبنان ، فاى موضوع فكر فى معالجته ، وهل تحتفظون بشىء مما كتبه ؟

ـ نعم كان يحاول تاليف كتاب «صهاريج الزمرد» بعد «صهاريج اللؤلؤ» كما قال لى ، وكتب منه صفحات طويلة ، ولكنى كنت

اعيش فى جناح بعيد عن جناحه بالقصر ولا أدرى مصير هذه الأوراق .

ـ سمعت أن أحد المستشرقين أرسل للسيد كتابا يناقش فيه آراء السيد البكرى فى كتابه ((المستقبل للاسلام)) وأن هذا الكتاب كان موجودا بمكتب السيد محمد توفيق ، فهل قرأتم هذا الكتاب وهل تذكرون شيئا من محتوياته ؟

ـ لا أذكر شيئا من ذلك .

وأحسست أن الفرصة الأخيرة التى كنت أعلق عليها أملا فى ملء الثغرات الكثيرة بحياة السيد البكرى تضيع بل ضاعت فعلا ، فطويت الأسئلة التى أعددتها ، وقلت أدعه يسترسل مع ذكرياته أفضل من هذه الأسئلة المحددة .

ـ عشتم سنوات أربع مع السيد قبل وفاته فما هى معلوماتكم عنه من حيث عاداته وطباعه وصلاته لمن حوله ، أو بمعنى آخر ما هى ذكرياتكم عن هذه الفترة ، وما هو الانطباع الذى تركه فى نفسكم ؟

ـ (بعد دقائق طويلة من التفكير) كان يحب الأطفال الصغار من أبناء الأسرة .

وخرجت وأنا أفكر فى الطريق الشاق الطويل الذى يقطعه كاتب السيرة لعلم من أعلام العرب فى أول هذا القرن ، فها هو ذا مصدر من أهم مصادر الترجمة يكاد يفقد كل قدرته على العطاء ، والأمر ليس قاصرا على البكرى ، ولكنه يشكل ظاهرة عامة الا فيما شذ وندر . واذا فقدنا مذكرات الأديب وخطاباته ودقائق حياته فى صلاته الانسانية ، فقد بقي مصدر آخر هام ، وهو الدوريات ، خاصة اذا كان الرجل يملأ سمع الدنيا فى حياته ، على ندرة هذا الرجل .

والحقيقة المرة الثانية أن قارىء الدوريات القديمة محكوم عليه بالأشغال الشاقة . فعليه أن يصعد يوميا الى مكتبة القلعة

فلا يصلها حتى يكون قد استنفذ أكثر طاقته ، والمكتبة بحكم موقعها فى منطقة عسكرية لا تفتح ابوابها للرواد الا فى الصباح ، وعلى الباحث أن يعيد الكرة مرة ومرات كلما طال بحثه ، ولابد أن يطول لان الدوريات غير مفهرسة ، فاذا أراد الباحث أن يطلع على الدوريات التى كتبت عن البـــكرى أو كتب فيها ، فعليه أن يتصفح جميع الدوريات التى صدرت فى فترة حياة الشاعر ، أو بمعنى آخر يقرأ عشرات الصحف لعشرات السنين ، وقد يعثر مرة أخرى على شيء وقد لا يعثر . ويزيد من عناء الباحث أن كثيرا من هذه الدوريات قد تحولت صفحاتها الى مزق من كثرة الاستعمال الذى لا طائل وراءه . ولكنى فى هذه المرة وصلت الى شيء كثير ، فقد اتصل الرجل عن كثب بالأحداث السياسية ، ولمع فجأة كما خبا فجأة ، فاهتمت به الصحف ، تتحدث عنه حديث المفتون أو حديث الناقم ، شـــأن رجال السياسةدائما .

أما المصدر الثالث فهو مؤلفات الرجل نفسه ، وأهمها ((صهاريج اللؤلؤ)) الذى حوى أدبه ورسم أدق خلجات نفسه وانطباعاته ازاء كثير من أحداث الحياة التى مر بها . وله بعد ذلك مختارات من الشعر العربى القديم ومختارات من الرجز جمعها فى كتابيه ((فحول البلاغة)) و ((أراجيز العرب)) ، وهى مختارات تنم عن ذوق رفيع . أما البكرى المفكر فنستطيع أن نجده فى كتابه ((المستقبل للاسلام)) الذى يخطط فيه لمستقبل الأمة الاسلامية . وأما كتاباه ((بيت الصديق)) و ((بيت السادات الوفائية)) ، فقد أفدت من الأول على وجه الخصوص فى تصوير جانب من حياة أسرته وحياته . ولم أتحدث عنهما بالتفصيل فى باب مؤلفاته الأدبية ، لأنهما بعيدان عن الأدب ، فموضوعهما التراجم من الوجهة التاريخية الصرفة ـ لآبائه وأجداده وأقاربه ، وأكثر ما فيهما أحداث صيغت صياغة يغلب عليها التقرير المباشر .

وأما المصدر الاخير ، فهو الدراسات التى عرضت لحياته وانتاجه عرضا موجزا سريعا ، اعتمد فيها مؤلفوها فى أكثر الأحيان على ما كتبه السيد محمد توفيق بنفسه عن حياته فى كتابه ((بيت الصديق)) ، ودرسوا شعره على قلته دراسة فيها شيء من التفصيل ، ونثره على تنوعه دراسة جزئية . وهى قليلة لا تتجاوز أصابع اليد ، أهمها ((شعراء العصر)) لمحمد صبرى و ((على فراش الموت)) لطاهر الطناحى و ((شعراء مصر وبيئاتهم)) للعقاد و ((فى الأدب الحديث)) لعمر الدسوقى . ومن الواضح ان هذه الكتب جميعا تعرض للبكرى فى فصل من فصولها عرضا اقرب الى المقالة منه الى الدراسة باستثناء الكتاب الاخير ، فقد درس عمر الدسوقى شعر البكرى دراسة واعية ، وان كان قد مر على شيء من نثره مرورا سريعا ، وعلى حياته مرورا أسرع لم يزد فيه على ما ذكره البكرى عن حياته . ومن أجل هذا كان دارس البكرى بحاجة الى جهد أكبر لتصوير حياة الرجل وتقويم انتاجه الأدبى بكل أنواعه ، وفى كلا الحالين ، يحس الباحث فعلا أنه ((طلب لطعن وحده والنزالا)) .

ولا أريد أن أفيض فى الحديث عن مناهج السير ، فقد تحدثت عنها فى بعض كتبى من قبل ، ولكنى حاولت فى دراسة البكرى أن أصور حياته كما لو كان على مسرح الحياة ، مستهدفا الحقيقة قبل كل شيء ، بينما حاولت أن أكون عالميا صرفا فى دراسة انتاجه الأدبى والفكرى .

البابُ الأولُ
حيَاته

ملامح العصر

لا سبيل الى دراسة النصف الثانى من القرن الماضى فى بلدان الشرق ومصر بصفة خاصة : الا بدراسة الغراس الذى غرسه جمال الدين الأفغانى ، فهو محرك الأحداث وصانع الأعلام فى هذه الفترة ، وما من اصلاح سياسى أو اجتماعى او دينى الا وجمال الدين هو ملق بذوره ، وما من عالم من اعلام النهضة أو الاصلاح الا وتتلمذ عليه أو تأثر بآرائه . كل نداءات الحرية وكل الدعوات الثورية باعثها جمال الدين ، فاذا اتسمت هذه الفترة بارتعاشة اليقظة ، فان بداية الصحو كان مع ظهور جمال الدين فى مصر عام ١٨٧٠ .

وكانت الأحداث فى ذلك الوقت قد ساعدت على تنمية الشعور بالرابطة الاسلامية وتغذية الاحساس الذى يهدد شعوبها أمام الاستعمار الغربى المتربص بها فيدعوها الى التجمع والى الالتفاف حول الدعوة الى الجامعة الاسلامية التى كان جمال الدين أكبر دعاتها . وتتركز دعوته السياسية فى تحرير الشرق من سيطرة الغرب ولفت أنظار المسلمين الى ما وصلوا اليه من ضعف وتأخر حتى طمع فى بلادهم الأجانب فاستولت فرنسا على الجزائر وروسيا على القوقاز وانجلترا على الهند وهولندة على أندونيسيا . فلا يفتأ يردد لتلاميذه « كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا ووضعت من اقدارنا ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها الا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه ، لو أدينا حقوقاً تطالبنا بها تلك الكلمة التى تهل بها ألسنتنا وتطمئن قلوبنا بذكرها وهى كلمة الله العليا ، هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ، وهل

كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الأعداء الا وأقدامنا فى صياصيهم وأيدينا على نواصيهم ؟ ان لأبنـــاء الملة الاسلامية يقينا بما جاء به شرعهم ، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرضه الله عليه من ذلك الدين ؟ .. أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ولا يرد مشربنا ولا يخدم شريعتنا ولا يرقب فينا الا ولا ذمة » (١) .

بمثل هذه الكلمات النارية والمناقشة الموضوعية لمعنى الترابط والتراحم والتكتل من أجل الجهاد كان ينطلق صوت جمال الدين فيتردد صداه بعيدا فى ربوع الوطن الاســـلامى يبث روح العزة القومية عن طريق العقيدة السليمة وخلق الأمل فى النجاح مكان اليأس المر الذى يجتره الناس فى صمت ، والاصرار من أجل تحقيق الهدف الكبير مهما كانت مشاق الرحلة بدل الاتكال والاستسلام .

وتلقف السلطان عبد الحميـــد الفكرة ، وهو خليفة الدولة العثمانية الجريحة ، التى عبث ذئب الاستعمار بأطرافها ينهش ما استطاع منها ويبتلع ما يتمكن من ابتلاعه . وكانت الخلافة قد فقدت قوتها السياسية ، واستحالت رمزا لا حول له ولا قوة ، فراى فى هذه الدعوة ما يعيد الى الخلافة هيبتها والى الخليفة سلطانه السياسى والدينى ، وتكتل العالم الاسلامى من ناحية أخرى قوة هائلة تستطيع أن توقف قوى الاستعمار عند حده فيفكر مرة ومرات قبل أن يحاول مشاكسة دولة الخلافة حتى لا يثير هــذا التجمع المتحفز ، وهكذا احتضن الدعوة وأرسل دعاته الى كل البلاد الاسلامية سواء فى ذلك ما يقع فى نطاق الدولة العثمانية أو ما يقع خارجها ، وهو مقتنع بأن هذه الدعوة تستطيع الوقوف أمام الدعوة

---

(١) الوحدة الاسلامية والوحدة السياسية لجمال الدين الأفغانى ص ٢٤ .

الى الجامعة الصقلبية التي تسعى الى ضم كل صقالبة أوربا مهما اختلفت حضارتهم ومذاهبهم الدينية للتخلص من النفوذ الألمانى والسيطرة التركية ، والوقوف ايضا امام نظرية « جلادستون » التى ترمى الى تخليص الدول المسـيحية الأوربية نهائيا من الدولة العثمانية (١) .

ونجد وثيقة تاريخية وقعها علماء المسلمين ، تبين انتشار الدعوة فى البلاد الايرانية ومحاولة نشرها فى غيرها من البلاد الاسلامية عن طريق التبشير والنذير : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه ومن والاه . أما بعد فليعلم الواقفون على كتابنا هذا من اخواننا المسلمين كافة ، جمع الله شملهم وهداهم ، والى الخير والصلاح وفقهم . انه من الواجب على عموم سكان الكرة الأرضية من المسلمين الناطقين بكلمة التوحيد ، المؤمنين بالنبى العربى الأمى المنزل عليه القرآن المجيد ، أن تتحد كلمتهم ؛ ويبذلوا غاية جهدهم فى اعلاء كلمة الله العليا ، وان اختلفت أجناسهم ومذاهبهم ، وكذا يجب على الدولة الايرانية ، وكذا سائر الحكومات الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها وان يتحدوا مع الدولة العليا العثمانية الحائزة لمنصب الخلافة الكبرى ، والمستشرفة بخدمة مهبطى الوحى الحرمين الشريفين ، ويسلكوا معها فى طريق السعادة والنجاح لهذه الأمة المحمدية ، ويجتنبوا ما فيه افساد للمقاصد الخيرية لهذه العصابة الأحمدية ، والا فالمستقبل معاذ الله وخيم . ونسأل الله اللطف وهو الهادى الى الصراط المستقيم » (٢) .

كل دعوة اصلاحية اذن فى نطاق هذا الاطار السياسى الدينى ترتد الى هذا الأصل ولا تعتبر غريبة على المجتمع الاسلامى فى هذه الفترة ، فقد بدأ العلماء يجتمعون ويتناقشون بعد التقاطع والتدابر ،

---

(١) الاحتلال الانجليزى ص ١٧ .

(٢) القومية العربية والشعر المعاصر ص ١٢ .

وسرت روح جديدة فتحت الأبواب لتيار من الوعى يناقش الأمر على مستوى العلماء وعلى مستوى الشعب .

تخيل الكواكبى — فى كتابه أم القرى — مؤتمرا فى مكة يجمع ممثلين من مختلف الأقطار الاسلامية يبحثون فيه حالة الأمة ويرسمون سبل الاصلاح ، ولا شك انه كان يعبر فى ذلك عن امانى الأمة واملها فى وجود هذا المؤتمر ، فالأسئلة التى يجيب عنها العلماء ، هى نفس الأسئلة التى شغلت الناس زمنا ، وحاول كل منهم ان يجد لها الجواب . فلا ريب ان حالة من الركود والضعف العام كانت تخيم على الشرق الاسلامى ، وما من شك فى أن الاسلام برىء من ضعف المسلمين وهو الذى يحث على القوة .

هل البعد عن تعاليم الدين هو السبب فى هذا الخمول ؟ هل فقدان القادة والزعماء الأقوياء العادلين ؟ هل الذى أوصل الى هذا التردى ؟ هل التنافر والتقاطع بين علماء الاسلام كان طريق التنافر والتقاطع بين أجزاء الأمة الاسلامية ، بحيث اصبح المستعمر يستولى على جزء من الأمة فلا تحرك بقية الأجزاء ساكنا ؟ السبب دينى أو سياسى اذن ؟ وكل هذه الأسئلة اسباب او نتائج ؟ كلها جروح فى جسم الأمة الاسلامية لابد أن تلتئم ، سواء أكانت سياسية أم دينية ، ولم يكتف المؤتمر بالبحث فى الأمراض وعلاجها ، بل اقترح انشاء جمعية دائمة تعنى باصلاح المسلمين ، وتشرف على تنفيذ برنامجها فى الاصلاح (١) .

ولم يكن البحث فى أسباب انهيار هذا البناء الاسلامى قاصرا على العلماء وحدهم كما قلنا ، وانما كان الوعى قد بدأ ينضج ويتفجر بعد أن سلطت الأضواء على هذا الجسم المريض ، ورواية — السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين — التى الفها محمد كاظم ميلانى التاجر

---

(١) أم القرى (القاهرة — ١٣١٦ هـ) .

بالاسكندرية تعرض لنفس الموضوع من وجهة نظر الجمهور . فهى تتناول تناولا تغلب عليه الروح القصصية راى افراد القصة ــ وهم شخصيات عادية من المجتمع ــ فى التفكك الموجود بين المسلمين وفى البدع المنتشرة باسم الدين وفى الاعراض عن تعاليمه ، وفى فتح باب الاجتهاد فى الدين حتى نساير حاجات العصر ومتطلبات الزمـــان كما كان يقول جمال الدين (١) .

ولكن السؤال الذى كان يجول بالخواطر فى ذلك الوقت هو الوسيلة التى يلتئم بها الشمل ، وهل نستطيع فى سهولة أن ننقى الدين من شوائبه وأن نكتل الناس حول قيم جديدة ، أم أن السبيل الأيسر هو طريق السياسة وارشاد الناس الى المطالبة بحقوقهم ، والى الاصرار على وجود الدستور الذى يزيل الأحقاد الطبقية فيلتف الناس حول مبادئه ، ومن هنا تكون بداية الاصلاح الشامل ؟

كان جمال الدين الأفغانى فى الواقع يرفع العلمين معا ، فهو يدعو فى كل مكان الى فهم الدين الصحيح وفتح باب الاجتهاد الذى سدته الجهالة والكهانة وتنقية الاسلام من البدع التى عدها الناس دينا ثانيا ، ومن هنا يجتمع الناس حول راية الاسلام ، وهو فى نفس الوقت يلفت نظر الرعية الى حقها فى محاسبة الراعى « ماذا تنفع الحكومة الصالحة اذا كان الشعب غير صالح ؟ لقد علمنا التاريخ أن الحكومة لا تستقيم الا اذا كان فى الأمر رأى عام يخيفها ويلزمها أداء واجباتها ، والوقوف عند حدها ، فاذا لم يكن ذلك فالطبيعة البشرية تملى على الحكام أن يستأثروا بالمنافع ، وغاية ما يتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوتة بوقتها ، فاذا زالت حل محلها من لا يصلح ، اذ لا شأن للأمة فى اختيارها ولا رقابة لها على أعمالها » (٢) .

---

(١) السبب اليقين الاسكندرية ــ ١٩٠٢ .

(٢) زعماء الاصلاح ص ٥٨ .

فتعالت نداءات الحرية تحاول أن تدك صروح الاستبداد فى كل مكان ، فها هو ذا « مصطفى فاضل » يرفع خطابه الى الخليفة مصورا فيه حالة المسلمين المؤسفة التى قد تكون باعثا على الثورة ، ومصورا فيه اتهامات الأوربيين لديننا بأنه سبب الضعف . ومطالبا فيه بالحرية وبالدستور ، وهو خطاب جرىء جراة توضح حقيقة الوعى الذى بدأ يستشرى ، وترسم صورة حية للنفوس التى يثيرها الظلم والاستبداد . « لم يبق فى قوس صبر المسلمين منزع . فقد بلغ بهم الضر نهايته ، وأكلت أجسامهم الآلام ، وامسوا لا قدرة لهم على كتمان ما فاض عن نفوسهم من الضجر والرزايا . ومن الخطر على أسرتك وعلى أمتك أن تترك اليأس يتولى الرعايا .. هب الأمـــة دستورا صحيح الجسم رحيب الصدر خصيب التربة ، وحفه بالأمان ، وخطه بما يضمن الاخلاص فى انفاذه والأمانة فى الجـــرى عليه ، وبما يصونه من العبث به مدى الايام ، دستورا يتساوى أمامه المسلمون والنصارى فى الحقوق وفى الواجبات ، ليسود الوئام ، ويهبط على الكل السلام ، وترد حجة الذى يقول من أهل الغرب : ان التآلف بين الغالب والمغلوب محال » (١) .

وها هو ذا الكواكبى يجمع مـــادة كتابه « طبائع الاستبداد » فيعرض لأثر الاستبداد فى افساد الأخلاق مبينا أن الانسان يمتاز بالارادة ، والاستبداد يفقد الارادة ، ويبين الحكمة فى احتمال ما فى الحرية من مضار فيرجع تلك الحكمة الى حرية النقد وهو فى عهد الاستبداد غير مقدور عليه . ثم يعرض لأثر الاستبداد فى افساد الدين فيصبح الدين عبادات مجردة عن معانيها ونظريات بعيدة عن التطبيق ، ومن هنا كان أثره واضحا فى افساد التربية أيضا ، ومنعكسا على كل أعمال الدولة وموظفيها . والأغنياء هم دعائم المســـتبد

(١) من أمير الى سلطان ص ٨ .

اما الفقراء فيخافهم خوف النعجة من الذئاب وهم يخافونه ايضا خوف الطيور الصغيرة من النسر .

وهكذا تعمق الكواكبى نفسيات المستبدين ونفسيات الرعية محللا مدققا لينتهى آخر الأمر الى ان كل عللنا يمكن أن ترد الى الاستبداد . والذين يظنون أن تأخرنا يرجع الى الجهل او الفقر أو الى ترك الدين هم بين مخطىء وبين عارف يمنعه الاستبداد أن يقول ما يعرفه . وانتهى الكواكبى الى تقديم مجموعة من المشاكل وضعها بين أيدى المفكرين ودعاهم الى بحثها وختم هذه المشاكل بالمشكلة الكبرى وهى كيف نتخلص من الاستبداد ؟ ورأى أن لا سبيل الى ذلك الا بالتوعية الفكرية والحماسة العاطفية لحب الحق والعدالة (١) .

ثم ها هو ذا « عرابى » يشهر سيفه فى وجه الخديو مطالبا باسقاط الوزارة المستبدة واعلان الدستور . ولم يكن ممكنا أن يحظىء عرابى بهذا التأييد الشعبى لو أن الناس ظلوا يعتبرون الخديو ولى النعم وصاحب الأمر والنهى ، فمن الواضح أن تيارا واعيا قد بدأ يسرى قويا متدفقا يحاول أن يجرف أمامه كل السدود . ولكن مرحلة اليقظة فى عمر الشعوب أشبه بمرحلة الصبا فى عمر البشر ، يحس المرء بدماء الفتوة تجرى فى عروقه فيحاول أن يجرب يديه ، ومن هنا لم يقدر لعرابى كل النجاح فى ثورته ، فما لبث المجلس النيابى أن حل وما لبث الاستعمار أن جثم على صدر مصر التى شغلت الى حين بتضميد جراحها .

فقد سجن من زعماء الثورة من سجن وشرد من شرد ، واستولى اليأس على الناس ، وفشى فيهم روح التخاذل ، ودب دبيب السعايات . وفقد الصديق صديقه بعد الذى كان من شهادة بعضهم

---

(١) طبائع الاستبداد ص ٩٩ .

على بعض تحت ضغط المحققين وهول الارهاب . وكره النـــاس السياسة وانطووا على انفسهم لا يرجون الا السلامة . واخـــذ الاحتلال فى غمرة من يأس الناس وموت الهمم وارتماء الخديو فى أحضان أولياء نعمته ، يثبت أقدامه ويدعم كيانه . وتوالت الوزارات المستسلمة نوبار ثم رياض ثم مصطفى فهمى ، واخمدت أنفاس الصحافة لأدنى شبهة يتوهم فيها التعريض بالاحتلال أو الخديو ، فمنعت «العروةالوثقى» التى كان يصدرها جمال الدين ومحمد عبده فى باريس من دخول مصر ، والغيت صحف « الوطن » و « مرآة الشرق » و « الزمان » كل ذلك والناس فى لامبالاة لا يرتفع صوتهم بمعارضة او تذمر ، أو قل انهم فى مرحلة الدهشة من وقع الصدمة وعنف المفاجاة .

وكان أول صوت ارتفع باسم الوطن والوطنية بعد الاحتـــلال هو صوت صحيفة « المؤيد » التى ظهر العدد الأول منها فى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ ، وقد جاء فى فاتحته « وما لنا ان لا تقوم بشعائر تطالبنا بها الاحساسات الطبيعية والحاجات الوطنية ودواعى الحياة الدينية والأدبية وكمال التحقق بحقيقة الوحدة الجامعة الجنسية . فنسألك اللهم أن ترشدنا الى خير ما اردنا واحسن ما نريد » ، وارتفع صوته للمرة الأولى منذ الاحتلال باثارة مسألة الجلاء ، فأخذ يتساءل عن الاصلاح الذى تعلق عليه بريطانيا جلاءها عن مصر ، وماذا تم منه وهنا يلتفت الى الاستعمار الاقتصادى ويحذر الناس منه ويدعوهم الى التكتل والاتحاد . وهكذا كان صوت « المؤيد » هو البشير بأن مصر لم يزل فيها بقية من حياة واحساس وأن فترة الدهشة والذهول قد بدأت تنداح (١) .

ومن هنا بدأت تتكون الأحزاب فى مصر ، الحزب الوطنى وزعيمه مصطفى كامل وجريدته « اللواء » ، وحزب الاصلاح على المبادىء

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ج ١ ص ١٤٣ .

الدستورية وزعيمه على يوسف وجريدته « المؤيد » وحزب الأمة وزعيمه محمود سليمان وجريدته « الجريدة ». وهكذا انبعثت الفكرة الوطنية من جديد ولكنها اتخذت شكلين متباينين ، أحدهما يتحدث عنها حديثا عاطفيا والآخر يتحدث عنها حديث المصلحة ولا يستهدف اثارة الناس ولكنه يحاول اقناعهم ، ولا يتغنى بالوطن المحبوب ولكنه يتحدث عن النفع المادى والمصلحة المشتركة التى تجمع بين ساكنيه .
وكان الفريق الأول ممثلا فى مصطفى كامل وهو يدعو الى جامعة مصرية اسلامية ولا ينكر الرابطة العثمانية ولكنه يتخذها وسـيلة لمناوأة الانجليز ، وكان الفريق الثانى ممثلا فى حزب الأمة ، وهو يدعو الى جامعة مصرية خالصة ولا يعترف بالرابطة العثمانية لأنها لون من الوان الاستعمار كما انه لا يعترف بالجامعة الاسلامية لأنها وهم لا سبيل الى تحقيقه . وكانت الدعوة الأولى أقرب الى القلوب جذبت كثيرا من الناس بينما انصرفوا عن الدعوة الثانية لأن دعاتها من كبار الملاك الذين لا يعنون الا مصالحهم الخاصة يتحدثون عن النفع المادى ، هذا الى انهم قد انصرفوا الى الحديث عن الاصلاح ولم يهاجموا الاستعمار الذى كانوا يوادونه حرصا على مصالحهم .
أما حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية فلا يختلف كثيرا فى مبادئه عن الحزب الوطنى وان كان من ورائه الخديو يعمل على مؤازرته ، كما كان كرومر من وراء حزب الأمة يؤازره . وهكذا كانت الوطنية فى هذه الفترة مختلطة بالدين — ونلمح جذور الفكرة فى هذه الدعوة منذ جمال الدين — حتى قيام الحرب العالمية الأولى التى كانت حدا فاصلا بين عصرين متباينين فى مفهوم الوطنية .

هذه المرحلة اذن كان التيار السياسى ينبع فيها من الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، او الدعوة الى التكتل على أساس دينى ، ولكن روافد الثورة الفرنسية كانت قد بدأت تصل الى الشرق ومن هنا نلمح فكرة العدالة والحرية والمساواة والحقوق والواجبات او بمعنى

آخر الدعوات الدستورية وما تلا ذلك من أحداث الثورة العرابية ثم مرحلة الصدمة أو اللامبالاة حتى تجددت الدعوة الوطنية وتحدد مفهومها العقائدى فى أعقاب الحرب الكونية الأولى .

اذا تتبعنا بعد ذلك النزعات الاصلاحية وهى تصور الحيــاة الاجتماعية والموقف الفكرى فى وقت واحد ، وجدنا أن مرحلة الثورة العرابية قد مرت فى حياة الناس سريعا وكأنها لم تكن ، فعادوا الى اليأس والانطواء ينظرون حولهم دون اكتراث ، وأدرك العقلاء أن تهذيب الشعب واصلاح عيوبه هو الخطوة الأولى فى سبيل أية نهضة ، فأخذوا يكشفون عن مواطن الضعف والمرض فى حيــاتنا وينبهون اليها فى لين الواعظ المشفق على قومه الحريص عــلى هدايتهم حينا ، وفى عنف المغيظ المحنق الذى غلب عليه الضيق بالفساد حينا آخر . وبرز من المصلحين طائفتان متميزتان ، طائفة تدعو الى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية وطائفة أخرى تدعو الى الاحتفاظ بتقاليدنا الاسلامية والشرقية .

كان الداعون الى الأخــذ بأساليب الحضــارة الغربية من ذوى الثقافات الأوربية ، الذين جذبتهم مظاهر الحياة فى أوربا ، فعاشوا فى بيوتهم حياة أقرب اليها ، واقترن فى أذهانهم حاضر الشرق الضعيف بتقاليده الموروثة ، وفترت صلاتهم بالحيــاة الشرقية ، فراحوا ينادون بالاقتداء بالغربيين فى أساليب حضارتهم المزدهرة . وكان للمستعمر مصلحة واضحة فى فرنجة المصريين جميعا باسم التجديد أو المدنية ، وقد عبر اللورد « لويد » عن ذلك حين قال : « لقد أوجد اللورد كرومر شركة وطيدة بين بريطانيا ومصر ، وهذه الشركة مهما تغيرت أشكالها لازمة للشريكين ، وهذا يجعل استمرارها لا مندوحة عنه ، فعلينا أن نقوى كل ما لدينا من وسائل التفاهم المتبادل بين البريطانيين والمصريين .. وليس من

وسيلة لتوطيد هذه الرابطة ، افضل من كلية تعلم الشبان من مختلف الأجناس المبادىء البريطانية العليا » (١) .

فالدعوة الى المدنية الأوربية اذن كانت تجتذب نفرا من أهل البلاد ، وقد يبالغون فى دعوتهم الى نبذ التقاليد الشرقية ، حتى يجرهم ذلك الى الاستخفاف بعاداتنا وقيمنا الروحية فى بعض الأحيان ، كما صنع ولى الدين يكن فى مقالاته التى كان ينشرها فى المقطم وجمعها فى كتابه الصحائف السود . فهو يطلب للمرأة الحرية المطلقة . ولكن اسلوبه بعيد عن الموضوعية شديد السخرية من عادة الحجاب ، وهو يجهر بافطاره فى رمضان فيضع عنوانا لمقاله « أكذوبة ابريل واكذوبة رمضان » .

وطبيعى أنه كان هناك فريق يتمسك بتقاليده ودينه ومثله الشرقية ، لم تبهره الحضارة الغازية فيسير فى ركابها وتغلب عليه صفة الطفرة . راى ان الانسياق وراء تقليد الغربيين فى كل شىء سوف يفقد الأمة احساسها بكيانها ، ويدفعها الى الفناء فى الحضارة الغربية ، فنادى بأن النهضة لا ينبغى ان تقوم الا على اساس التمسك بقيمنا . فيكتب « رفيق العظم » فى احدى مقالاته ، مبينا ان نهضتنا الصحيحة لا تقوم الا على أساس تنقية الدين من الشوائب التى علقت به على مر السنين ، ثم الالتفات بعد ذلك الى الاصلاح المدنى ، بعد أن تكون الأمة كلها قد وعت دينها على حقيقته . ثم يؤيد رأيه بالرجوع الى التاريخ ، فأوربا لم تنهض نهضتها الا بعد الاصلاح الدينى الذى دعا اليه « لوثر » فى القرن السادس عشر ، ثم كان الاصلاح المدنى بعد تحرر العقول من كل قيد زائف (٢) . وهؤلاء الدعاة الى التمسك بالحضارة الاسلامية ، لا يفتأون يحذرون

---

(١) المقتطف مايو ١٩٢٦ ص ٥٣٠ .

(٢) المقتطف مايو ١٩٠٤ ص ٤٠٢ .

من خبث دعوة الغربيين ، ومن الاندفاع وراء تقليد لا يستند الى واقع حياتنا ولا الى مقوماتنا . وفى مجلة « التنكيت والتبكيت » لعبد الله النديم مجموعة من القصص حول هذا الموضوع . فقصته التى جعل عنوانها « مجلس طبى لمصاب بالافرنجى » وقصة « عرب تفرنج » تصوران مدى اندفاع بعض الناس فى تقليد الأوربيين حتى فى مساوئهم (١) .

على أن هذا الاختلاف بين الفريقين ، وهذا التناقض الحاد فى تقبل الحضارة الغربية وفى رفضها — بما فيها من حسنات ومن سيئات — نجده مصورا تصويرا قويا فى « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى الذى صدر بالقاهرة لأول مرة عام ١٩٠٧ . والكتاب يصور حياتين ، حياة جيل عاش فى النصف الأول من القرن الماضى وجيل عاش فى النصف الثانى من ذلك القرن وأوائل القرن العشرين . فيعرض لفكرة المساواة فى الحقوق وفى الواجبات ، وابناء الجيل الأول يعرفون أن السلطة كلها كانت مركزة فى يد الوالى وأن طبقة « الباشوات » لها من الحقوق ما ليس لغيرها ، وعليها من الواجبات أقل من غيرها بحكم الاقطاعيات التى تملكها أو الألقاب التى تحملها ، ولكن أبناء الجيل الجديد الذين تأثروا بالمفاهيم الغربية يعرفون المساواة امام القانون . ويصدم الباشا — وهو بطل الموقف ومن الجيل الماضى الذين قدر لهم أن يشهدوا الحياة الجديدة التى تبدل فيها كل شىء — حين يرى انه لا يختلف أمام القانون عن أى صغير أو حقير ، فيقول : « ما هذه الخطوب والملمات ، لقد كنت أظن ان ما وقع لى أمس كان لسخط ولى نعمتنا الداورى الأعظم وغضبه على عبده بمكيدة كادها لى أعدائى أو فرية افتراها حسادى ، فلذلك صبرت لحكم الضرورة ، وامتثلت على تلك الصورة .. ثم انى أعمد بعد ذلك انشاء العقاب ، عقاب القتل والصلب فى هؤلاء

(١) سلافة النديم جـ ١ ص ٧٩ ، ٨٢ .

الأدنياء السفهاء والأشقياء الأغبياء جزاء ما اجترأوا عليه فى معاملتى واقترفوه من جهل منزلتى ، ولكنى سمعت فى الحبس — ويا سوء ما سمعت — أن الدول دالت والأحوال حالت . وانكم اصبحتم فى زمان غير ذلك الزمان ، وفى حال من الفوضى يصح فيها قول ذلك المكارى انه هو والباشا فى المنزلة سواء » (١) .

ثم ينتقل الى الحديث عن التقدم العلمى وخاصة فى الطب — وهو مثل من امثلة الرقى — حين أصيبت البلاد بالوباء ، ويعجب الباشا لهذا التقدم العلمى الكبير ، ويستمر فى مسيره مع عيسى بن هشام ، فينتقل الى الجانب الثانى من المجتمع حيث تتركز سيئات المدنية : فهى طبقة « حديثة النشأة حديثة التربية لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ، لم يرسخ الايمان فى قلوبهم ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم ، ولم يتأدبوا بأدب الدين ، ولم يرتاحوا لحسن اليقين . بل اقتصرت بضاعتهم على ما تلقوه فى المدارس من العلوم الآلية ، والفنون الصناعية ، دون علوم التربية النفسانية والفضائل الروحانية . وخلت صدورهم من آيات الله والحكمة ، قد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون بالشرائع والازدراء بالايمان ، ولم يحيطوا بشىء من العلوم الموضوعة لتقويم النفوس وتطهير الطباع » (٢) .

وقد ارتمت هذه الطبقة فى المباذل التى حملتها الينا الحياة الغربية مع ما حملت ، ولم يقتصر الأمر على سكان المدن ، بل ان بعض أهل الريف الموسرين الذين عرفوا طريقهم الى المدن الكبيرة كالقاهرة كانوا يأتون للهو والمجون ويقعون فى أحابيل الخلعاء وسماسرة الفجور ، يدمنون الخمر ويرتمون فى أحضان الرذيلة ، لا يردعهم رادع ولا يحسبون حسابا لما ينفقونه فى فنون الخلاعة .

---

(١) حديث عيسى هشام ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٢ .

ويخلص المويلحى الى تصوير حسنات المدنية الغربية الغازية وسيئاتها ، مختتما بما على الشرق أمام هذا التيار ، من اقتداء بالغربيين فى تقدمهم الصناعى وتطورهم العلمى ، مع التمسك بفضائل الشرق التى تنبع من روحانيته الخصبة . وهكذا فهم الناس الحرية فهما خاطئا فى كثير من الأحيان ، فهموا منها التحلل من التقاليد تحللا أشبه بالفوضى ، بينما فهمها العقلاء بمعنى المساواة فى الحقوق والواجبات . ومن هنا وجدنا عبد الله النديم يخصص مجلة الطائف للحديث عن أمراضنا الاجتماعية التى جاءت نتيجة الفهم السيىء لمعنى الحرية . وهذا فى الواقع هو سر التخلخل الاجتماعى الذى أصاب الشرق فغلبت المادية على حياة الكثيرين ، والمرء فى حاجة الى السمو الروحى الى جانب البسطة المادية ليحتفظ بتوازنه فى الحياة (١) .

تلك اذن صورة العصر الذى عاش فيه صاحبنا البكرى ، فاذا رأيناه داعيا للاصلاح الاجتماعى على أساس اسلامى ، أو داعيا للاصلاح السياسى فى نطاق الجامعة الاسلامية فهو متأثر بأحداث عصره وبآراء الرائد الأول جمال الدين ، واذا وجدنا بعد ذلك تأثره الشديد بالثقافة العربية والقيم الشرقية ثم تأثره القوى بالثقافة الأوربية ومحاولته الملاءمة بين الحياة الشرقية وضروب المدنية الأوربية الغازية فهو ابن العصر الذى يمر بمرحلة تفاعل شديد ومخض قوى لا يلبث أن يقطع الشك باليقين .

(١) الاتجاهات الفكرية لجميل صليبا ص ٥٨ .

فى بيت البكرى

يحفظ لنا تاريخ الانساب قصة هذا البيت الذى ينتسب الى ابى بكر الصديق فى الأصل ، ثم يتفرع فيصل الى الحسن بن على ، كلما ورد فى « بيت الصديق » . واهتمام العرب بانسابهم معروف منذ العصر الجاهلى ، وكل البيئات القبلية تحفظ اصولها وفروعها وتفاخر بها ، ولم يستطع الاسلام فى الواقع أن يقضى قضاء تاما على العصبية للأنساب والتحمس لها فقد انبعثت قوية جارفة بعد وفاة الرسول كما نعلم واشتدت فى العصر الأموى وكانت محور كل صراع قام فى ذلك الوقت ، ولكن التطـــور الحضارى فى العصر العباسى ــ وما اعقب ذلك من عصور بطبيعة الحال ــ اذوى اشجار النسب فى كثير من الأحيان ، خاصة عندما قام الصراع الشعوبى بين العرب والفرس ، فأصبح الانتساب الى العرب عامة والانتساب الى الفرس عامة ايضا هو مجال النسب والتفاخر . ولكن بالرغم من مر السنين وتطور الأحداث وتقلب الحضارات وتغير النظرة الى دواعى الفخر ومجالاته بقى الأشراف يحتفظون بانسابهم ، كما تحفظ أسرة البكرى انسابها الى اليوم .

وتذكر الروايات أن محمد بن أبى بكر قد دخل مصر واليا عليها من قبل أمير المؤمنين على بن ابى طالب ، ولكنه ما لبث أن قتل من دعاة بنى أمية . ثم رحل بعد ذلك الى مصر بعض بنى الصديق فى القرن الأول الهجرى فقطعوا البحر الأحمر الى الصعيد حيث القوا عصا التسيار . يقول المقريزى : « وكان بالصعـــيد من قريش بنو طلحة وبنو الزبير وبنو شيبة وبنو مخزوم ، فأما بنو طلحة فهم ينتسبون الى طلحة بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله

عنه ، ومنازل بنى طلحة هؤلاء كانت بالبرجين وطحا » (١) . وبقى بنو طلحة أربعة قرون تقريبا ، حتى اذا كانت أيام صـــلاح الدين الأيوبى ، نجد فرعا منهم قد رحل الى الشام وفرعا آخر رحل الى الفيوم . وفى خزانة السادة البكرية ، وقفية مؤرخة فى شـــوال سنة ٥٨١ هـ تشترط أن يقوم البكريون بالتدريس فى المدرســـة الشافعية التى أسسها الملك المظفر ابن اخى صلاح الدين الأيوبى بالفيـــوم .

ولم تخرج لنا الأسرة البكرية أساتذة المذهب الشافعىّ وحدهم ، فكثير من كبار العلماء والشعراء ينتسبون الى الدوحة الصديقية أمثال الفخر الرازى البكرى الفيلسوف المفسر ، والشريف الرضى الشـــاعر والفيروزبادى الصديقى صاحب القـــاموس المحيط وابن الجوزى والسهروردى وغيرهم ممن حملوا مشاعل العـــلم والفقه ، أو ممن جذبهم تيار السياسة فوصلوا الى الامارة مثل على خان أمير حيد آباد ، أو عرضت عليهم الخلافة فى مصر مثـل شيخ الاسلام محمد جلال الدين البكرى فى القرن التاسع الهجرى ، وترجمته مفصلة فى ذيل الطبقات للشعرانى والضوء اللامع السخاوى وفى الجزء الثانى من رحلة عبد الغنى النابلسى . ويحكى تاريخ النسب ان هذا الشيخ الجليل كان أول من نزل القاهرة من الأسرة البكرية . يقول الشعرانى فى ترجمته : « كان من العلماء العاملين ، وله القدم الراسخ فى علوم التصوف والفقه والأصول وغير ذلك ، اخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ كمال الدين البكرى .. وكان رضى الله عنه يكرم كل وارد عليه من امير وفقير أو غنى أو حقير ويقدم لكل واحد ما يناسبه ، وكان كثير الأدب والحياء كريم النفس جميل المعاشرة حلو الكلام كأن الله تعالى عجن طينة جسده من سائر المحاسن . وكان

---

(١) بيت الصـــديق ص ٦ نقلا عن البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعـــراب .

على طريقة العرب فى الكرم والنخوة والمروءة وكان كثير الشفاعات عند الأمراء وغيرهم وكانوا يهابونه ويجلونه وكان مهيب المنظر عليه خفر العلماء » (١) .

ويحكى التاريخ أن جنود مصر حين ثاروا على السلطان «الغورى» وارادوا خلعه من الملك ، توجهوا الى الشيخ جلال الدين البكرى ، وطلبوا اليه أن يقبل الخلافة على المسلمين فى مصر ، بعد أن توسموا فيه كل الصفات التى ترشحه للخلافة من علم وتقوى وشجاعة ، وبعد أن فضلوه لانتسابه الى ابى بكر الصديق ، الذى كان خليفة لبلاد المسلمين . « فقال اصبروا فان سلطانكم قريب ، ثم وقع ما وقع وجاءهم السلطان سليم » (٢) .

ويستمر التاريخ فى قصته : فتتتابع فصول الاسرة البكرية وعلى راس كل فصل عالم من الأعلام ، حتى يتوقف عند السيد على البكرى الصديقى — والد السيد محمد توفيق البكرى . والواقع أن حياة هذا الرجل لا تكاد تختلف عن حياة آبائه ، ولكنها حياة عريضة بمعنى أنها صورة مكبرة لحياة أجداده وصورة مصغرة لحياة أمة كلها . فهو المرجع الأعلى فى الشئون الدينية ، وهو نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ورئيس الأسرة البكرية او خليفتهم . وفى بيته كانت تعقد أخطر الاجتماعات الدينية والسياسية . وفى مكتبة البكريين صك كتب بمنزل السيد على عند تولية الشيخ البيجورى مشيخة الجامع الأزهر ، ومضمونه أن الترشيح لهذا المنصب الكبير انما يتم عن طريق اختيار السيد على البكرى .

« الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين . انه لما كان فى يوم الأحد المبارك الموافق ١٩ شعبان سنة ١٢٦٣ حضر

---

(١) « بيت الصديق » ص ١٠٠ .

(٢) بيت الصديق ص ١٠٢ نقلا عن رحلة عبد الغنى النابلسى .

بمجلس سعادة الأستاذ الأعظم السيد البكرى نقيب السادة الأشراف حالا ، دامت سيادته ، حضرة شيخ الاسلام وعلامة الأنام ، الشيخ ابراهيم البيجورى المذكور .. قبل حضور الفرمان الشريف بتوليته على الجامع الأزهر ، ووقع الاتفاق أن يكون على أحسن حالة وأتم صفة من الكمالات التى يقتضيها مظهر شياخة الأزهر على طبق أحوال السلف وأن يكون طبق الأصول المعروفة للجميع الموافقة للطباع الحميدة من سعة الصدر وحصول الحلم وعدم التعرض للأمور التى لا تدخل تحت رسوم الجامع الأزهر مثل ما يتعلق بالزوايا وبالفقراء التى تحت حكم سعادة السيد البكرى .. » (١) .

وقد اجتمع فى منزله أعيان الأمة ووضعوا اللائحة الوطنية التى تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربا ، حتى لا تتدخل أصابع الدول الأجنبية فى شئون مصر ، وكان هذا من أكبر الاجتماعات التى شهدتها الدار ، فقد أحدث فى الناس شعورا بالقوة لم يلمسوه فى أنفسهم من قبل ، وأحسوا أنهم يستطيعون أن يعتمدوا على قوتهم وأن يوجهوا أمورهم كما يقول الشيخ محمد عبده (٢) ، ومن هنا لقبته الجرائد بشيخ الأمة .

وزاره الخديو اسماعيل بعد ذلك فى داره شاكرا له مسعاه ، طالبا منه أن يسعى مرة أخرى فى انقاص نسبة الفائدة على الديون المصرية ، فتوجه الى السير بارنج — لورد كرومر فيما بعد — وأكبر الرجل هذه الزيارة من رجل الدين الكبير وشيخ الأمة ، ورفض السيد على البكرى أن يذوق شيئا قبل أن يسمع رأى السير بارنج فى انقاص نسبة الفائدة الكبيرة ، فأجيب الى طلبه فى الحال ، وخرج يملأ القلوب والأفواه كما كان يقال عنه (٣) .

(١) راجع نص الصك فى « بيت الصديق » ص ٤٢ .

(٢) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ١٦١ .

(٣) روى لى هذه القصة السيدان حسن فائق البكرى وسيف الدين البكرى قريبا السيد محمد توفيق .

وكان هذا البيت الذى شهد كل تلك الأحداث بالأزبكية ، مطلا على بركتها المشهورة . يقول الجبرتى : « ان الرغبة فى سكن هذه البركة انما كان لتسريح النظر وانبساط النفس باتساعها واطلاقها وخصوصا ايام النيل حين تمتلىء بالماء فتصير لجة ماء دائرة بركارية مملوءة بالزوارق والقنج والشطيات المعدة للنزهة تسرح فيها ليلا ونهارا . وعند دخول المساء يوقدون القناديل بدائرها فى جميع قواطين البيوت فيصير لذلك منظر بهيج لا سيما فى الليالى القمرة فيختلط ضحك الماء فى وجه البدر والقناديل وانعكاس خيالها كانها اسفل الماء ايضا وصدى أصوات القيان والأغانى فى الليل لا تعد من الأعمار اذ الناس ناس والزمان زمان » (١) .

وفى أواخر ايام اسماعيل عند تنظيم بركة الأزبكية وما حولها اخذت دار السيد على البكرى المذكورة واعطاهم الخديو بدلا منها سراى سعيد باشا بالخرنفش ، وهى سراى ضخمة انتقلت اليها الأسرة البكرية فملأت اجنحتها العديدة ، ومنها كان يخرج المحمل الشريف وفيها كانت تقام ليالى المولد النبوى كما يقول على مبارك فى الخطط التوفيقية (٢) .

كان هذا هو منزلى الرسمى الذى تقام فيه الاحتفالات والاجتماعات الهامة ، وتسكنه الأسرة البكرية كلها كما قلنا ، اما فى الشتاء فينتقل الى بيته بضواحى شبرا ، وهناك على مدى النظر لا تكاد ترى سوى بساتين وحدائق وخضرة مترامية ، أما البيت نفسه فآية فى الفن العربى خاصة فى الزخرفة ، واذا دققت النظر ، وجدت دائرة كبيرة تحكى قصة البيت بماء الذهب منظومة فى قصيدة طويلة مطلعها :

كتب الحسن بأقلام الذهب   فى طراز لازوردى عجب

(١) راجع بيت الصديق ص ٣٩٧ .

(٢) راجع بيت الصديق ص ٤٠٠ .

وأما فى الصيف فينتقل الى قصره بالروضة ، وقد تخير هذا القصر لذلك الوقت من العام ، فموقعه على النيل وانفساح الأرض على الضفة الأخرى من النهر ، بحيث لا يرى الناظر سوى المزارع والشجر يكشفه امام الرياح الرطبة ، بينما يمتلىء النيل بسفن ومراكب المتنزهين فى ليالى الصيف (١) .

وقد شهدت كل هذه القصور مجالس العلم التى كان يعقدها السيد على البكرى ، فيتصدر تلك المجالس بجسمه الضئيل ووجهه النحيل ولحيته البيضاء وعمامته الكبيرة ، ويلتف حوله العلماء يناقشونه فى امور الدين ، وكثيرا ما يتبـــدل المجلس فيحيط به الوجهاء يتناقشون فى الأوضاع السياسية ، أو يقصده فى تلك الدور ذوو الحاجات من ابناء الأمة أو من أدباء الوطن العربى .

وفى احد تلك القصور ـ قصر الروضة ـ وفى فجر ليلة الجمعة ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٨٧ هجرية الموافقة لسنة ١٨٧٠ ميلادية ، ولد محمد توفيق ، وكان الولد الثانى للسيد على البكرى الذى نيف على الستين . ولم يكن من الممكن أن تنجب له زوجه الأولى ولدا ثانيا بعد أن بلغت سن الشيخوخة ، وبلغ ابنهما عبد الباقى العشرين من عمره ، ولذلك تزوج ثانية وهو فى هذه السن ليسعد بنعمة الأبناء مرة اخرى . ولم يلبث الصيف ان انقضى فانتقلت الأسرة الى قصر الخرنفش ، وهناك درج الطفل وقضى طفولته السعيدة .

كان هذا الطفل محط عناية الجميع فى القصر الكبير ، فما اسعد الاب الشيخ بولده الصغير ، يزيل بابتسامته كل متاعب الحياة ، وما أسعد الطفل بهذه الرعاية التى يلقاها من الأهل والجـــوارى والعبيد ، كلهم يحنون عليه لضعفه البادى فى نحوله الشـــديد ، ويحبونه لملاحة قسماته ، ويعجبون به لأن رأسه الكبير كان يوحى بذكاء شديد تظهر بوادره فى هذه السن المبكرة .

(١) بيت الصديق ٣٩٩/٤٠٠ .

بدأ الصبى يقرأ القرآن فى بيته ، وبدأ يتعلم مبادىء اللغة العربية ، ولم يكن عسيرا عليه أن يدرك معنى الآيات مبسطا . حتى اذا أتم قراءة القرآن وتعلم مبادىء العربية ، دخل المدرسة العلية التى انشأها الخديو توفيق لأنجاله ، وانتقل اليها أبناء كبار الرجال فى مصر . وهناك درس مبادىء الرياضة والتاريخ والجغرافية واللغتين العربية والفرنسية ، ولم يجذبه شىء فى دراسته قدر ما جذبته اللغات .

كان الوقت شتاء عندما انتقلت الأسرة الى مقرها بشبرا ، وكان السيد على البكرى الذى نيف على السبعين قد اقعدته الشيخوخة بأمراضها ، ولم يلبث أن ودع الحياة ليلة السابع عشر من ذى القعدة سنة سبع وتسعين ومائتين وألف للهجرة الموافق لسنة ثمانين وثمانمائة وألف للميلاد ، وترك ولده عبد الباقى يخلفه فى مناصبه وكان فى الحادية والثلاثين من عمره ، كما ترك ولده الصغير محمد توفيق يذوق اليتم صبيا لم يتجاوز العاشرة من عمره .

كان الصبى فى مأمن من أحداث الدهر وغوائله ، فأملاكه موفورة ، وأخوه كفيل برعايته ، ولكن الصبى فقد حنان الأبوة ، وبقى معنى الحياة والموت يداعب خياله الصغير دون أن يقوى على تفسيره . وكلما لاح له شبح أبيه وعز عليه ان يراه ، وكلما افتقد عطف الأبوة ، أسرع الى المقابر يذرف الدمع :

ايقطر هذا الدمع كالشمع أو أحمى
ويصبح هذا الهم كالسهم أو أصمى
وتخشع نفسى كلما شمت باللوى
قبور بنى الصديق اذ رفعت ثما

وكأنما كان لهذا الحادث أثره المباشر فى انطواء الصبى ، فانكب على علومه يستوعبها ولا يكاد يعرف غيرها مجالا لفراغه ولطاقته ،

فلم يكن مهيئا بطبيعة تكوينه الرقيق للعب والمزاح الحاد كاكثر الصبية فى عمره . وزاده انكبابا على القراءة ، ما كان بينه وبين الأمير عباس حلمى نجل الخديو توفيق من منافسة على الأولوية . ولم يكن يغيظ الأمير الصغير شيء الا ان يتفوق عليه احد ابناء الشعب ، فكان يعمد الى مضايقة توفيق البكرى بطرق ممجوجة كلما كانت الأولوية من نصيبه . حدث مرة أن أمـــر الصبى اليتيم فى مطعم المدرسة بأكل الجبن المقدم له وهو يعلم أن توفيق البكرى لا يحب هذا النوع من الطعام ، وانصاع الصبى لأمر الأمير ثم ما لبث أن تقيأ بعد حين ، وكره الجبن كراهية اشد منذ ذلك الوقت ، فلم يذقه الى آخر عمره (١) . وكأن القدر قد ربط مصيرهما منذ ذلك الحين ، فقد صعدا معا ، ثم ما لبثا أن هويا من حالق ، فى وقت يكاد يكون واحـــدا .

لم تطل اقامة توفيق البكرى بالمدرسة العلية فقد اغلقت فى أعقاب الاحتلال ، وسافر أبناء الخديو الى أوربا لاتمام دراساتهم ، وعكف فتانا على اتمام ما بدأه من علوم تحت اشراف بعض الأساتذة ، ولم يكن هناك ما يشغله عن شغفه بالقـــراءة ، فانعدام المنافسة لا يثبط عزيمته ، والاحتلال نفسه ، لم يكن فى هذه الفترة من عمره قادرا على أن يدرك آثاره . وهكذا تقدم الفتى بعد اربع سنوات لامتحان البكالوريا فى مصر ، فكان اول الناجحين .

لم يكن امامه بعد ذلك الا ان يتجه اتجاه آبائه فيلتفت الى علوم العربية وعلوم الدين ، وهو لن يجد أمامه عقبة الغموض التى طالما اشتكى منها طلاب الازهر لأن ثقافته تمكنه من متابعة تلك العلوم وعقله وسنه يمكنانه من فهم ما قد يغمض على غيره . وهكذا أيضا بدأ الطالب الفتى يشغل نفسه بالنحو والصرف ، ويعيد قراءة

(١) روى لى هذه القصة السيد حسن فائق البكرى : وكان السيد توفيق لا يفتأ يذكرها له .

القرآن محاولا التعمق فى فهمه بالرجوع الى أمهات التفاسير .
ثم درس الحديث والفقه والأصول . وفى هذه المرة جذبته البلاغة العربية ، فها هو ذا يقرأ علوم المعانى والبيان والبديع فلا يجد فيها مصطلحات متحجرة ، وانما يجد فيها مادة حية شديدة الخضوبة ، قادرة على أن تضع يد الأديب على سر الابداع والتفوق الفنى ، حين يدرك ما وراء هذه المصطلحات من ايحاءات ، وهكذا كان الأديب البليغ فى العصور الذهبية .

وبعد أن آنس من نفسه القدرة على التعمق والبحث وحده فى تلك العلوم تقدم لشيخ الجامع الأزهر الشيخ الانبابى ليختبره بنفسه فيما يدرس بالأزهر من العلوم ، ففعل وكتب له اجازة قال فيها :

« وممن اعتنى بعد ما اقتنى ، وقطع المفازة فطلب الاجازة ، ولدنا النبيل العالم النجيب الجليل ، فخر السلالة الهاشمية وطراز العصابة الصديقية ، السيد محمد توفيق ، نخبة نسل صاحب رسول الله أبى بكر الصديق ، بعد أن قرأ على رسالة الأوائل للشيخ عبد الله بن سالم البصرى ونبذة من الأصول والفقه والحديث والتفسير ، وطرفا من العلوم العربية كالنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع ، مع جودة الالقاء وحسن التوضيح والتقرير ، فلما لاح لى كوكب صلاحه ، وفاح لى نشر مسك فلاحه ، ورأيته أهلا لتلك الصناعة ، وجديرا بتعاطى هاتيك البضاعة ، حيث أفاد وأجاد وأجاب ، وكشف عن المعانى النقاب ، وأخذ من الفنون بأقوى طرف ، وأراد الاقتداء فى أخذ الأسانيد بمن سلف ، فبادرت لطلبه باعطائه بلوغ أربه » (١) .

وهكذا أصبح الشاب ذو الثقافة المدنية من علماء الدين وهو فى الثانية والعشرين من عمره بشهادة شيخ الأزهر . فكان يتزيى بزى

(١) بيت الصديق ص ١١ .

الشيوخ ، جبة وعمامة ضخمة يكاد ينوء بها جسده النحيل ، ووجهه الأبيض الشاحب وملامح وجهه الوسيم الدقيق تكسبه سمت العلماء ووقارهم فى ريعان الشباب وعنفوانه . ولم تلبث الأحداث أن جرت مسرعة عجلة لا تتأنى ولا تتلبث ، فها هو ذا الخديو توفيق يودع الحياة ، ويعود ولده عباس حلمى من أوربا ليتولى الخديوية وهو أشد ما يكون انكارا لأبيه ـ خضوعه واستسلامه للمستعمر . ولابد أن تثير عودة عباس حلمى ذكريات توفيق البكرى القديمة معه ، فترى ماذا يخبىء له القدر فى مستقبل الأيام مع زميل صباه ومنافسه القديم ؟

شيخ المشايخ

اثنا عشر يوما فقط مرت على وفاة الخديو توفيق ، وهو غارق فى ذكرياته ، حتى اقتلعته الأحداث اقتلاعا ، ففى ليـــلة الثلاثاء التاسع عشر من جمادى الثانية سنة تسع وثلاثمائة وألف الموافق لسنة ألف وثمانمائة واثنتين وتسعين ، ودع أخوه عبد الباقى الحياة وهو أشد ما يكون شبابا . ترى هل يتحمل هو مسئولية المناصب التى شغلها عبد الباقى وهو فى هذه السن ؟ ولكنه طالما اعتمد على نفسه وارادته فى مراحل حياته السابقة منذ عرف اليتم صغيرا . ولم يلبث أن استدعاه الخديو عباس وولاه الوظائف الموروثة فى بيت البكرى جميعا ، المشيخة البكرية ، ومشيخة المشايخ الصوفية ، ونقابة الأشراف . ثم صدر الأمر بتعيينه عضوا دائما فى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، وأنعم عليه الخديو بكسوة التشريف من الدرجة الأولى وبالنشان المجيدى الثانى .

والواقع ان شيخ البكرية كان يتولى مشيخة الطرق الصوفية من زمن ولهذا تداخلت اختصاصات المشيختين . قال جورجى زيدان فى تاريخ التمدن الاسلامى : « مشيخة الطرق الصوفية من المناصب الدينية التى حدثت بعد حدوث الصوفية . ولصاحبها التكلم على جميع الطرق . والشأن فى هذه الطرق أن لكل طريقة شيخا ولكل شيخ خلفاء فى القرى والأمصار ولكل خليفة مريدين . فالشيخ يدير أمر الخلفاء والخلفاء أمر المريدين من حيث ارشادهم ومراقبتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتربيتهم ونحو ذلك . ولشيخ المشايخ الولاية العامة على الجميع . ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها اعمالهم وتتوحد بها مقاصدهم ، بل كانت

كل طريقة أو زاوية مستقلة بنفسها فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن . فلما انشأ السلطان صلاح الدين الأيوبى خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية جعل لشيخها شبه تقــدم على غيره من المشايخ ، وكان لا يولى عليها الا أعاظم رجال الدولة من الأكابر والأعيان كأولاد شيخ الشيوخ ابن حموية مع ما كان لهم من الوزارة والامارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش . ووليها ذو الرياســتين الوزير الصاحب تقى الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز وغيره . وما زالت الحال كذلك الى أن توحدت رئاسة الصوفية بمصر فى القرن التاسع للهجرة فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكرى ، وكان من أعظم رجال عصره علما ودينا . قال الشعرانى عنه (ولو قلت انه اعلم اهل زمانه لم ابعد عن الصواب) ثم تولى بعده ابنه الامام شيخ الاسلام العلامة الشهير ابو السرور البكرى وانتقلت بعده الى ذريته ولا تزال الى الآن فى البيت البكرى الصديقى بمصر » (١) .

فلهذه الوظيفة اذن التكلم على سائر الطرق الصوفية والتكايا والأضرحة والزوايا التى بالقطر المصرى ، ولكنا اذا نظرنا الى الفرمان الصادر من سعيد باشــا الى السيد على البكرى بتولى المشيخة البكرية وجدنا الاختصاصات تتداخل كما قلنا فهو « يتكلم عــلى طوائف الفقراء الصوفية وسائر التكايا والأضرحة والزوايا .. حكم تقريره الشرعى وطبق نصه الواضح المرعى ، وحيث صار تمكينه من ذلك خلفا لأسلافه بنى الصديق حسب اللياقة والأهلية التى توسمت فيه بالتحقيق ليجرى ما يتعلق بأمورها كما استمرت عليه عادات السلف ذوى المجد والشرف ، وأن يحكم بين الفقراء على موجب قوانينهم القديمة مع رعاية قواعد التحقيق المستقيمة » (٢) .

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ٢٦١ .

(٢) بيت الصديق ص ٣٧٨ .

أما نقابة الأشراف فلها تاريخ أطول من مشيخة الطرق الصوفية . فالشرف فى الأصل بمعنى الرفعة وكان يطلق فى الجاهلية على عظماء العرب ، فلما جاء الاسلام خصه ببيوت قريش ، وجعلهم أكفاء فى النسب ومن هذه البيوت بيت هاشم وجاء الاسلام ورئيسه العباس ابن عبد المطلب ، وبيت تيم بن مرة ورئيسه أبو بكر وبيت عدى ورئيسه عمر . ولهذا نجد فى كتب التاريخ فلانا الشريف العباسى وفلانا الشريف العلوى ونحو ذلك . وأما حصر الشرف فى ذرية على رضى الله عنه فذلك حديث العهد نسبيا ، وهو منذ زمن الفاطميين . وقد حرص القوم منذ الصدر الأول على حفظ انساب تلك البيوت ، فأحدثوا وظيفة نقابة الأشراف ، وهى وظيفة عامة تشمل التكلم والنظر فى انساب جميع الأشراف من أهل تلك البيوت . وربما كان تحت ادارتها عند تكاثر أبناء بعض الفروع نقابات أخرى فرعية كنقابة الطالبيين ونقابة العباسيين . ومركز هذه الوظيفة كان من الجلال والرفعة بحيث نجد الشريف الرضى نقيب الأشراف فى بغداد يخاطب الخليفة قائلا :

عطفا أمـــير المؤمنين فاننـــا	فى دوحة العـــلياء لا نتفرق
ما بيننـــا يوم الفخـــار تفاوت	أبدا كلانا فى المعـــالى معرق
الا الخـــــلافة ميزتك فاننى	أنا عاطل منهـــا وأنت مطوق

وقد بقيت تلك المكانة لنقيب الأشراف فى الدولة العثمانية ، فهو مقدم فى التشريفات الرسمية على جميع رجال الدولة حتى رئيس الوزراء وشيخ الاسلام . ولم تزل هذه الوظيفة فى البيت البكرى من القرن الثانى عشر الهجرى ، حتى صدر المرسوم الخاص بتولى السيد محمد توفيق البكرى نقابة الأشراف فى ٢١ يناير سنة ١٨٩٢ .

« انه لمناسبة انتقال المرحوم السيد عبد الباقى أفندى البكرى نقيب الأشراف وكون هذه الوظيفة من قبل مع والده وجده من مدة ،

ومنزلهم من المنازل الشهيرة التى من سجايا دوام بقائها معمورة مفتوحة قد اقتضت ارادتنا احالة تلك الوظيفة الى عهدة أخى المرحوم المشار اليه وهو السيد محمد توفيق افندى البكرى ،والتأشير على معتاداتها وعوائدها باسمه كما كان المرحوم أخوه ، وبناء عليه لزم اصداره لعطوفتكم لاجراء ايجابه كما اقتضت ارادتنا » (١) .

كانت مهمات السيد توفيق اذن متعددة الجوانب فهو مسئول عن النظر فى شئون هذه الطوائف من حيث اصـــلاح ذات البين والقضاء ، لأنه أشبه برئيس وزراء هذه الجماعات ، يجتمع بأهل النظر منهم فى صورة دورية ، فاذا كانت شعب الطرق الصوفية وحدها اثنتين وثلاثين شعبة منها الرفاعية والقادرية والأحمـدية وغيرها ، ادركنا عظم المسئولية الملقاة على عاتقه . والأمر لا يتعلق باصلاح ذات البين بين أفراد هذه الفرق فقط ، وانما يتعلق أيضا باصلاح امورها ،وتنظيمها وتطوير مراسيمها بحيث تصبح قوة لها فعالياتها ، بدلا من أن تصبح تصرفاتها فى المناسبات وفى غير المناسبات بدعا مستنكرة من طوائف المثقفين .

أما الأمر الآخر فيتعلق بالمواسم نفسها ، فهو مسئول عن تنظيم بعض الاحتفالات ، فمن المتعارف عليه أن يحيى ليالى رمضان فى قصره بالترانيم الدينية والتوسع فى أعمال الخير والبر كما كان يصنع أجداده . ومن مسئولياته الرسمية الاستعداد لمراســيم المحمل فى كل عام ، فتخرج الكسوة من قصره فى احتفال ضخم يحضره الخديو ،وكبار رجال الدولة وتسير وراء المحمـــل الفرق الصوفية بأعلامها وبيارقها .

كان على السيد توفيق البكرى شيخ البكرية ونقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية أن يقوم بكل ذلك ، وكان عليه أيضا

---

(١) بيت الصديق ص ٣٩٦ .

أن يستعد كل عام للاحتفال الضخم بالمولد النبوى . يقول على مبارك فى خططه عن المولد النبوى : « هو اليوم الذى استنار بطلعته الوجود وأضاءت منه عوالم الغيب والشهود . قد جـــرت عادة الممالك الاسلامية شرقا وغربا بالاحتفال به وتعظيمه واجلاله ، ولم يحدث ذلك الا بعد القرون الثلاثة ، غير أنه بدعة حسنة لاشتمالها عـــلى الاحسان للفقراء وتلاوة القرآن الكريم والذكر والصلاة على رسول الله ، واظهار السرور والفرح بمولده الشريف ، ولقد أثنى الامام الكبير أبو شامة مزيد الثناء على الملك المظفر صاحب أربل المتوفى سنة ثلاثين وستمائة بما كان يفعله من الخيرات فى هـــذه الليلة الشريفة » (١) . ويذكر ابن خلكان فى ترجمة الملك المذكور ، أن احتفاله بالمولد الشريف النبوى يقصر وصف الواصفين عن الاحاطة به ، غير أنه لابد من ذكر نبذة يسيرة منه ، ثم اطال فى تلك النبذة اليسيرة ، فروى كيف كان العلماء والصوفية وذوو الفضل من القاطنين بالبلاد القريبة منه يفدون عليه مع خلق كثير ابتداء من المحرم الى أوائل ربيع الأول ، فيرسم بعمل عشرين قبة أو أكثر ، بكل قبة خمس طبقات ، فاذا استهل صفر زينت تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة ، وفى كل يوم يمر الملك بعد صلاة العصر على جميع تلك القباب ثم يعود الى القلعة . وكان يحتفل بالمولد كل سنة ليلة الثانى عشر من ربيع الأول وسنة ليلة ثمان منه مراعاة للخلاف فى ذلك ، فاذا كان قبل المولد بيومين ، اخرج من الابل والبقر والغنم شيئا زائدا عن الوصف الى محل المولد ، فيذبحونها ويتفننون فيها بأنواع الأطعمة الفاخرة . وفى ليلة المولد ينزل الملك من القلعة وبين يديه من الشموع ما لا يحصى وفى جملتها أربع شمعات من الشموع المختصة بالمواكب التى تحمل الواحدة منها على بغل موثقة بالحبال يسندها رجل من خلفها . وفى صبيحة تلك الليلة توزع الخلع السنية

(١) راجع بيت الصديق ص ٤٠٢ .

على الصوفية والعلماء ثم ينزل هو الى الخانقاه وتجتمع الأعيـــان والرؤساء وكثير من الناس وينصب له برج من الخشب له نوافذ يشرف منها على الناس بميدان فى غاية الاتساع تعرض عليه فيه الجند ذلك اليوم فاذا تم العرض وفرغ الوعاظ من الوعظ قدم فى ساحة الميدان السماط العام الذى لا يوصف ولا يحد ما فيه من الطعام والخبز ويمد سماط ثان لخواص الناس المجتمعين عند كرسى الوعظ المنصوب بجانب البرج . وقبل مد هذين السماطين يخلع الملك على جميع الحاضرين والوافدين . ثم يحمل من ذلك الطعام الى دور جماعة كثيرة ولا يزال كذلك الى العصر ويبيت هناك تلك الليلة ، ثم يدفع لكل شخص من الوافدين شيئا من النفقة وهكذا دأبه كل سنة كما شاهده ابن خلكان بنفسه . هذا فى المشرق أما فى المغرب والأندلس ، فقد ذكر « المقرى » فى « نفح الطيب » أن السلطان « أبا حمو » كان يصنع مآدب تدعى اليها الأشراف والعامة ثم اطنب فى وصف الفرش والنمارق والشموع وحلية المجالس فى تلك المآدب ما يفوق الوصف . وتطوف على الحاضرين مباخر بأيدى ولدان يلبسون الحرير . وبأعلى (الساعة الدقاقة) فى ذلك المجلس ايكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه وفيها أرقم خارج من كوة وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، وبطرفيها بابان كبيران وفوقها قمر بدر يسير سير نظيره فى الفلك وكلما انقضت ساعة انقض من البابين الكبيرين عقابان مع كل واحد منهما صنجة يلقيها الى طست مجوف بوسطه ثقب يفضى الى داخل الساعة فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة وتبرز منه جارية محتزمة بيمناها رقعة فيها اسم الساعة نظما . كل ذلك والمسمع قائم ينشد مدائح سيد المرسلين (١) .

---

(١) راجع « بيت الصديق » ص ٤٠٥/٤٠٧ .

وهكذا كان البكريون بمصر يحتفلون بالمولد النبــوى اعظم احتفال . ففى أوائل العشرة الأخيرة من شهر صفر فى كل عام تصنع بمنزلهم مأدبة فاخرة يدعى اليها كافة مشايخ الطرق الصوفية والأضرحة والتكايا ، والوجوه والأعيان ، فيدخل ارباب الطرق بالبيارق رافعين أصواتهم بالذكر والصلاة على الرسول ، ثم يعين لكل واحد من الصوفية ما يخصه من ليالى المولد لاحيائه ، وفى اليوم التالى تفتتح المقارىء بالمنزل ، مؤلفة من نحو مائتى قارىء ، مع ايقاد الشموع الكثيرة العظيمة ، ويخلع السيد البكرى على مشايخ الطرق . ثم تضرب الخيام على شكل دائرة ولا يزال ذلك الى ليلة الرابع من ربيع الأول . ثم تزدان خيمة السيد البكرى ويحضر الخديو ويخلع على السيد فروا نفيسا . وفى ليلة الثانى عشر يقرأ المولد النبوى فى خيمة السيد باحتفال ضخم يحضره النظار والعلماء والأعيــان ويحضر الخديو الى خيمته المضــاءة بالأنوار الى جوار خيمة السيد البكرى ، التى تبقى طول الليالى زاهية بالتلاوة والأذكار ، باهية من أضواء الشموع ، عامرة بالخيرات وانواع البر (١) .

على أن الأمر أخطر من كل ذلك ، فدور الصوفية فى الحقيقة دور خطير حتى ان الخطوط التى ترسم فى افريقية لبيان حدود الاسلام وراء خط الاستواء تنتقل متقدمة الى الجنوب فى كل عام ، من أثر فتوح مشايخ الطرق فى مجاهل افريقية ، فاذا كان لهم هذا الدور الذى يحاول مبعوثو الأزهر أن يقوموا به اليوم ، فمن المحتم اذن أن يفهم كل صوفى دوره وأن يدرك حقيقة الدين دون شوائب أو بدع ، وأن يكون هناك قانون عام ينظم أمور المتصوفة .

لم يفكر السيد محمد توفيق البكرى ابن الثانية والعشرين فى كل هذه الأمور الخطيرة أول الأمر ، ولكنه ما لبث أن دفع الى التفكير الجدى دفعا ، فها هو ذا « محمد رشيد رضا » يحادثه مرة ومرات

(١) « بيت الصديق » ص ٤٠٩ .

فى وجوب اصلاح الطرق الصوفية ، والاصلاح لا يقوى على القيام به الا رجال من أهل العلم الصحيح والأخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه المحاولة (١) . ولكن كيف يمكن اصلاح نخبة من الرجال لاصلاح المجموع ؟ ولم يكد يفكر فى الاجابة عن هذا السؤال حتى طالعه عبد العزيز جاويش بخطاب مفتوح يهاجم فيه بأسلوبه العنيف أوضاع الطرق الصوفية قائلا : « لا نزال نرى ما انكرنا على السيد البكرى الانكار كله فى قعوده عن ازالة المنكرات التى يقع فيها العامة من المسلمين على وهم أنها من الاسلام وهو منهم براء ، ولا يكسب منها فى الدنيا الا البلاء ، وفى الأخرى الا الخزى والعار ، رأينا ما لو أراد السيد أن يمحوه غاضبا للدين لكان مثابا وموفقا ، ولأثنى عليه المسلمون فى كل مكان ، رأينا الضلالات يقترفها بعض مشايخ الطرق نهارا جهارا فى ساحة العباسية وحلوان وفى غيرهما من الأماكن التى احتفل فيها بالمولد النبوى بين سمع السيد وبصره ، وعلى مرأى ومسمع من علية علمائنا هداة الأمة وأخيارها ، وحمـــاة الشريعة السمحة وانصارها . نصبت حلقات الذكر فكانت مراقص تميد بالراقصين على نغم المزاهر وغناء المغنين ، وهم يحسبون أنهم يذكرون الله ، تعالى الله عن الهزيان علوا كبيرا ، ماذا يصنع السيد البكرى اذا كان يغض عن مثل هذه الضلالات ، وهو لو شاء لمنعها أن تقام ، ولتطهرت منها ساحة الاسلام » (٢) .

وهكذا بدأ السيد توفيق يفكر فى الاصلاح ، ولم يلبث أن طالع الناس بمقاله الذى نشر بجريدة « المؤيد » تحت عنوان « اصـــلاح الطرق الصوفية » ، معترفا فيه بأن العقلاء قد طالبوه باصلاح الأمور التى لها مظاهر عامة يراها الناس من وطنيين وأجانب . ومن أهمها المواكب التى يشاهدها الجميع كل يوم فى أزقة المدن

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ١٢٩ .
(٢) عبد العزيز جاويش ص ٢٠٨ .

وطرقات القرى كالموكب الأحمدى وغيره ، وكانت فى الأصل موعدا سنويا لاجتماع رجال الطريقة ثم تحولت الى مواكب للمنكرات . ومنها اجتراء البعض على اقامة احتفالات دينية فى أماكن عامة ليشاهدها بعض السائحين ، أو اقامة تلك الاحتفالات فى منازل بعض الأجانب المقيمين بمصر . ومنها ايضا الموالد التى يصاحبها ويتخللها كثير من الأمور التى تخالف الآداب الشرعية وينعكس به الغرض الخيرى الذى يقام المولد من أجله . وهناك أخيرا الأذكار التى يقيمها الصوفية فى كل محل وناد وكثير منها مباين للذكر الشرعى المقصود فى الكتاب والسنة .

وقد قرر المجلس الصوفى منع عمل المواكب باسم الصوفية فى القاهرة والأقاليم الا بأذن من المشيخة حتى يمكن مراقبة ومنع ما يتخللها من الأمور المنافية للآداب ، ثم كتب الى وزارة الداخلية طالبا تنفيذ هذا القرار . وتحدث مع اللجنة المشكلة لتعديل قانون العقوبات ، المنبثقة عن مجلس الشورى ، فجعلت عقوبة القيام باحتفالات دينية فى منازل الأجانب أو للترويح عن السائحين ، هى الحبس ، وقد تنبه الى أن العقوبات الصوفية فى هذا الشأن قد لا تجدى ، لأن من يقوم بمثل هذه الاحتفالات قد لا يكون من رجال الصوفية .

اما الموالد فلو توقفت اقامتها لحين الحصول على ترخيص من مشيخة الطرق الصوفية ، لكان فى ذلك تضييق على الناس ، ولكن وضعت مادة خاصة بذلك فى لائحة الصوفية تشترط أن لا يجاور مكان المولد شىء ومما ينافى الآداب الشرعية كالألعاب والسخريات ونحوها . كذلك نصت لائحة الصوفية على فصل كل من يقيم الأذكار بهيئة مخالفة للآداب الشرعية كالتمايل والرقص والتخبط ، وتنفيذ ذلك منوط بوكلاء المشيخة فى كل جهة وبالرأى العام فحيثما وجد شيئا من ذلك ، فمن حقه بل من واجبه أن يحيط المشيخة العامة

علما به وهى مسئولة بعد ذلك عن تنفيذ قراراتها (١) .

ثم فكر فى أمر الدعـــاة ، فوجد أن خير سبيل الى تقويمهم وتوجيههم ، وجود دستور مستمر من القرآن يستنير به مشايخ الصوفية وخلفائهم فى تربية المريدين وارشاد السالكين ، ومن هنا كلف بعض شيوخ الصوفية بوضع ذلك الدستور فى صورة كتاب بعنوان « التعليم والارشاد » ورسم لهم فصوله وكتب مقدمته . وبذلك أحس أنه قام بدور هام فى تقويم الصوفية امام نفسها وأمام العامة وأمام العقلاء كما كان يدعوهم .

---

(١) المؤيد ١٩٠٥/٦/٣ .

فى أوربـــا

كانت هذه هى المرة الأولى التى يركب فيها السيد البكرى ، ظهر البحر راحلا الى اوربا ومنها الى القسطنطينية . كل شىء يثيره ، وكل شىء يبعث على الدهشة ، دهشة الغريب المتطلع ، وذهول الحائر الذى لا يفترق عن ذهول البدوى أو الريفى الراحـــل الى العاصمة . واذا كانت عينه قد اعتادت تلك الصور وهذه الرؤى وهو يتردد على أوربا مرة ومرات فيما بعد ، فقد بقى انطباعه الأول فى ذاكرته ، لا يكاد يبرح خياله زمنا .

ليس هناك احساس قوى بالوداع ، ولعل الفرحة برؤية الدنيا لأول مرة غلبت ذلك الاحساس ، ولكن هناك احساسا بالخوف والقلق من ركوب البحر يسرى كلما هبت الريح ولعبت بالسفينة . ومن خلال الخوف والقلق نلمح مشاعر الفنان وهو مفعم بالنشوة لرؤيا الأصيل والليل والهلال وهدوء البحر حينا بعد حين . وتنبعث موسيقى هادئة حالمة وسط السمار وتتلألأ أضـــواء السفينة ، فلا يحس بالرحيل ولا يحس أنه فى سفينة ، بل يشعر شعورا قويا انه لم يفارق المدينة (١) .

ويصل الى أوربا ، فيفجؤه العمران الضخم ، والحضارة المزدهرة ، والحدائق المترامية والمتاحف الفنية ، ومرح الناس وتمتعهم بالحياة ، وتقدمهم العلمى وتطورهم الفكرى والسياسى . ويتطلع الى الحياة من حوله ، فيجد فكرة الحرية السياسية التى أتت بها الثـــورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر قد تطورت الى ايديولوجية جديدة يعتنقها المجتمع ، فأصبحت حرية اجتماعية ، وحقوقا للعامل ، والغاء

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٤/١٦ .

للرق ، وانطلاقا للمراة . وكان قد استقر راى المفكرين والفلاسفة على ان لكل فرد شخصية خاصة يجب ان يحتفظ بها ، وأن لكل فرد ان يحكم عقله ونفسه فيما يلقاه من نظم ومشاكل . وشاعت هذه الفردية فى أوربا وامريكا منذ اوائل القرن التاسع عشر .

وكانت محاولة الاشتراكيين منذ النصف الثانى من القرن الماضى ، تهدف الى ادراك المساواة الاجتماعية والاقتصادية الى جانب السياسة التى اعترف بها القانون . فى سنة ١٨٢١ دافع سان سيمون عن حقوق العمال . وفى سنة ١٨٤٠ كتب برودن كتابه « ما هى الملكية ؟ هل السرقة » وفى سنة ١٨٦٧ كتب كارل ماركس كتابه « راس المال » . وهذه السلسلة من رجال الثورة الاشتراكية هى التى اظهرت الطبقة العاملة ، وحاولت أن تخلص افرادها من براثن الراسمالية الخبيثة ، وانتهت ايضا بأن الغى الرق ، وأصبح العبيد ينعمون بما ينعم به الأحرار . وكان « داروين » قد كتب « اصل الأنواع » عام ١٨٥٩ ، وتناول فيه تطور العضويات فى سلسلة تسير من جيل الى جيل ومن زمن الى زمن فى طريق الرقى المتدرج . وفكرة التطور هذه شغلت العلماء فى أوربا ، واعتنقها المثقفون فى النصف الثانى من القرن الماضى . عالج الأدباء نظرية الأنواع الأدبية وتطور فروع الأدب ، وعالج علماء الاجتماع التطور الاجتماعى بعد دراسة القبائل البدائية ، ومقارنتها بتطور الشعوب المترقية فى سلم المدنية . واكتشف الفلاسفة أن للانسان ارادة فى حياته ، وكل شئون الحياة بدات ناقصة لكنها اكتملت بالارادة ، فاذا سلمت ارادة الانسان من أسر الشهوات فلابد من التطور الى الدرجة المرجوة من الكمال .

وهكذا بدات عقلية الشاب المثقف تتفتح على قيم جديدة ، وكان اهم ما لفت نظره فكرة الاشتراكيين عن المساواة ومحاولة القضاء

على ويلات الانسان فى ظل التفرقة الطبقية . فاذا قرنا قوله فى المقارنة بين اوضاع الطبقة المترفة فى مصر وبين الطبقة المحرومة اول هذا القرن ، وجدنا سخطه وبرمه حين يقول : « فبينما ترى قصورا وثراء ، وحبـــورا وسراء ، وعربات تترى ، يعدو أمامها السليك والشنفرى ، وخراج قرية أو قريتين ، يذهب فى لهو ليلة أو ليلتين ، نجد أرامل صناعا ، وأيتاما جياعا ، وشيخا يعمل وهو فى أرذل العمر ، يقعده العجز وينهضه الفقر ، أو عذراء كادت تبيع عرضها للاحتياج ، أو مريضا عاجزا عن العـــلاج .. حال تطرف العيـــون ، وتثير الشجون » (١) . تلك النغمة الحزينة الثائرة اذن جذورها ترتد الى ذلك الأصل ، وهى نغمة جريئة فى بيئتنا تلك الأيام المبكرة .

وقد كانت اللغة الفرنسية التى يتقنها عونا له فى اسناده وفى اتصاله بالبيئات المثقفة وفى اطلاعه الواسع على الانتاج الفـكرى والأدبى ، وعلى الأخص بطبيعة الحال فى فرنسا التى احبها ، واكثر من الحديث عنها وعما شاهده فيها . فهو يزور « الپانثيون » ويقف على قبر نابليون ، والحق أنه معجب بالبطولة أينما كانت ، فقـد تحدث من قبل طويلا عن صلاح الدين الأيوبى وانتصاره عــلى الصليبيين ، وها هو ذا اليوم يعجب بعبقريته من بلاد الصليبيين ، ولكنها البطولة التى يمجدها ويعتبرها ميراثا للانسانية جمعاء .

ويزور متحف « ڤرساى » فلا يقف كثيرا أمـــام التماثيل ، ولا يخطف رواق المرايا ناظريه ولكنه يتوقف عند لوحة الرســـام « جيرارد » التى تحكى احدى مواقع نابليون ، فينفعل بها انفعال الفنان كأنما رأى الموقعة رؤيا العين ، فيحاول أن يرسم بكلماته ما رسمه « جيرارد » بأصباغه (٢) .

---

(١) سهاريج اللؤلؤ ص ١٥٨ .

(٢) سهاريج اللؤلؤ ص ٧٢ وما بعدها .

ويجوس فى مدينة باريس بعد ذلك ، فيشاهد « برج ايفل » وتجمع السائحين حوله ، ويتعجب من ضخامة البنيان وارتفاعه . ثم يتجول فى غابة بولونيا الشهيرة ، ويتحدث عن أحواض الزهر وروعة الطبيعة وهندسة التنسيق التى استطاعت الفـــان تقليد الطبيعة فى هضابها وتفجر الماء منها وانتشار الورود على حافاتها ، ولا يكاد يترك كبيرة أو صغيرة فى الغابة الا وقف عندها ، حتى شعابها وحتى الأضواء والحصباء ، ولكنه يتوقف طويلا عند حديقة النبات بها وحديقة الحيوان . ولا يملك فى النهاية الا أن يودع الغابة ويودع باريس ويرحل الى بقعة أخرى من أوربا ، الى النمسا .

وفى النمسا لا يكاد يجذب انتبـــاهه الا مرح أهلها وحفلاتهم الراقصة ، خاصة فى « ڤيينا » العاصمة ، التى تزيت بأروع لباس من بساتينها . ويمضى يقص علينا صور الترف فى تلك الحفـــلات وأماكنها ، واعجاب الناس بالفن فى كل ألوانه ، النحت والتماثيل تملأ كل ميدان وتوجد فى كل قصر ، وتنسيق الزهور ، وملابس الناس ، وحتى حركات الراقصين . والترف فى الزخرفة وفى الخمور التى تسيل انهارا فى تلك الحفلات وفى الصواريخ التى تستمر زمنا وترسم صورا رائعة فى الفضاء ، وهو وسط هذا كله غريب حائر ، يحس بالحرمان وبالحنين الى بلده الذى يشعر فيه بالطمأنينة فيترنم :

أم هب من مصر صـــبا	أم طار برق اشـــــقر
أم قد ذكرت بطاحهـــا	وهى البســـاط الأخضر
والنيــــــل فى لباتهـــا	عقد يلوح مجوهر . . .
أنى بمصر ودونهـــــــا	بحر يمج ويذخــــــر
يا ســـائر الفلك المســـخر فى خضـــادة يمخـــر	
اقر التحيــــــة جيرة	حيث الكثيب الأعفر (١)

(١) خضارة : البحر (صهاريج اللؤلؤ) ص ٨٧ .

وهو قد عالج الشعر من قبل وتمرس به ، ولكنه لا يقوله الا عن تجارب صادقة مهما تباعدت بينها الأوقات ، وهكذا فاض به الحنين فتغنى بمصر . ولكنه لا يستطيع العـــودة ، انه فى طريقه الى القسطنطينية ، الى عاصمة شرقية بعد أن رأى العواصم الغربية . عجيبة هى القسطنطينية « فقد يخال من يجوز فيها ، ويتقلب فى نواحيها ، أنه فى دنيا صغيرة ، لا فى بلدة كبيرة . فثم عربى وأعجمى ، ورومى وكردى ، وطماطمة صفر ، وصـــقالبة حمر ، والعمـــامة والسربوش ، والقبعة والكنبوش ، ولسان التركمان ، وفصـــاحة عدنان ، ورطانة الزط والسودان . وســـنة وشيعية ، ونصرانة ويهودية ، وجند مشاة وركبان ، كأنهم فى يوم المهرجان . . » (١) .

ويزور مسجد « أيا صوفيا » وهو من معالم القسطنطينية ، ولكن المساجد الضخمة الأثرية بمصر كثيرة ، فلا يتوقف عنـــده الا ريثما يتحول الى منتزه « البندلر » متجولا فى أنحائه ، منفعلا أمام كل لوحة من لوحات الطبيعة فيه . وهو قد رأى من قبـــل صورا من الفتنة فى أوربا ، ولكنه لم يهتز الا أمام الروح الشرقية وفتنة الشرقيات « حسن للترك والجرج ، لا يوجد عند الافرنج ، اللهم الا صورا فى ألواح رفائيل ، مثل بها اسرافيل وميكائيل ، أو صفات فى أشعار دانتى ولامارتين ، صوروا بها الخلد والحور العين . فلما لمحتها أشرت اليها بالكف ، فأومأت لك بالطرف ، فحسبتها أقرب من مداركة ، فاذا هى أمنع من عاتكة » (٢) .

على أنه لم يقصـــد من كل رحلته هذه الا أن يزور أعــلام القسطنطينية ، فهو ليس سائحا يتجول دون هدف ويسير عــلى غير هدى . آن له أن يقابل « السيد أبو الهدى الصيادى » نقيب الأشراف بالأقطار الجلية وصدر الصدور فى الدولة العلية . ومن

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨ .

الحق أن الآراء قد تضاربت فى تحليل شخصيته فهو رجل غامض مغامر استطاع أن يستولى على قلب الخليفة وعقله ، وأن يزيح من طريقه كل معارض من بطانة السلطان . وهو داهية زين للخليفة امورا لم يرض عنها الشعب وتحض بالدين لا تصل اليه يد كبير او صغير . وهو بعد هذا متهم فى خلقه ، ولكنه على ما يبدو جرىء لا يعبأ بشىء ، وجرأته لا تقف عند حد . وهكذا اقتنع بعد زيارته له او كاد يقتنع انه رجل عربى رحب الصدر ، كريم جواد مثل الاولين ، ولعل بأسه هو الذى دفع حاسديه الى اظهار الطاعة واخفاء العصيان (١) .

وكان هناك الفيلسوف الحكيم جمال الدين الأفغانى ، الا ينبغى له ان يطرق بابه ؟ انه أشبه بالسجين ، لا يستطيع الرحيـــل عن القسطنطينية ، ولكن داره مقصد العلماء من كل قطر مثلما كان مجلسه فى مصر منذ سنين . ويوم كان جمال الدين بمصر يوجه الحاكمين ، ويحث على الثورة ، كان هو صغيرا ، فهل ينبغى أن تفوته هذه الفرصة الآن ، ولعله لا يتمكن من رؤياه بعد اليوم ؟ ان أبا الهدى الصيادى قد أوقع بين جمال الدين وبين الخليفة منذ عبث بمسبحته فى حضرة السلطان وخرج ليقـــول ان الخليفة يعبث بالناس ، اليس من حقه أن يعبث بمسبحته ؟ ولكن السيد توفيق البكرى لا يعبأ براى أبى الهدى الصيادى ولا يهتم بمراقبة الخليفة لجمال الدين ، فيزوره فى مجلسه ، ويدور بينهما حوار حول مستقبل الاسلام (٢) ، يخرج بعده البكرى وهو اشد اقتناعا بالرجل الجسور

---

(١) نفس المرجع ص ٤٠ .

(٢) لم يذكر السيد توفيق البكرى فى حديثه اسم جمال الدين الأفغانى ، ولكن صفات جمال الدين تنطبق كل الانطباق على هذا الحديث . وقد صرح السيد البكرى فى كتابه « مستقبل الاسلام » ص ١٨ أنه التقى بجمال الدين وتحادثا حول مستقبل الاسلام ، ومن المعروف أن السيد البكرى كان صغيرا =

المتواضع الذى قال يوم رحيله عن مصر « ان الأسد لا يعدم فريسته أينما كان » .

ولم تفارق خياله صورة السيد جمال الدين وهو فى مجلسه بين مريديه ، ربعة فى طوله ، وسط فى بنيته ، قمحى فى لونه ، عصبى فى مزاجه ، عظيم الرأس فى اعتدال ، عريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين ، ضخم الوجنات ، جليل المنظر ، متزن الصورة . ويتتبع حياته من أفغانستان الى ايران الى الهند الى مصر الى روسيا الى فرنسا الى القسطنطينية ، وهو يترك فى كل مكان حل به أثرا اى أثر ، داعيا الى الوحدة الاسلامية التى جاهد عمره كله ليرى نورها يضىء الشرق ، فلم يقدر له فى حياته أن يحقق أمله الكبير ، وان كان قد أضاء شعلة الفكر فى العالم الاسلامى . « قضى العمر الا الأقل ، وكاد يحول الأجل دون الأمل ، وهو شمل لم يؤتلف ، وكنز لم يكتشف » (١) .

ولم يلبث أن أفاق من تأملاته على دعوة السلطان ، ولا شك أن لقاء الخليفة كان الهدف الأكبر من رحلته كلها بعد أن أصبح ذا مركز دينى فى مصر . وسره أن يكرم الخليفة وفادته ، وأن يرى فيه نبوغا أكبر من سنه ، فيمنحه رتبة الوزارة العلمية . ولم يسبق فى تاريخ الدولة العلية أن أعطيت هذه الرتبة لعالم أو سياسى مرة واحدة ، أو أخذها وهو فى الثانية والعشرين من عمره مثلما أخذها السيد توفيق البكرى ، فخرج من اللقاء مبتهجا مزهوا وهو يترنم :

عطايا تظنـــــاها لاعظـــــام قدرها
أمانى نفس أو رؤى من مهـــــــوم

= حين كان جمال الدين بمصر ، وأن المكان والزمان الوحيدين اللذين يمكن أن يلقاه فيهما هو القسطنطينية فى ذلك العام ، لأن السيد البكرى لم يزر القسطنطينية قبل وفاة السيد جمال الدين الا هذه المرة .

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٤٨ .

أياديه أبدت خافى الشـــعر للورى
وكان مجنـــا مثـــل سر مكتم

كذلك زهر الروض يبدو من الثرى
اذا ما سقاه مسجم بعـد مسجم (١)

---

(١) قالت جريدة المؤيد فى عددها الصادر بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣١٠ .

« ان الرتبة الجليلة التى أنعم بها سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وسلطان المسلمين على حضرة سماحتلو سيادتلو السيد توفيق أفندى البكرى نقيب السادة الأشراف هى من أقدم الرتب فى الدولة العلية بل يمكن أن يقال انها تأسست مع تأسيس الدولة العلية العثمانية . وذلك أن السلاطين الأولين العظام من آمال عثمان لما كان نصب أعينهم أمر الجهاد واعلاء كلمة الله بين العباد وتأسيس مملكة وملك عظيم لم يجتمع قط لغيرهم :وكان مدار أعمالهم وأساس اجراءاتهم العدل الذى عليه مدار الدين الاســـلامى المبين ، جعلوا قاضيا مخصوصا يقضى فى معسكرهم خلاف الحواضر والمدن ، وذلك لكثرة تنقلاتهم واستمرار وجود الجيش العامل تحت السلاح . ولما انتظم أمر السلطنة السنية وفتحت القسطنطينية سنة ٨٥٨ هـ وصارت المملكة مؤلفة من قسمين عظيمين أحدهما بأوربا ويعرف بالروم ايلى والثانى بآسيا ويسمى بأناضول ولكل منهما جيش قائم به لاستمرار الحروب فى كلا الطرفين ، قسم السلطان أبو الفتح الغازى محمد خان الثانى وظيفة قاضى عسكر الى قسمين سمى كلا منهما باسم القسم التابع اليه جيشه وذلك فى زمن صدارة قره مانلى باشا المتولى سنة ٨٨٢ هـ . ومن ذلك الحين استمرت هذه الوظيفة على ما هى عليه ثم بتوالى الأيام صارت هذه الوظيفة رتبة اسمية تعطى لكبار العلماء ، ولا يتولى الوظيفة بالفعل الا اثنان منهم كل سنة والباقى يتداولونها على حسب ترتيبهم وسابقية تواريخ توجيهها اليهم . ولما انتظمت الرتب المتداولة الآن فى الدولة العلية فى زمن ساكن الجنان الغازى عبد المجيد خان ، جعل لون الجبة التى يلبسها فى المواكب الرسمية قضـاة عسكر الروم ايلى والاناضول خضراء . أما عنوان أصحاب هذه الرتبة فهو (سماحتلو أفندم حضر تلرى) ويقال لمجموع أصحابها (الصدور) . وبالجملة فهذه الرتبة هى أعظم رتب الدولة العلية ... وفى ذلك ما يغنى عن بيان ما أحرزه سماحته من تعطفات الحضرة الشاهانية عن أهلية واستحقاق . »

ولعل أكبر ما أسعده فى ذلك أنه تكريم لمصر فى شخصه ، فلم يسبق أن حظى بهذه الرتبة من علماء مصر أحد قبله ، ولم يزدد عدد الذين نالوها فى الدولة العلية كلها عن اربعة وعشرين عالما .
وها هو ذا يعود الى مصر والذكريات تتزاحم فى خاطره عن زيارته لأوربا ولتركيا ، ولقائه لعلمائها ، واستفادته من هذه الرحلة ، وحديث الصحف فى القاهرة ، المؤيد والأستاذ ، عن الكسب الذى نالته مصر ، يوم قلده الخليفة بيده ذلك الوسام .

فى سراى الخرنفش

عندما فكر السيد محمد توفيق البكرى فى الزواج ، كانت فرصة الاختيار أمامه كبيرة ، فهو شاب وسـيم وصاحب مركز مرموق ، ومحدث لبق ، ومثقف واسع المعرفة . ووالدته ما زالت على قيد الحياة تستطيع أن تخطب له أجمل الفتيات واكثرهن ذكاء وأوفرهن حظا من شرف النسب . ولكن الواقع انه كان يفكر فى أمر آخر ، فى بيت السادات الوفائية . فهو البيت الوحيد الذى ينافس بيت السادات البكرية الشرف ، وطالما انتقلت نقابة الأشراف من هنا الى هناك ، اليس من واجبه اذن ان يجمع البيتين فى بيت واحد عن طريق النسب ؟ انه يعلم أن السيد عبد الخالق السادات أب لثلاث بنات : حفيظة واسماء وصفية . وكثيرا ما رأى صغراهن صفية تغشى المجالس مع أبيها واعجب بجمالها وذكائها وحديثها الذى ينم عن ثقافة نادرة فى فتيات العصر . اليس من المتوقع ان تكون الأخريات فى مستوى الصغرى من حيث الثقافة والجمال ؟ ان السيد عبد الخالق السادات يرفض أن يزوج احدى بناته الا لمن يضارعهن شرفا فى النسب ، وهو لا شك محق فى ذلك .

وهكذا تزوج السيد محمد توفيق البكرى السيدة حفيظة ابنة شيخ بيت السادات الوفائية ، ولكن اليس من المحتمل الا ينجب منها فتكون عقيما او يكون هو العقيم ، وبذلك ينفصل البيتان مرة اخرى وتذهب جهوده ادراج الرياح ؟ وهكذا أيضا لم يهدأ باله حتى زوج ابن أخيه السيد عبد الحميد البكرى بشقيقة زوجه الوسطى السيدة أسماء .

وفى هذه الأثناء كان الشيخ على يوسف صديق السيد توفيق

البكري الحميم قد أبدى رغبته في خطبة السيدة صفية السادات بعد أن رآها في كثير من المجالس وراثه ، والتقى بها في ادارة « المؤيد » فصادفت منه هوى . ولبى السيد عبد الخالق السادات طلب الشيخ على يوسف وقبل الصداق على ذلك . ثم سافر الجميع الى الآستانة لقضاء الصيف بين ربوعه ، وكان من المتفق عليه أن يتم القران بعد العودة من الآستانة . ولكن لم يكد الجميع يعودون الى مصر ، حتى بدت بوادر المماطلة في اتمام القران ، وكان بعض خصوم السيد على يوسف قد سعوا في الوقيعة بينه وبين السيد عبد الخالق السادات ، فاقنعوه بأنه ليس كفؤا لشريفة من بيت الرسول . ولكن السيد على يوسف أحس أن هذا التراجع امتهان لكرامته ، فاتفق مع السيدة صفية السادات على عقد الزواج بعيدا عن دار أبيها . وذهب السيد على الى صديقه السيد توفيق البكرى يعرض عليه أن يوافق على اتمام العقد بسراى الخرنفش . لم يكن أمام السيد توفيق مجال للتفكير ، لأن السيدة صفية قد أبدت رغبتها في الزواج من صديقه السيد على يوسف وهو حتى اذا لم يقبل ، فسيتم حتما في بيت صديق آخر ، ثم هو يعلم تجبر السيد عبد الخالق السادات ، ويدرك أنه كاد يعضل بنتيه الكبيرتين من قبل ، والأمر في هذه المرة لا يعدو الوشاية ، فوافق على الفور .

تم العقد في بيت السيد توفيق البكرى وشهد عليه هو وابن أخيه السيد عبد الحميد البكرى وتولى الشيخ السقا امام الجامع الأزهر الوكالة عن السيدة صفية السادات وكان ذلك في اليوم الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٩٠٤ . وفي يوم السبت الموافق للسادس عشر من يوليو نشرت صحيفة المقطم خبر عقد القران في حفل حضره الكثير من العلماء ، فثار الشيخ السادات ثورة شديدة وكتب من فوره الى المقطم بانه لا علم له بهذا الزواج وانه قد أبلغ الأمر الى السلطات . وذهب الى سراى الخرنفش غاضبا ،

ثم ألقى بعمامته أمام السيد توفيق البكرى محتجا على تصرفه ، وحاول السيد توفيق تهدئته واقناعه فلم يتمكن ، وتطور الأمر بعد ذلك الى قضية وتطورت القضية الى مسألة سياسية تدخلت فيها الحكومة لصالح السيد على يوسف لصلته القوية بالخديو ، وتدخل فيها قاضى القضاة لصالح السيد عبد الخالق السادات لأنه رأى القضية تتصل بالآداب الاسلامية ، وصدر حكمه بالحيـــلولة بين الزوجين حتى يبت فى القضية ثم صدر الحكم النهائى بعدم صحة العقد ، واسدل الستار بعد ذلك على هذه القضية وقد أعيد عقد الزواج فى منزل السيد عبد الخالق السادات وبرضى منه (١) .

تلك كانت قصة الزواج ، والواقع أن السيد توفيق البكرى لم يغير شيئا من عاداته بعد أن تزوج ، ولم تبدل زوجه من طباعه أو من نظام حياته . لم تكن على شيء من الجمال فتأسره وهو الفنان ، ولم تكن على حظ من الثقـــافة فتبادله الرأى أو تجاذبه اطراف الحديث ، وهو المحدث اللبق الموهوب . وهكذا كان يستيقظ فى الثامنة صباحا كعادته ، فتسرع جاريته « شهرات » بجريدتها الى شجرتى اللبخ المجاورتين لغرفته ، تهش العصافير المتجمعة ، حتى لا يزعجه صفيرها المتواصل الكثيف . ولا يلبث ان يأخذ حماما باردا اذيبت فى مائه قطع الثلوج سواء أكان الجو حارا أو باردا ، فذلك فى رايه اصح للأبدان ، وأكثر جلبا للنشاط والحيوية . ثم يتناول قليلا من طعام الافطار ، على الا يكون اللبن ومستخرجاته بين الطعام ، فقد عافته نفسه منذ أمد ، ومن أجل ذلك يجلس وحده على المائدة .

ويتانق فى ملبسه أشد التأنق ، حتى ليغير ملبسه ثلاث مرات يوميا ، وينتقى افخرها واشدها انسجاما ، ثم يضع عمامته الضخمة على راسه الكبير ، ويتوجه الى زوجه والى بقية الأسرة ، يدور على

---

(١) على يوسف ص ١١٠ وما بعدها .

كل فى جناحه ، وهو يعرف موعد يقظتهم فى الصباح ، يسألهم عن حاجاتهم ، ويداعب صغارهم .

تلك كانت عادته ، قبل أن يستقل عربته ذات الخيول العربية الأصيلة ، فى طريقه الى صديقه السيد على يوسف بالمؤيد ، أو فارس نمر بالمقتطف . والحق ان صداقته لعلى يوسف كانت اقوى بكثير من كل صداقة غيرها ، خاصة بعد ان ربطت بينهما صلة النسب . وقد كانت هناك صلات أخرى تربط بينهما من قبل ، فكلاهما كاتب اديب يحمل فى اعماقه نفسا شاعرة ، وكلاهما من مذهب سياسى واحد ، هو الاصـــلاح على المبادىء الدستورية ، وكلاهما شريف النسب ينتمى الى بيت الرسول ، ولذا كثيرا ما تلازما فى مصر وفى رحلاتهما الى اوربا وكانا يجدان المتعة فى ذلك لاتفاق الطباع ، حتى فى الوان الطعام المفضلة . ولكن مظهرا خارجيا واحدا هو الذى يفصل بينهما فى اوربا اذا ما تلازما ، فالسيد على يوسف يتمسك بملبسه الشرقى وبتقاليده الشرقية ، اما السيد توفيق البكرى ، فهو يحاول أن يتلاءم مع البيئة فيلبس القبعة ، ولعله يرى أن ملابسه الدينية انما لبسها فى مصر رعاية لمنصبه الدينى (١) . وهكذا كانت صحبة العمر بين الصديقين لم تفرق بينهما الا احداث اقوى من الارادة ، بل خارجة عنها .

كان مجلس السيد توفيق البكرى بدار المؤيد سياسيا فى اغلب الأحيان يتناولان فيه الأوضاع فهما عضوان فى مجلس شورى القوانين وفى الجمعية العمومية ، أما مجلسه فى المقطم فكان يغلب عليه الطابع الأدبى ، ومن اجل ذلك كان يحضره بعض الشبان من شعراء العصر ينشدونه شعرهم ويستمعون الى نصائحه (٢) . ولم يكن منصبه الدينى بحائل بينه وبين طبعه الضاحك الطروب ، فقد كان حاضر

(١) رواية الأستاذ حسن فائق البكرى .

(٢) الراحلون من شعراء العصر (المقتطف يناير ١٩٢٨) .

البديهة حلو الفكاهة . ومن لطائفه فى هذا المجلس ان الكاتب المعروف ابراهيم المويلحى أخبره ذات يوم انه أعد عنوانا رائعا بمناسبة فتح الخديو لخزان أسوان فلما سأله عنه قال (يفتح الخزان عباس) . « قال البكرى : هذا شطر من الشعر ولست يا ابراهيم شاعرا وانا شاعر فانا احق به منك ، اتبيعه بعشرين جنيها ؟ قال ابراهيم : لا ابيعه الا بمائة جنيه لا تسويف فى دفعها . فضحك البكرى وقال : كيف صدقت انى رغبت فى الشراء ، هذا الشطر لا يصلح لأن يكون تاريخا لأنه منبىء بما سيكون » (١) .

وهكذا يستمر المجلس ، حتى يحين موعد الغداء ، فيدعو بعض أصدقائه الى الطعام الذى يعتمد أساسا على « القوزى » فى اكثر الأحيان . وغالبا ما يكون الشيخ الشنقيطى العالم اللغوى رفيقه فى الطعام . فهو منذ هبط القاهرة من ارض المغرب والسيد توفيق البكرى يحتضنه ويقوم على أمره ، ويقدمه الى أدباء مصر وعلمائها ، فأقام الشيخ الشنقيطى فى ريع البكرى لا يحمل هم الأيام . وفى احيان أخرى يشترك معهما فى طعام الغداء احمد العريس أو الشيخ خضر العالم الفلكى . فلم يكن من عادة السيد توفيق ان يأكل مع النساء شأن اهل العصر فى اغلب الأحيان .

فاذا ما قام بعد غفوة الظهيرة ، عاد ينتقى جبة جديدة ، ووقف لحظات أمام المرآة يطمئن الى أناقته الكاملة ثم يستقل عربته ولكن الى غير مكان فى هذه المرة ، فيظل يتجول ساعة أو بعض ساعة ، ثم لا يلبث ان يعود ، فيجلس فى حديقة السراى وحده . ولعل هذه الفترة من يومه اخصب الفترات ، فذهنه يجول معه فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل ، لم يكن يفكر فى زواجه الذى لا يعتبره سعيدا ، فهو قد حرم من نعمة الأبناء ، ولكنه متأكد انه هو العقيم ، ويكفيه أن يجد من حوله أطفال أسرته يستغنى بهم عن حرمانه ،

(١) المرجع السابق .

ولم يكن يشغل ذهنه محيط بيته ، فهناك من يدبر شئونه على خير وجه ، عبد السلام رستم الكاتب النشط الذى يمسك دخل القصر وخرجه ، ومرجان أغا الشديد المراس يشرف على نظافته ويلاحظ أكثر من سبعين جارية بكل دقة . ولكنه كان دائم التفكير فى ثلاثة أمور ، الاسلام فى حاضره ومستقبله ، والوطن فى ماضيه وحاضره ، واللغة بين ماضيها ومستقبلها . يجول ذهنه فى هذه الدوائر جميعا فينتقل من هنا الى هنا فى وقت واحد . فاذا ما قطع عليه خلوته هذه كبير أو صغير من أفراد الأسرة ، لا يلقاه جالسا أبدا وانما يقف احتراما له ، فمن رأيه أن الاحترام المتبادل بين الجميع أن يطبق حتى على الصغير وحتى على الخدم ، ومن أجل ذلك يخفض جناح الذل للضعيف ، بينما يلقى القوى موفور الكبرياء . ومن أجل ذلك أيضا كان يعجب فيما بينه وبين نفسه حين يجد كثيرين من مشايخ الطرق الصوفية يلجئون الى ابن أخيه السيد عبد الحميد البكرى ليوسطوه فى أمر من الأمور ، ويتجنبون لقاءه مهابة منه .

فاذا ما حان وقت طعام العشاء فى حوالى الساعة السابعة مساء ، أحضرت له جاريته « شهرات » طبقا ضخما من الفاكهة ، وهذا هو عشاؤه لا يبدله . كان مغرما بالفاكهة نهما فى تناولها ومن أجل ذلك يتناولها وحده ، حتى اذا أحس بالامتلاء تناول الثمرة بعد الثمرة فامتص عصيرها والقى بأليافها .

ثم يتوجه الى حجرة المكتبة ، وكانت تحوى آلافا من الكتب العربية والفرنسية والمخطوطات النادرة . فهو قد نشأ على حب التراث ، فضمت مكتبته المراجع الأصيلة وأمهات كتب الأدب واللغة ، وكأنه شيخ عصرى بكل معانى الكلمة ، فاقتنى الكتب الفرنسية فى الاقتصاد والسياسة والأدب والفن ، وهو رجل دين قبل كل شىء ، فلابد أن يطلع على التفاسير وكتب التصوف والى جانب ذلك ، على دراسات المستشرقين حول الأديان بصفة عامة وحول الاسلام على

وجه الخصوص . ومن أجل هذا كان يقضى الساعات الطوال يطالع ويطالع فلا يمل ، حتى أصبح من أعمق الباحثين فى التراث العربى ومن أوسع الشباب العصرى ثقافة فى شتى فروع المعرفة .

وهو حين يكتب لا يتوقف أبدا ، وانما يتدفق تدفق من حدد موضوعه ولم شتات جزئياته فى ذهنه واستوعب بحثه ، واستعد للكتابة فأحضر عددا من الأقلام لا حصر له حتى لا ينتهى القلم أثناء اندماجه فى الكتابة ، ويتهيأ نفسيا ، ثم يبدأ فى كتابته واقفا فى بعض الأحيان ، ويقطع الغرفة ذهابا وايابا ثم يعود ليتدفق فى كتابته من جديد . ومن الغريب انه كان يلجأ أحيانا الى طريقة شاذة حين يود أن ينتهى من كتابة موضوع ما فلا يعوقه معوق ، فيصعد فوق كرسى ثم فوق منضدة مرتفعة ، ثم يجلس فوق الكرسى حتى يستصعب عملية الهبوط ، فيظل يكتب الى أن ينتهى . وكثيرون من الفنانين والعباقرة لهم طرتهم الشاذة فى وقت الابداع ، فالزهاوى الشاعر مثلا كان ينبطح على وجهه فى كثير من الأحيان حتى ينتهى من قصيدته ، بل قد يظهر شذوذ الموهوبين فى غير وقت الابداع كما نعلم عن شوقى من دراستنا لحياته وطباعه ، وغيره من الشعراء العرب والأوربيين .

ولم يكن يقطع على توفيق البكرى خلوته هذه مع كتبه وأوراقه فى الليل الا زيارات الأصدقاء كأحمد العريس وعلى يوسف والشيخ حمزة فتح الله والمنفلوطى والمويلحى وسركيس ، فيظلون يسمرون فى سالون عباس الأول الذى يتسع لأكثر من مائة شخص حتى ساعة متأخرة من الليل .

وهكذا كان البيت الكبير بما فيه المبانى والحدائق وما فيه من الخدم والجوارى وما فيه من أثاث الملوك وقاعات الأمراء ، يخيم عليه الصمت فلا يحس فيه السيد توفيق البكرى الا بالوحدة ويتلفت

فلا يجد حوله الأبناء ولا يجد الى جواره الزوجة القادرة على ان تؤنس وحشته ، ولا يقطع عليه سمته الا طارق من الزوار ، ولكن أمرا واحدا كان يملك عليه وقت فراغه ويشغله عن نفسه ، وهو التفكير فيما وراء اسوار البيت ، فى المجتمع الذى يعيش فيه وما ينبغى أن يقوم به من أجله . وبينما كان السيد توفيق يعيش هذه الحياة ، كان سكان الحى من حوله يتطلعون الى ساكن البيت الكبير بشىء من الغبطة ، وبشىء من القداسة ايضا .

مجمع البكرى

كانت الظواهر كلها تتجمع أشبه بسحب ملبدة بالغيوم ، تنذر بعواصف شديدة تزعزع اللغة العربية الفصحى وتعيث فيها هدما وفسادا . فالصحف السياسية فى ذلك الوقت حديثة العهد أشبه بالوليد يستخدم كل ما يسمع من كلمات ، ومن هنا كثر استخدام الكلمات السياسية الأوربية من فرنسية وايطالية وتركية ، وهكذا ايضا كان يفعل المترجمون فى دوائر الحكومة ، وناقلو الكتب المدرسية ومؤلفوها ، فاختلط المعرب بالعامى وتسلل كل ذلك الى أساليب الكتاب عن عمد أو غير عمد فى بعض الأحيان . . وفكر عبد الله فكرى فى الأمر ، ودعا عام ١٨٨١ م الى انشاء اكاديمية تصون اللغة ، ولكن دعوته لم يسمع صداها لأن الأمور السياسية ما لبثت أن اضطربت ، وقامت الثورة العربية فعلا صوتها فوق كل صوت ، وأعقب ذلك الاحتلال البريطانى ، فوئدت الدعوة فى مهدها (١) .

وعندما بدأت الأصوات ترتفع مرة أخرى مع بداية عهد عباس الثانى عام ١٨٩٢ ، قامت الدعوة مرة أخرى الى انشاء مجمع لغوى ، فالمبررات ما زالت قائمة ، بل لعلها ازدادت سببا أو أسبابا تجعل من قيام المجمع ضرورة لغوية وقومية ملحة ، فالثقافات الأجنبية بدأت تتسع دائرتها ، وتحمل معها من المصطلحات كل يوم جديدا ، والاستعمار البريطانى يهاجم اللغة العربية ويحاول أن يحصرها فى اضيق نطاق حتى يقضى عليها ، ومن هنا أصر على أن تكون لغة العلم فى المدارس هى اللغة الانجليزية . وكانت المدارس

---

(١) المقتطف (يناير ١٩٢٨) محاولات لانشاء مجمع لغوى .

الأجنبية والصحف الأجنبية تغذى هذه النزعة ، حتى كادت تستولى العجمة على هذا الجيل كما يقول توفيق البكرى (١) .

ثم نشط المستر وليم ويلكوكس المهندس البريطانى المعروف، ودعا الى الكتابة باللغة العامية مدعيا أنها أقدر على افهام الجماهير الأمية ، والمستشرقون كلهم عندما يهاجمون اللغة الفصحى يحسبونها جامدة غير متطورة وعاجزة عن استيعاب المفردات الجديدة . والواقع أن جهود مدرسة الألسن القديمة التى عاشت فى النصف الأول من القرن الماضى اجل من أن تنسى بعد جيل فقد ترجمت المصطلحات العلمية ، التى كانت تدرس فى مدرسة الطب ومدرسة الهندسة ومدرسة التمريض والمدرسة الحربية وغيرها ، وفتحت اللغة صدرها للاشتقاقات الجديدة ولم ترفضها . ولكن استخدام الصحف للمصطلحات الأجنبية وترجمة الانجيل فى هذه الفترة الى العامية يعنى أن على العربية المحاربة فى جبهتين ، جبهة العامية وجبهة الدخيل . وعلى الرغم من أن « محمد عثمان جلال » ترجم الى العامية بعض المسرحيات الفرنسية الا ان ذلك لا يعنى انه كان يفضل استخدام العامية واحلالها محل الفصحى ، فالحقيقة أن التطور المسرحى فى هذه الفترة كان أفقيا وليس رأسيا ، بمعنى أن المسارح على كثرتها لم تكن تسير على خطة معينة لأن حركة التأليف لم يكن قد اشتد ساعدها ، ولذلك كانت حركة الترجمة والتقريب والتمصير تأخذ المكان الأول ، فمحاولات عثمان جلال فى هذه الفترة كانت تمصيرا أكثر منها ترجمة حتى يمكن أن يتذوقها الجماهير ، لأن فى النص الأصلى من الأسماء والمصطلحات والعادات والتقاليد ما هو غريب على المجتمع المصرى (٢) . على ان الأمر بعد كل هذا يتصل بلغة المسرح بوجه خاص فما زلنا الى الآن نحاول ايجاد لغة للمسرح ، بعضنا يؤثر الشعر وبعضنا يؤثر النثر الفصيح والبعض الآخر يفضل

---

(١) مقدمة صهاريج اللؤلؤ .

(٢) راجع الادب والحياة فى المجتمع المصرى الحديث ص ٩٥ .

العامية على أساس أن المسرح صـــــورة من الحياة بلغتها المحكية لا المكتوبة ولغتنا المحكية هى العامية وان كانت المسافة بينها وبين الفصحى قريبة قربا شديدا عند المثقفين وهكذا ينبغى أن تكون لغة الحوار المسرحى ، لا تتدنى الى العامية المبتذلة ولا تصل فى ارتفاعها الى التقعر والوعورة .

لم تكن العامية والدعوة اليها خطرا فى هذا الوقت فالفصحى لغة القرآن ولغة التراث ولغة التفاهم بين الوطن العربى كله والعامية فى ذلك الوقت لم يكن هناك من اهلها من يحاول دراستها ووضـــع القواعد لها ، وانما الداعون اليها غرباء ، ودعوتهم تبعث الريبة ، فلابد أن يقوم رد فعل ضدها يزيد الناس حرصا على اللغة الفصحى ، ومن هنا وهناك انبعثت فكرة انشاء مجمع لغوى فى هذه الفترة ، وكانت الدعوة فيها من التحذير والترغيب ما يزيدها اصرارا ووضوحا وقوة .

« ان اللغة العربية لم يعد يمكنها أن تجارى اللغات الأوربية ، مالم يقم فى البلاد جماعة كأعضاء الأكاديمية الفرنسوية يتولون امر التعريب ووضع المصطلحات العلمية وتنقية اللغة من كل وحشى ومهجور . وقد رأينا من قبل أن الأكاديمية الفرنسوية قامت ونجحت بتعضيد ملوك فرنسا لها ، ورجونا أن يكون سمو عباس باشا (وكان وقتئذ وليا لعصر الخديوية المصرية) عضوا لهذا المجمع اللغوى ، ونعيد الآن التماسنا راجين من سموه أن يحله محل النظر ويشد أزر من يسعى اليه » (١) .

وما دمنا نسلم بأن اللغة اشبه بشجرة ضخمة تسقط أوراقها القديمة ثم تستقبل أوراقا جديدة على مرور الأيام كما يقول علماء اللغة ، فلابد من التهيؤ لاستقبال الألفاظ الجديدة ، ولكن هل نترك

(١) المقتطف فبراير ١٨٩٢ (عباس الثانى خديوى مصر) .

لكل صحفى أن يستخدم ما يشاء من الألفاظ بعيدة كانت أم قريبة من صياغة العربية ومشتقاتها ؟ الواقع أن الضرورة كانت تستدعى وجود جمع من علماء اللغة يرعون الفصحى ويتعهدونها بتوليد الألفاظ من المواد اللغوية ، فاذا مرنت الأذن على سماع الكلمة أصبحت فصيحة وفرضت نفسها فرضا على المعجم وعلى الكتاب . وهكذا يفتح المجمع اللغوى باب اللغة ولكن فى شىء من الحيطة ويقوم بعملية موازنة بين الجمود وبين التطور .

« فمهما تنوعت الغايات وتعددت الأهداف فى سبيل انشاء المجامع اللغوية واجتناء ثمراتها ، فلن يعدو أن يكون الهدف الأصلى التوسل بها الى سلامة لغة البلاد التى أنشىء المجمع فى ربوعها . وسلامة كل لغة تكون بأحد أمرين : الأمر الأول ــ المحافظة على ارثها المميز لها عن غيرها ، كنوع تأليف الكلام وطريقة ايراده وخصوصية أساليبه وروعة بيانه مع غرابة ايجازه . والأمر الثانى لسلامة اللغة زحزحتهاعن الجمود والأخذ بها نحوالتطور ، مع تطور أهلها المتكلمين بها ، فيجدون فيها المرونة المواتية فى التعبير عن أفكارهم ومستحدثات حضارتهم وبدائع تطورهم . ويجب التوفيق بين هذين الأمرين جهد الطاقة ، فلا ندع الاستمساك بأهداب لغتنا الموروثة يقف فى سبيل تطورها ، ولا نساير التطور وندخل اللهجات الى حد أن يطغيا على لغتنا الفصحى ويعملا على تحطيمها فتموت وتميتنا معها . أدرك هذا عصبة من كبار أدباء مصر ومترجميها منذ أواسط القرن الماضى وقد لمسوا الخطر فى تغلب التطور على اللغة الفصحى ، وخشوا أن يزعزع هذا التطور أركانها ويسلبها بيانها ، ولا سيما بعد أن غزتنا الأمم الأوربية بلغاتها » (١) .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٧ (مجامعنا اللغوية وأوضاعها للشيخ عبد القادر المغربى) ص ١٢٣ .

وهكذا نضجت الفكرة ووجدت التربة المهيأة لنموها ، ففى النصف الاخير من سنة ١٨٩٢ اجتمع فى دار السيد توفيق البكرى بالخرنفش الشيخ الشنقيطى الكبير ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ حمزة فتح الله ، والشيخ حسن الطويل ، وحفنى ناصف ومحمد بيرم ومحمد المويلحى ومحمد عثمان جلال ومحمد كمال . وتذاكروا فى انشاء مجمع يؤدى للغة العربية ما تؤديه الأكاديمية الفرنسية للغة الفرنسية . ثم انتخبوا السيد محمد توفيق البكرى رئيسا لأول مجمع للغة العربية كما انتخبوا السيد محمد بيرم سكرتيرا له .

ولم تكن هناك خطة عمل ، وان كان هناك قانون يحدد هدف المجمع وشروط عضويته . فلم يفكروا فى محاولة وضع قاموس حديث او تحقيق معجم قديم ، ولم يرسموا اسلوب التعريب ، ولا وضعوا منهجا للخطوات التى يبداون بها ، فما من شك فى ان الميدان الاجتماعى والسياسى كان بحاجة الى التفاتهم أكثر من غيره ، ولكن هناك ميدان الأدب والاقتصاد والعلوم . كذلك لم يقسموا أنفسهم الى لجان تختص كل لجنة بدراسة ناحية من النواحى ، والدارس لجلساتهم يدرك أن ميدان الحياة الاجتماعية كان أكبر ما استرعى التفاتهم ، ولكن يبدو أن ما كان يتبادر الى اذهانهم عفو الخاطر من الألفــــاظ الدخيلة فى الحياة الاجتماعية ، هو ما اهتموا بتعريبه وحده .

كان المجلس قد اكتمل عقده فى احدى الجلسات التى عقدت مساء الرابع من فبراير عام ١٨٩٣ . وكان على السيد محمد توفيق البكرى أن يلقى بحثا ويترجم الى العربية عدة كلمات اجنبية تسللت الى اللغة . والواقع أن السيد البكرى كان قد استعد لهذا اليوم وأشرك معه الشيخ حمزة فتح الله فى اختيار واشتقاق الكلمة العربية المرادفة فى المدلول للكلمة الأجنبية . وهكذا وقف الرئيس الأول للمجمع اللغوى يلقى كلمة فى اخلاق الشاعر المتنبى ، حاول أن يستدل فيها من اشعار المتنبى على طباعه . ثم عرض ترجمة لعشر كلمات

اجنبية بعد ذلك وهى : مرحى لكلمة برافو ، مدرة للأفوكاتو ، مسرة للتليفون ، عم صباحا لبون چور ، عم مساء لبون ســـوار ، حماد لمرسى ، بهو للصالون ، قفاز للجوانتى ، نمرة لنمرو ، وشـــاح للكوردون . فوافق الأعضاء جميعا على هذه الترجمة ، ثم قام محمد عثمان جلال فالقى تخميسة لقصيدة بانت سعاد . وانتهت الجلسة .

وفى الجلســـة التالية المنعقدة فى الســـابع عشر من فبراير عام ١٨٩٣ ، القى الســـيد البكرى بحثا بعنوان « الوفاقات فى العادات » عرض فيه بعض مظاهر الاتفاق فى العادات التى يشترك فيها العرب والافرنج كالتمثيل والرقص والتصوير والتهادى بالزهور واستعمال الورق مكان النقود وقت الحاجة ورفع ما على الرءوس للتنظيم واقامة التماثيل للرجل المشهور واقامة المتاحف وتقديم قائمة قبل الأكل تحتوى على أسماء الأطعمة . ويحاول التدليل على وجود هذه العادات عند العرب (١) . والواقع أن مرحلة التطور التى عاشها ذلك الجيل كانت تستدعى محاولة التوفيق بين المثل والتقاليد العربية والمثل والتقاليد الغربية الغازية لأن مراحل التقاء الحضارات وتصارعها توجد فريقين من المتطرفين ، فريق يذوب فى الحضارة الجديدة ويقتلع جذوره ، وفريق يزداد تمسكا بتقاليده ورفضا لكل غاز ، أما القاعدة الشعبية فهى التى تحاول التوفيق فى موقفها بين حدة الطرفين وأخذ ما فى صالح القديم وصالح الجديد ، وعلى هذا الأساس نفسه قام المجمع اللغوى الأول ليتدارك هذا السيل الغازى من الألفاظ الأجنبية ، الذى تبناه المتطرفون ورفضه المحافظون وحاول المجمع أن يوجد بديله فى العربية .

وفى هذه الجلسة نفسها القى محمد المويلحى كلمة فى أغراض المجمع يؤكد فيها حتمية وجوده فى مرحلة التطور هذه ، ثم القى

---

(١) راجع حاشية صهاريج اللؤلؤ ص ٢٥٨ وما بعدها .

عشر كلمات ترجمة لمسميات اجنبية ، وهي الطنف للبالكون ، والحراقة لمركب التوربيد ، والجديلة للموضة ، وبطاقة الزيارة للكارت ده فيزيت ، والمربة للكلوب ، والحذاقة لشهادة الدراسة ، والمطف للبالطو ، وحصب الطريق لفرشها بالمكدام ، والشرطي لرجل البوليس ، والمشجب للشماعة . هاتان هما الجلستان المهمتان لمجمع البكري ، وتلك هي الكلمات العشرون التي وافق عليها اعضاء المجمع اقترحها البكري والمويلحي في الجلستين الاخيرتين (١) . وقد اثار المجمع ضجة صحفية بطبيعة الحال ، فهو أول مؤتمر لغوى ، وتلك أولى الكلمات التي يتفق على تعريبها جمع من خيرة اللغويين ، فتناقلت الصحف هذه الكلمات ، وتصدى لنقدها جورجي زيدان في « الهلال » ورد عليه عبد الله النديم في « الأستاذ » . . .

يقول النديم : « رأيت جريدة الهلال الغراء دخلت هذا الباب وقالت (اننا لم نر في لفظة مدرة الكفاءة التامة لتنوب مناب لفظة افوكاتو بكل معانيها ، اذ ان هذا اللفظ في اللغات الافرنجية يفيد المدافعة عن الآخرين في الأمور الشرعية ، وهذا لا تفيده لفظة مدرة ، لأن المراد بها زعيم القوم والمتكلم عنهم بما له من الرئاسة عليهم كما هو الحال في رؤساء الأحزاب وزعمائها . . اما الأفوكاتو فعلى خلاف ذلك كما لا يخفى) ونحن نقول ان اللفظ يقوم بالمراد ، فانه كما يدل على السيد الشريف في قومه ليدل على المقدم في اللسان والسيد عند الخصومة والقتال ، والمقدم في اللسان عند الخصومة صفة جامعة لكل ما يخاصم فيه سواء كان حقا شرعيا او مدنيا او جنائيا له او عليه ، فهو اعم من لفظ محام الآتي في مادة حمى الشيء منعه ودفع عنه ، وليس فيه معنى المطالبة بالحقوق ولا درء الحدود ولا رد الشبه ولا ابطال الدعاوى ولا تأييد سابق الأدلة والبراهين ولا تأويل معنى قانوني ولا تخطىء قاض ولا تفسيق

(١) محاولات لانشاء مجمع لغوى (المقتطف يناير ١٩٢٨) .

شاهد ، وهذا كله يندرج فى الخصومة . على أن كل معنى أريد من أفوكاتو فانه فى معانى المدرة ، فانه رأس القوم والدافع عنهم وزعيمهم وخطيبهم والمتكلم عنهم ، ومن يرجعون الى رايه ، ولسان القوم ، وليس فى معنى أفوكاتو اوسع من هذا ولا غيره ، واما كلمة محام فانها فى غاية القصور عما يلزم وظيفة المدرة اذ ليس فيها سوى المنع والدفع ، واما قول الهلال (ولنا فيها اشتقاقات لتسهل استعمالها فنقول حامى عنه ويحامى عنه ومنه المحاماه مما لا يتأتى لنا فى لفظ مدرة) فان الذى حملها عليه هو قول الليث فى المدرة (أميت فعله) ولو مشت العلال فى المادة حتى وصلت قولهم دره لقومه يدره درها ، لما انكرت الاشتقاق ، وعلى هذا فيقال فن المدارهة ، ودرة عنى خصمى أى دفعه ورده ، وهو ذو تدره القوم أى الدافع عنهم ، واذا قلنا درة اصله درأ فهو مبدل منه زاد المعنى وضوحا ، اذ يقال تدارأ القوم اى تدافعوا فى الخصومة ، فتكون هناك مفاعلة ، والترافع بالأفوكاتية لا يكون الا بين اثنين يبدأ كل منهما عن منيبه عنه ، وكما يقال فى المبدل منه يدارأ القوم يقال فى البدل تداره الخصمان ، ومن هذا يظهر ان المدره هو مقابل افوكاتية من غير اخـــلال بشىء من معناه » (١) .

وهكذا انتقل النديم من كلمة الى اخرى مفندا رأى جورجى زيدان ، بتفسير لغوى طويل موافقا على كلمات المجمع لم يستثن منها الا القليل ، وفى ذلك يقول : « قال الهلال (ان نمرة لا تؤدى المراد من نومرو الافرنجية ، بل هى غير معناها لأن نمرو تفيد فى الأصل العدد أو الأرقام ، وقد أطلقت على العلامات والأرقام التى يستخدمها التجار وغيرهم ليميزوا بها أصناف السلع بعضها عن بعض ، أما النمرة فهى النكتة من أى لون كان ، والنكتة النقطة السوداء فى الأبيض والبيضاء فى الأسود ، واذا جاز استعمالها بمعنى

(١) الأستاذ ٧ مارس ١٨٩٣ (مجمع اللغة العربية بمصر) .

نمرو فينقصنا الفعل منها اذ ليس فى اشتقاقاتها ما يقوم مقام نمر العامية ، وهذا نقص لا يسد الا بالتفتيش عن لفظ آخر يؤدى هذا المعنى) ، والأستاذ يوافق الهلال فى مخالفة معنى نمرة العربية لمعنى نمرو الافرنجية .. فالأولى استعمال عدد . ثم قال الهلال (وعندنا أن مادة رقم تؤدى الغرضين معا لأنهم يقولون رقم الثوب خططه وأعلم بأن ثمنه كذا ، ومنه قولهم لا يجوز بيع الشىء برقم ، قلنا الرقم بمعنى نمرو تماما) ولا يخفاه أن قولهم رقم الثوب خططه لا يفيد معنى العدد .. فالرقم بمعنى الكتابة وكتاب مرقوم بينت حروفه بعلاماتها من النقط والشكل » . ثم اعترض الأستاذ على كلمة « مرحى » لأنها تقال للرامى اذا أصاب أو تعجب من جودة رميه فهى خاصة بالرمى ، وبراڤو كلمة تقال لكل مصيب فى قول أو فعل وكل محسن فى أداء عبارة أو تحرير مطلب خطابى ، فمقابلها « بخ » فانها كلمة تقال عند تعظيم الانسان وعند التعجب من الشىء وعند المدح والرضا بالشىء . أما الحراقة فالأوفق أن تطلق على المركب الحربية ، وأما المرب بدلا من الكلوب فهذا اذا كان الكلوب للحديث ليلا ونهارا ، أما اذا كان للحديث ليلا فهو السامر اى مجلس السمار واذا كان للحديث نهارا فهو النادى . وأخيرا فان الجديلة بمعنى الشاكلة فلا تؤدى معنى مودة غالبا لأن الشاكلة هى الشكل وهو عبارة عن الصور المحسوسة والمتوهمة والطريقة والمذهب ، والمراد من المودة نوع جديد يخالف سابقه من الأنواع (١) .

واذا نظرنا اليوم الى هذه الألفاظ التى وضعها المجمع الأول وجدنا أنه لم يعش منها الا القليل ، وهذا القليل نازعته الحياة الفاظ عربية اخرى . وقد كانت كلمة « أڤوكاتو » اكثر هذه الألفاظ الأعجمية شيوعا ودورانا على الشفاه يومئذ ، فرأى ذلك المجمع أن يستبدل بها كلمة « المدرة » غير أن كلا الكلمتين ماتت وعاشت بعدهما كلمة « المحامى » التى اقترحها جورجى زيدان ، وكذلك كلمة « مرحى »

(١) المرجع السابق .

بدلا من « برافو » . فتلت احداهما الأخرى وخلفتهما كلمة « بخ » لحين من الزمن ثم لم تقو هي الأخرى على الحياة وخلف الجميع التصفيق بالأيدى وقول « الله اكبر » في بعض المواطن . وكذلك « نمرة » مكان « نومرو » ماتتا وخلفتهما كلمتا « رقم وعدد » اللتان اقترحهما جورجي زيدان وعبد الله النديم . على أن « نمرة » ما زال فيها رمق من حياة يتردد الى اليوم . و « عم صباحا عم مساء » مكان قولهم « بونجور بونسوار » ماتت الكلمات جميعا ورجع الناس الى ما مرنت السنتهم عليه من كلمات التحية عند اللقاء . و « المرب » مكان « الكلوب » ماتتا وورث استعمالهما ، لفظ النادى . و « مشجب » مكان « بورت مانتو » ماتتا واستغنى الجمهور عنهما بكلمة « شماعة » وان كانت كلمة « مشجب » لا يزال بها بعض ماء الحياة .

وهناك الفاظ عربية فصيحة وضعها مجمع البكري فحييت وبقى مقابلها الأعجمى حيا وهي (بطاقة وكارت فيزيت) و (شرطى وبوليس) و (بهو وصالون) و (معطف وبالطو) و (قفاز وجوانتى) .

أما الكلمات الأعجمية التى استطاعت ان تميت مقابلها من الكلمات العربية التى اقترحها هذا المجمع فهى (المودة أماتت الجديلة) و (شهادة الدراسة أماتت الحذاقة) و (البلكون أماتت الطنف) (١) .

وأسدل الستار على مجمع البكرى بعد قيامه بعدة أشهر ، لأن الدولة لم تقف الى جانبه ، وهو بنفسه لم يتخذ الوسائل الكفيلة ببقائه ، وكان النديم قد اقترح أن ينشىء المجمع قاعة للخطابة ويضع للدخول اليها رسما معينا ، ويصدر مجلة شهرية تتضمن أبحاثه ، ويقيم الأعضاء انفسهم بحسب تخصصاتهم ويقدم جوائز لمن يقدم اليه رسالة فى فن بعينه أو يحقق مطلبا يخصصه ، وقد تدارك المجمع اللغوى الآن كل تلك الثغرات ، فبقى قويا يحتل مكانته المقدرة له .

(١) مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٧ (مجامعنا اللغوية وأوضاعها) .

في معترك السياسة

وكان تفكير السيد البكري يجول دائما خارج أسوار داره الكبيرة، فلم يكن في داخلها ما يشغله عن الحياة العامة ، ومن أجل ذلك ألقى بنفسه في معترك السياسة منذ وقت مبكر . والحقيقة أن الاحتلال في ذلك الوقت كان يحاول أن يئد روح الوطنية في النفوس بعسفه وطغيانه . « فصار عدم الاكتراث للوطنية شعار هذا الجيل والجيل الذي تلاه واصبح سبيل النجاح سواء في مناصب الحكم أو في الحياة الاجتماعية عامة هو الولاء للاحتلال الأجنبي ، والزراية بالمبادىء الوطنية وقلة الاخلاص للبلاد ، ودرج الناس على هذه الحالة حتى الفوها وحتى عدوها كأنها حالة عادية وكأن الخروج عليها ضرب من السخف أو الجنون ، وهكذا يمسخ الحكم الأجنبي نفسية الأمة ويفقدها روح القومية والكرامة وينشىء نفوسا مريضة يروضها على التفريط في حقوق الوطن وتضحية مصالحه ، وألغى الاحتلال النظام الدستوري الذي نالته البلاد من قبل ، والذي كان اداة لمقاومة التدخل الأجنبي والحد من سلطة الفرد ، وكان يقرر سلطة الأمة ويجعل الوزارة مسئولة أمام مجلس نيابي كامل السلطة، وانشأ بدلا منه نظاما صوريا قوامه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، وهما هيئتان محرومتان كل سلطة ونفوذ ، وبذلك فقدت البلاد في وقت واحد استقلالها ودستورها ، وفقد الناس الطمأنينة على حياتهم وحريتهم »(١) .

---

(١) مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ١٧٥ .

والواقع أن صوت المؤيد كان أول بشير بأن مصر لم يزل فيها بقية من حياة ، ثم ظهر « الأستاذ » للنديم بعد ثلاث سنوات ، وأثبت النديم أنه يحمل بين جنبيه نفسا هي أقوى من الكوارث وعزيمة لا تردها الهزيمة اذ استأنف جهاده الذى بداه مع عرابى ، وأعلن الحرب الصريحة على الاستعمار ، ثم أخذ يلقى تبعة ما صارت اليه مصر من سوء الحال على أمراء مصر وزعمائها ، حتى انتهى به الأمر الى النفى ، وطويت صحيفة الأستاذ ولم يحل الحول على صدور العدد الأول منها . وتلقف الراية من يد النديم مصطفى كامل ، فقد اتصل به منذ عودته من منفاه الأول وعرف منه كثيرا من أسرار الثورة العرابية ودسائس السياسة البريطانية ، وبدأ جهـــاده عام ١٨٩٥ بمقاله الذى نشر فى الثامن والعشرين من يناير فى ذلك العام بجريدة الأهرام مطالبا الاستعمار بتحقيق وعوده فى الجلاء .

والحقيقة أن جراة مصطفى كامل كانت تمثل مرحلة سبقت عصرها ولكنها علمت العصر الا يتوقف ابدا ، فلم يكن من السهل أن يحمل الاستعمار عصاه ويرحل لمجرد نداء مهما كانت قوة صداه . وعندما فكر البكرى هذا التفكير راى أن المطالبة بالاستقلال الادارى لابد أن يسبق المطالبة بالاستقلال السياسى فرفع صوته مطالبـــا بالمجلس النيابى ، وكان أول مصرى نادى به ، قبل أن يبدأ مصطفى كامل جهاده الوطنى . فنشر فى مايو عام ١٨٩٣ مقالا بجريدة التيمس البريطانية يقول فيه : « وقد أنشىء فى مصر مجلس نواب بعد أن ساد فيها الاستبداد والظلم اربعة آلاف سنة ، فألغاه الاحتـــلال واستبدله بمجلس شورى القوانين ، وهو مجلس لا يحق له الا ابداء رأيه ، كما يبديه محرر جريدة فقط ، فالغاء مجلس نوابنا هذا نقطة من أشد النقط سوادا فى تاريخ الاحتلال » (١) . كان هذا فى نفس

---

(١) بيت الصديق ص ٢٤ .

الشهر الذى عين فيه عضوا بمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، فقد أحس أن الظروف كلها تدفعه للاندماج فى الحياة السياسية ، وهو لا شك قادر على أن يسهم بنصيب كبير فى هذه الحياة ، ولكن فى حدود الأوضاع السياسية والدينية التى يعيش فيها . فقد تفرق حزب الاصلاح الذى كونه جمال الدين الأفغانى من قبل وأصبح على كل فرد يؤمن بحتمية التطور التاريخى أن يعمل فى ميدانه ، حتى تتجمع دروب الاصلاح جميعا . وفى نفس العام تحادث مكاتب « النيويورك هرالد » مع كبار الرجال فى مصر لينقل الى العالم وجهات نظر المصريين . تحادث مع فخرى باشا ، فكان جوابه أشبه بانتكاسة العليل بعد بداية الصحو ، وطعنة وجهها فى يسر وسهولة الى صدر مصر « اننى لو بقيت رئيسا للنظار لما ادخلت فى برنامجى اخراج الانجليز حالا من مصر عسكريين او ملكيين ، لأنهم اندمجوا فى المصالح المصرية لدرجة أنهم لو خرجوا منها لوقعنا فى حيرة لعدم وجود من يخلفهم فيها الا بعد مدة طويلة ، ولو كان الاحتلال فرنسيا أو ايطاليا لكانت النتيجة دفع البلاد الى حالة سيئة » (١) . انها وجهة نظر أصحاب المصالح ، الذين لا يعنيهم الشعب فى كثير او قليل ، بل يخشون تيقظ الشعب على صوت الجهاد ، وانتزاعهم من بؤر الترف التى ينغمسون فيها الى الأذقان. والتزلف واضح أشد الوضوح ، لأن الاحتلال واحد سواء أكان انجليزيا أم فرنسيا ، ولا نستطيع أن نلتمس العذر لصاحب التصريح ، حين لم يقو على مهاجمة الاستعمار فى ذلك الوقت المبكر فقد كان من الممكن ان يصمت ولا ينطق كفرا ، على أن تصريح البكرى وضع الأمور فى نصابها حين قال : « ان مبدأه مصر للمصريين ، وهو ضد اى احتلال فرنسى أو ايطالى أو تركى ، كما أنه ضد

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم رقم ١ ص ٧٤ .

الاحتلال الانجليزى ، وانه يعتقد ان بلاده قادرة على حكم نفسها ، ويرى ضرورة استرجاع السودان »(١) . ففى الوقت الذى لا يتناسى فيه قضية السودان ، يجاهر بعدائه للاستعمار البريطانى ، ويصرح مرة ثانية بأن بلاده قادرة على حكم نفسها دون وصاية من أحد ، وكان البكرى فى هذا الحديث أجرأ من رياض باشا وبطرس غالى وغيرهما ممن داروا حول الموضوع دورانا يزيل وضوحه ويغلفه بالغموض . ولا ينبغى أن تفسر دعوته الى مصر للمصريين على انها دعوة اقليمية ، فالواقع انها ظهرت قبيل الثورة العرابية وكانت تلك الثورة هى صوتها القوى ويدها الباطشة وقوتها المنفذة وكان محورها هو الحزب الوطنى الذى تألف قبيل الثورة من الرجال الذين تزعموها بعد ذلك ، ولعلهم كانوا متأثرين بالتفكير الغربى ، لأنها لا شك كانت صدى للاتجاه العالمى نحو فكرة القومية فى القرن التاسع عشر . وكانت رد فعل لتسلط العنصر التركى على مصر . على أن مفهوم الوطن فى ذلك الوقت كان يختلف عن مفهومه فى أذهاننا اليوم .

ولكى تتضح الصورة ننظر الى رأى محمد عبده الذى تناول الموضوع أكثر من مرة ، فنراه يتحدث عن وجوب التفانى فى الوطن وحبه والذود عنه ، ثم لا يلبث أن يتحدث عن الجامعة الاسلامية ووجوب انتشال الأمة الإسلامية مما هى فيه من حالة الضعف ، مهاجما أعداءها ، الذين يستبعدون الدين من دائرة الوطنية . كانت هناك إذن دعوة للوطنية بالمعنى الأوربى ، ولكنها كانت مختلطة بالدين فى أذهان كثير من الناس ، وتستهدف انشاء رابطة عاطفية بين المصرى ووطنه تحفزه الى الاهتمام بأمره والعمل على رفعة شأنه وأداء واجبه نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة

---

(١) نفس المرجع .

أخرى . وربما كانت هذه الناحية الأخيرة هي المقصودة بالتنبيه بنوع خاص ، لأن المصريين كانوا من قبل يؤدون الواجبات دون أن يعرفوا أن لهم في مقابلها حقوقا . ولكن أصحاب هذه الدعوة لم يفكروا على كل حال في أن يستبدلوا هذه الرابطة بالرابطة الدينية أو يضعوها في مقابلها .

وهكذا كان دعاة الحزب الوطني بعد الثورة العرابية ، ذلك الذي تزعمه مصطفى كامل ، فهو يتحدث عن الوطن والوطنية حديثا عاطفيا ، ويتغنى به كما يتغنى العاشق بمعشوقه ، محاولا أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الجديد ، ولكن الدين والوطنية عنده توأمان متلازمان ، يصوران حقيقة واحدة . على أن فريقا آخر من دعاة الوطنية ، كان يحارب فكرة الجامعة الاسلامية ، ويدعو الى أن يقصر المصريون اهتمامهم على مصالح مصر ، ويحصروا تفكيرهم فيما يعود عليها بالنفع ، ويصور الوطنية على أنها المصلحة المشتركة التى تجمع بين المواطنين ، وكان هذا الفريق ممثلا فى مؤسسى حزب الأمة ، الذين كانوا يسمون أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية ، فهم ينظرون الى الوطن نظرة مادية خالصة ، والمواطنون مجموعة من الناس جمعتهم هذه السوق التى تسمى وطنا وعليهم ان يحرصوا على أن تظل هذه السوق قائمة (١) .

وفكرة البكرى عن الوطنية تنطبق على فلسفة الفريق الأول ، فهو يدعو الى اهتمام المصرى بوطنه ، والى اهتمام الوطن بأبنائه ، ولكنه فى الوقت نفسه يدعو الى الجامعة الاسلامية فكريا وعمليا ، وان كان هذا لا يعنى مطلقا سيطرة تركيا على مصر من جديد ، لأنه يؤمن بقدرة المصريين على ادارة دفة بلادهم ، واصلاح امورها أكثر

(١) راجع الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ٥٠/٩٠ .

مما يستطيبه الغريب ، ويؤمن بأن خير مصر ينبغى أن يعود الى أبنائها وحدهم .

كان البكرى عضوا فى مجلس شورى القوانين وفى الجمعية العمومية ، وهو يدرك أن مجلس شورى القوانين مجلس عجيب ، فمحظور عليه المناقشة فى المسائل السياسية أو مجرد ابداء رغبة ما فى كل ما التزمت به الحكومة بمعاهدات دولية كالدين العمومى أو ويركو الآستانة او قانون التصفية أو غيرها ، فهو مجرد صورة ، لولى الأمر أن يحله متى شاء ، وأما الجمعية العمومية فتستشار لابداء رأيها فى المشروعات التى تبعث بها اليها الحكومة كالسلف العمومية وانشاء أو ابطال الترع (١) . ومن أجل ذلك كان التفكير فى انشاء مجلس نيابى خطوة هامة وحتمية من أجل مشاركة الشعب فى تقرير امره ومصيره ، ومن أجل ذلك ايضا كان التسويف مرة بعد اخرى من جانب المستعمر ومن جانب الخديو فى وجود مجلس ايجابى .

وعندما قدم ولى عهد بريطانيا الى مصر ، خطا البكرى خطوة أخرى ، فكتب له كتابا مفتوحا نشر فى « المؤيد » يقول فيه : « ولكن الأمة التى كان لها دستورها النيابى قبل عهد الاحتلال — ولم ينشأ مجلس شورى القوانين بشكله الذى عليه فى أول عهد الاحتلال الا على وعد من (اللورد دوفرين) مندوب بريطانيا العظمى اذ ذاك أن يكون هذا المجلس بعد قليل من السنين مجلسا نيابيا كاملا يساعد الحكومة على أداء وظيفتها احسن أداء — لابد وأن تذكر هذا الامتياز الذى كان لها دائما كما أنها لا تنسى هذا الوعد بالحصول عليه ، وهى اليوم أكثر ما تكون ذكرى له ، رجاء ان تكون زيادة سموكم سببا كبيرا فى مساعدة عاجلة من دولة بريطانيا العظمى لنيل

---

(١) تاريخ الحياة النيابية فى مصر ج ٤ ص ٥٥٢/٥٥٤ .

المصريين دستورا نيابيا شريفا . ذلك هو الدستور الذى التمسته الجمعية العمومية (واعضاء مجلس شورى القوانين من جملتها) من جانب الحكومة الخديوية رسميا قبل سنتين . ذلك الدستور الذى قال عنه جلالة والدكم المعظم أخيرا فى البرلمان (أن البلاد التى منحتها الامبراطورية الانكليزية حكومة نيابية أدى ذلك الى نموها وتقدمها وسعادتها كما أدى الى ازدياد روابط الصداقة بينها وبين الامبراطورية) فتفضل يا صاحب السمو الملكى واجعل هذه الزيارة الشريفة خير مذكر لدولة بريطانيا العظمى بالوفاء بوعدها فى أول عهد احتلالها ، ليبقى لهذه الزيارة أشرف ذكرى وأدومهـــا لدى المصريين » (١) .

واذا لم تكن كلمات الخطاب قوية كما ينبغى ، فالعصر كله لم يكن يستطيع الا فى النادر ، أن يتكلم بأسلوب أقوى من هذا اذا ما خاطب المستعمر ، خاصة اذا كان الخطاب موجها لولى العهد . واذا أدركنا أن الخطاب نشرته بعد ذلك الأهرام والمقطم والجوائب وكثير من الجرائد الأجنبية . « وأثار ضجة كبيرة فى الرأى العام المصرى » (٢) و « فعل بمصر فى النفوس والعقول ما تفعله شعلة النار القيت فى بحر من البترول » (٣) . أدركنا قيمته فى زمنه وفى محيطه ، ولم يكن يملك البكرى ولا غيره أن يصنع أكثر من محاولة تكتيل الرأى العام نحو هدف معين ، وأكثر من مخاطبة المستعمر فى صورة خطاب مفتوح . وسواء أكان هذا الخطاب المفتوح الذى وجهه البكرى الى ولى العهد بايعاز من مجلس الشورى(٤) ، أو لم يكن ، فان دلالته لا تخرج عن أمر واحد ، هو أنه صورة من صور الجرأة ، ودليل من دلائل الروح الوطنية . ثم كان الاتجاه الى السلطة المحتلة بعد أن فشلت جهود الجمعية فى حمل الخديو على انشاء المجلس

---

(١) بيت الصديق ص ٢٥ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم ٢ ص ٩٤/٩٥ .

(٣) المؤيد ١٩٠٦/٤/٣ وما بعده .

(٤) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم ٢ ص ٩٤/٩٥ .

النيابى بدلا من مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية (١) .

ثم اتجه مجلس شورى القوانين مرة ثانية الى الخديو بعد أن خاب أمله فى المستعمر واستيقن أن نيل حق من حقوق الأمة عن طريقه أبعد من الاحلام .

كان ذلك آخر اكتوبر عام ١٩٠٨ ، عندما عرض الموضوع على بساط البحث ، فظهر فريق معارض فى وجود حياة نيابية سليمة بمصر ، ومعارض فى تحميل الشعب مسئوليته ، فريق له صلات مريبة ، وقد علقت جريدة « المؤيد » على النقاش ، وتناولت بالتشريح طائفة المعارضين محاولة كشفهم أمام الرأى العام فقالت : « حصل جدال طويل أمس بين اعضاء مجلس شورى القوانين بشأن طلب المجلس النيابى ، وقد استمر الخلاف نحو ثلاث ساعات ، انتهى بتقرير البحث فى كيفية الطلب الى ديسمبر . ويوجد فى المجلس الآن فريقان مختلفان فى جوهر الموضوع ، وأكثر من فريقين فى شكله . فأما الفريقان المختلفان فى جوهر الموضوع ، فهم كل الأعضاء المندوبين تقريبا ، ومعهم بعض الدائمين وهم سماحة السيد البكرى وعلى شعراوى . وهؤلاء يطلبون الحكومة النيابية على كل حال . ومعارضوهم قليلون ، وقد ظهر منهم بالأمس سعادة طلبة باشا بعودى على تردد فى عدم طلب المجلس النيابى من أصله ، أو فى طلب توسيع اختصاصات المجالس النيابية الحاضرة ، ومعه سعادة موسى باشا غالب قاطعا بعدم طلب المجلس النيابى من أصله ، وكذلك حضرة مفتاح بك معيد ، وهؤلاء الثلاثة كانت الوكالة البريطانية قد رشحتهم ، الأولين لصداقة اللورد كرومر معهم بالذات ، والثالث لوساطة السير جارستن » (٢) .

---

(١) تاريخ الحياة النيابية فى مصر جـ ٤ ص ٥٥٤/٥٥٥

(٢) المؤيد ١٩٠٨/١١/١

... وهكذا كانت هناك أصابع الانجليز وأصابع الخديو تحرك بعض أعضاء المجلس من خلف ستار بغية التسويف ، ونجحت في تسويفها لأن المجلس لم يكن يملك من السلطات ما ينفذ بها قراراته ولم تكن قراراته ملزمة ، مهما كانت صادقة في دقة تصديرها لآمال الشعب وأمانيه . وهكذا أيضا لم يتحقق الحلم وبقى معلقا عاما بعد عام . . .

وفي ذلك الوقت كانت هناك أحداث ضخمة تحدث في دولة الخلافة ، فقد ثار الجيش وأجبر الخليفة على منح البلاد دستورها ، ولعل ذلك هو الذى دفع أعضاء مجلس شورى القوانين الى المطالبة بالدستور في مصر . ولم تكن هذه الأحداث لتمر دون أن تتناولها الصحف المصرية بالتعليق فما زالت مصر ترتبط ارتباطا عاطفيا وادبيا بالدولة العثمانية ، فنشط محررو الصحف ، وكان من أخطر تلك الأحاديث التى أدلى بها رجال السياسة في مصر ، حديث السيد توفيق البكرى الذى نشرته صحيفة اللواء .

يقول السيد محمد صادق عنبر محرر اللواء : ذهبت اليه ، فوجدت جمعا يتناقشون في السياسة ، بعد أن كان المصريون منكبين على الملاهى أو منعزلين وسألته :

– ما حال الدولة العلية ، وما كان يعوزها من قبل ؟

– كان بعض أدباء الافرنج يقول ان الدولة العلية كبرج بيز (المعروف ببرج بيشة في ايطاليا) سلامته في بقائه معوجا ، فاذا أريد تقويمه سيسقط ، ولكن الأيام قد اظهرت خطأ هذا القول ، وقول كل مؤتس منها ، ودلت على انها ملأى حياة وقوة ، وانما كان يعوزها الثورة ، وذلك لأن الحرية التى لا يتم بغيرها فـلاح هى كما قال **السياسيون ((تؤخذ ولا تعطى)) .**

انه سألهل من موجب للخوف من الحالة الحاضرة سواء من الداخل أو الخارج ؟

ـ لا خوف على الحالة الحاضرة مطلقا ، وانما اذا وجد بعض الخوف فهو من امرين : الأول داخلى والثانى خارجى . أما الأول فانه يخشى استمرار الجيش على الاستئثار بالقوة فيصبح البرلمان آلة له بدلا من أن يكون هو آلة البرلمان . وقد سمعنا فى التاريخ أن قائدا استأثر فى زمن ما بالقوة ، فلما وقع الخلاف بينه وبين البرلمان أخلاه وكتب على بابه (منزل للايجار) .. واما الخارجى فهو أطماع الدول والولايات البلقانية فى الدولة .

ـ ماذا يرى سماحة السيد فى « جمعية الاخـــاء العـــربى العثمانى » ؟

ـ قصارى القول ان غاية هذه الجمعية التفانى فى خدمة الأمة العربية على الخصوص والجامعة العثمانية على العموم وهى تعلم قبل كل أحد أن تآلف هذه العناصر فى الجامعة العثمانية كاجتماع الجواهر الفردة فى فص من الماس ، لا ينتج تفرقها الا اضمحلال قيمتها .

ـ ما رأى سماحتكم فى تصريح انوربك فيما يتعلق بمركز مصر ؟

ـ كانت مصر فى حكم الدولة الفاطمية فأهملوا ادارتها حتى دخلها الفرنج ، فأرسل السلطان نور الدين ملك الشام قائده شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى لفتحها ففتحها ، ولما استقر امرهما جمع صلاح الدين قواد الجند واشار عليهم باستقلال مصر عن الشام فقام عمه شيركوه ونهره وقال له لو طلبك الســـلطان نور الدين لكنت أول من يسلمك اليه ، ولما انفض الاجتماع على غير طائل ، سأل صلاح الدين عمه عن سبب معارضته فقال له : انك جاهرت بامر لم تكن قادرا عليه ، وخشيت ان يكون ثم جواسيس لنور الدين فيخبرونه بالأمر فيفاجئنا بما تكره ، على أنه لو طلب منا مصر الآن لحاربناه على كل شبر من أرضها . فعبارة انور بك الآن

هى فى السياسة كعبارة شيركوه فى ذلك العهد ، على أنه سواء كانت تلك العبارة ظاهرية فقط أو كانت حقيقية ، بمعنى أنهم فضلوا فى الظروف الحاضرة مصلحة الدولة العلية على مصلحة مصر ، وضحوا بالجزء لحفظ الكل ، فهم وشأنهم فى مصالحهم ، ولنعمل نحن لمصلحتنا ما فيه النفع لنا .. على أنى أعتقد أنه متى استقر امر الدولة العلية على الأسس الدستورية وملكت قواها ، فاعتقادى أن انكلترا ذاتها هى التى تعرض عليها مسألة الجلاء قبل أن تعرضها الدولة على انجلترا .

– يعلم سماحة السيد أن الراى العام يلح فى طلب الدستور النيابى الحاحا شديدا ، وقد بلغ من الثبات والقوة والتمسك بهذا الطلب حدا يستحيل معه أن تعطل ارادة الأمة ، فماذا يرى سماحة السيد ازاء هذه الحالة ؟

– ان رأيى اليوم رأيى الذى جاهرت به منذ ستة عشر عاما ، وهو وجوب منح مصر الحكومة النيابية ، وقد عملت على تحقيقه ، ولا ازال أعمل ، وهو ما زادته الأيام الا استقرارا ، فان مصر قد فقدت نفسها منذ فقدت الدستور ، ولا تجد ذاتها الا حين تجد ذات الدستور ، **وان ارادات الأمم محال أن تعطل** .. ان أول من ادخل فكرة الدستور بالمعنى الحقيقى فى مصر هو السيد جمال الدين الأفغانى ، فانتشرت هذه الفكرة بين اصحابه أو تلاميذه من الوزراء والعلماء والصحافيين وغيرهم من ذوى المكانات ، وفى آخر أيام الخديو الأسبق طلبت منه الدول ذات الشأن مطالب أراد أن يردها بصوت الأمة فأجابه الى طلبه ، وجعلت ثمن الاجابة منح مصر الدستور ، وقد وضع ذلك كله فى اللائحة الوطنية المشهورة التى قدمت الى اسماعيل باشا فى يوم مشهود على يد المرحوم الوالد السيد على افندى البكرى كما هو معروف ، فقبلها الخديو ، ولكن الدول أصرت على عزله فعزل ، ورؤى اذ ذاك تأجيل تنفيذ مشروع

الحكومة الدستورية : فاجتمعت في منزل شريف باشا ، لما طلب ذلك تلاقيه رفع حلوان جمعية سرية برئاسة شريف باشا ، هدفها على تحقيق استقلال الحرية .. و فلسفة الثورة العرابية .

— من هنا نعلم أن ما أجرته (جمعية الاتحاد والترقى) هناك اليوم عين ما اجرته (جمعية حلوان) هنا أمس وأن الثورة هى التى أوجدت العرابيين لا أن العرابيين هم الذين أوجدوا الثورة .

— نعم . ثم انه لما كان الاحتلال ، قبرت فكرة الدستور ، ومضى على ذلك من سنة ٨٢ الى سنة ٩٢ وهى لا يسمع لها ذكر فى كتابة أو خطابة ، فلما توليت نقابة الأشراف فى سنة ١٨٩٢ ونزلت الى ميدان السياسة العمومية ، وضعت نصب عينى أن أحيى تلك الفكرة وأخرجها من القبر واعمل على منح مصر الدستور ، وذلك لأنى وجدت أنه لا سبيل لأن تجد مصر نفسها بعد أن فقدتها الا بالدستور . فرحلت الى انكلترا والآستانة العلية وكان لى فى ذلك سعى متواصل ، ثم عدت الى القاهرة وجاهرت بهذه الفكرة ... وما زلت اسعى فى هذا السبيل وأكلم أهل الحل والعقد فى تحقيق تلك الفكرة لما يترتب على تنفيذها من الخير فى الحال والمآل حتى قال اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » : انى كنت أفاتحه دائما فى أمر الحكومة الشورية ، ويمكننى أن أقول انه مع بعده الأفكار اذ ذاك عن منح مصر حكومة دستورية ، أمكننى أن أقنع من فى يدهم زمام الأمور بوجوب توسيع نطاق مجلس شورى القوانين توسيعا جوهريا ، ولم يمنع من هذا وذلك الا وقوع الأزمة الوزارية وتراخى العلائق بين عابدين وقصر الدوبارة بسنين عدة ، على انني فى تلك المدة لم افتأ أنشر هذه الفكرة فى الرؤوس وأغرسها فى النفوس ، وأتحين الفرص لابرازها الى عالم الوجود بلا كلل ولا ملل .

— وهنا يحق أن أذكر ذلك البطل القسيام العظيم الذى أبلى فى الوطنية البلاء الحسن أعنى المرحوم مصطفى كامل باشا ، فقد أبلى

ما أبلى وجاهد ما جاهد ، ومن جهاده الخفيد انه دعا الى الحكومة الدستورية وحمل على الاستبداد حملات صادقات .. على انى بعد ان رأيت الانقلاب السياسى الأخير أرى ان بروجراماتنا القديمة وبروجرامات الأحزاب المصرية أصبحت غير كافية لمستقبل مصر ، فلابد من جعل البروجرام من الآن « استقلال مصر استقلالا تاما واتحادها مع الدولة العلية اتحادا دائما أشبه باتحاد المجر مع النمسا فيتكون منهما دولة قوية عظيمة فى الشرق الأدنى » .

ـ البعض يعلق منح الدستور الآن على الكفاءة التامة للمصريين ، فما رأى سماحة السيد (١) ؟

ـ ان من يعلق منح الدستور الآن على الكفاءة التامة التى ينشدونها للمصريين ، هو كذلك الحلاق الذى كتب على باب الدكان « غدا أحلق بالمجان » ، وذلك ان الكفاءة لا تتم الا بالدستور ، فتعليق الدستور على الكفاءة تعليق على محال .. ان فى النواب المصريين اليوم من هم ارقى بكثير من نواب البرلمان الانكليزى عندما عقد لاول مرة . قال السيد سميلز « ان دستور الحكومة الانكليزية أمضاه قوم يجهلون الكتابة وما امضوه الا بالعلامات وأسسوا حرية الانكليز وهم يجهلون القراءة والكتابة » . ومن العجيب أن تتمكن مصر من قرن من ايجاد حكومة منظمة الادارة فى الداخل عظيمة الفتوحات فى الخارج ، وتوصم بعد ترقى مائة عام بأنها عاجزة عن مثل ذلك .

ـ ما رأى سماحة السيد فى الجامعة الاسلامية بمناسبة ما زورته عجوز الجرائد الشمطاء (التيمس) على أنور بك وعزوها

(١) اشارة الى التصريحات الصحفية التى كان يدلى بها شوقى شاعر الخديو فى هذه الفترة وتتضمن رأى الخديو فى تعليق الدستور على الكفاءة .

اليه القول بانه « ليس للجامعة الاسلامية محل فى خطة لجنة الاتحاد والترقى » ؟ .

ــ ان رأيى فى الجامعة الاسلامية من قديم انها قسمان دينية وسياسية . فالجامعة الدينية موجودة لوجود روابطها وهى العقيدة الاسلامية أولا واخوة الاسلام ثانيا والقبلة التى تتجه اليها وجوه المسلمين مرارا فى كل يوم ثالثا . وأما السياسة وهى التى يعنيها الافرنج بلفظة "Panislamism" ، ويخشونها جد الخشية فغير موجودة لفقدان الرابطة فى كل أمر سياسى وتلك الرابطة هى « المصلحة » . وذلك لأن المسلمين ليس من مصلحتهم الآن أن يسعوا فى ايجاد جامعة اسلامية بهذا المعنى « اى اتفاق سياسى اسلامى مركزه الدولة العلية » لأنهم يعلمون أنهم لو فعلوا ذلك أوجدوا ازاءها بالطبع جامعة مسيحية أو جامعة وثنية شديدة الضرر عليهم (١) .

ان ما يلفت النظر فى هذا التصريح هو تأكيده أولا على جانب الدستور ، فمرحلة الحماسة الفياضة التى عاشتها الدول الاسلامية بعد اعلان الدستور العثمانى ، كان لابد أن يتردد صداها فى مثل هذا التصريح ، واذا كان البعض يعلق الدستور على وجود الكفاءة فهو تعليق على محال لأن الكفاءة التامة لا تتأتى الا بوجود الدستور أولا ، وايرادات الأمم محال أن يعوقها معوق أو يعطلها معطل ، فهى ان لم تعط لابد أن تؤخذ ، وكما أوجدت الثورة العرابيين ، تستطيع الثورة الجديدة أن توجد من هم أكفأ من العرابيين . انها دعوة صريحة الى الثورة لنيل الحقوق ، والى الاقتداء بالدولة العثمانية من أجل الدستور ، واشادة فى نفس الوقت بأبطال الوطنية وان كرههم الخديو مثل مصطفى كامل ، ثم دعوة صريحة الى بداية مرحلة

---

(١) اللواء ١٩٠٨/٩/١٠ ، ١٩٠٨/٩/٢٠ .

جديدة فى التفكير ، فلم تعد تكفى البرامج الحزبية الماضية التى تهادن من اجل المصلحة ، او تحارب بالخطب ، او تكتفى بجزء من الحق وتدع للمستقبل الباقى . ولكنه فى الوقت نفسه مؤمن بالجامعة الاسلامية ، مؤمن بها من قديم كما يقول ، فمنذ اعوام طويلة الف كتابه « المستقبل للاسلام » يؤكد فيه هذا الايمان ، ولكنه ايمان الجامعة من زاوية خاصة ، ايمان برابطة أشبه ما تكون بجامعة الدول العربية اليوم ، وهى لاشك خطوة مرحلية لها مبرراتها فى ذلك الوقت الذى كان فيه الاستعمار والدول الغربية تنظر الى الدعوة للجامعة الاسلامية نظرة مريبة ، وتسعى بكل جهدها الى تحطيمها . ولكن الصلات الموجودة بين الدول الاسلامية أقوى من أن تنمحى ، فلا بد اذن من تطوير هذه الصلات وتنظيمها والاستفادة منها .

ومن اجل هذا كانت له جهود عملية فى الدعوة الى المؤتمر الاسلامى الذى دعا اليه اسماعيل غصبرنسكى ، أحد مسلمى روسيا وصاحب جريدة « ترجمان » التركية ، حين قدم الى مصر أواخر عام ١٩٠٧ . ففى فندق كونتيننتال بالقاهرة اجتمع عدد كبير ممن رحبوا بفكرة المؤتمر ، وكان ذلك أول نوفمبر من نفس العام (١) ، والقى اسماعيل غصبرنسكى كلمة فى الجمع تحدث فيها عن وجوب تشخيص الداء لمعرفة الدواء ، فالأمم الاسلامية متخلفة ، بينما يسير ركب الحضارة الغربية مسرع الخطو « وكشف النقاب عن أسباب انحطاط الأمة الاسلامية لا يتيسر تيسرا كاملا لفرد أو فردين، بل لا مندوحة للبحث فى ذلك عن عقد مؤتمر اسلامى عام يجتمع فيه علماؤنا وفضلاؤنا ثم يتفاوضون فى الشئون الاسلامية » . ويتحفظ فى حديثه فيرى أن المؤتمر ينبغى أن يقصر جهوده على

(١) المؤيد ١٩٠٧/١١/٢ .

البحث فى الامور الاجتماعية والاقتصادية ، ويدع الأموز السياسية، حتى لا يفهم ان هدف المؤتمر الدعوة الى جامعة إسلامية سياسية.

ثم تحدث بعده الشيخ على يوسف ، فتناول فى كلمته تاريخ الدعـــوة الى المؤتمر ، منذ اوجده عبد الرحمن الكواكبى خيالا ، وحشد له فى ذهنه مندوبيه ، ورأى ان كتابه « أم القرى » خير دليل للمؤتمر الجديد ، ولم ينس « المستقبل للاسلام » الذى ألفه توفيق البكرى واهميته فى هذا المجال . فهذان هما المرجعان لكل مهتم بأحوال المسلمين الفلسفية والاجتماعية .

وعقب ذلك شكلت اللجنة التحضيرية للمؤتمر ، وقد ضمت عددا من الأعلام على رأسهم :

سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر الأسبق .

السيد توفيق البكرى نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية .

السيد على يوسف .

رفيق العظم .

وفى منزل السيد توفيق البكرى ، اجتمع نحو ستين من العلماء والأدباء ليلة الجمعة ١٩٠٧/١٢/١٤ وكانوا قد دعوا من قبل لهذا الاجتماع الذى خصص للنظر فى الدعوة الى المؤتمر الإسلامى العام ، وجرت مناقشات إستمرت أكثر من ساعتين ، وقرر المجتمعون أن تسمى اللجنة التحضيرية لجنة تأسيسية وإن تضع اللجنة مشروعا للمؤتمر على أن تجتمع بعد ذلك للبدء فى عملها ، بمنزل السيد توفيق البكرى بالخرنفش (١) . ولم تلبث اللجنة التأسيسية أن وضعت

---

(١) المؤيد ١٩٠٧/١١/١٦ .

قانونا للمؤتمر (١) ، طبعته وارسلته مع دعوة عامة مطبوعة بالعربية والتركية والفارسية الى الجرائد الاسلامية فى كافة الاقطار . وتناول القانون « موضوع المؤتمر » ولخصه فى ثلاثة أمور :

١ — البحث فى الاسباب التى أوجبت تأخر المسلمين من الوجهة الاجتماعية ومما داخل الدين من البدع ، والنظر فى ازالة تلك الأسباب . وفيما يؤدى الى رقيهم .

٢ — لا تقبل الآراء التى تعرض من الوجهة الدينية الا اذا كان لها سند من الكتاب او السنة او الاجماع أو القياس

٣ — لا يجوز التعرض فى مناقشات المؤتمر وأبحاثه للمسائل السياسية أيا كان نوعها .

وفى نهاية الجلسة انتخب السيد توفيق البكرى وكيلا للمؤتمر ، وتتبعت الصحف أنباء المؤتمر ، وارسلت جريدة « المؤيد » مندوبها الى السيد البكرى تستطلع رأيه فيه ، وطلعت على قرائها بهـذا الحديث الذى يبين فيه وجهة نظره فى أحوال الأمة الاسلامية .

« نتمثل محدثنا على احد مقاعد تلك القاعة الكبرى الفخيمة المفروشة بانفس الطنافس والمذهبة السقوف والجدران ، نحيف الجسم ضئيله كانما الدرس والبحث قد اطفآ فيه جذوة الشباب واشعلاها فى عينيه البراقتين اللتين تحدثانك قبل لسانه عن علم واسع واطلاع كبير حتى انه لا يكاد يبدى رأيا دون أن يؤيده بقول فيلسوف كبير أو عالم اوربى أو شرقي شهير ولا يكاد ينتهى من احدوثته عن امر حتى يرد على لسانه ذكر امر آخر ، وذلك دليل على كثرة اطلاعه وشديد انقطاعه الى البحث والاستقصاء ، بل لا يزوره زائر حتى يجده فى تلك المكتبة الى جانب القاعة الكبري بين المحابر والدفاتر . قال لنا سماحته عن المؤتمر الاسلامى انه

(١) راجع المنار أول مايو ١٩٠٨ .

مؤتمر اجتماعى لا سياسة فيه ولا شبه سياسة ، واذا لم يكن له من فائدة سوى تعارف الاختصاصيين بأدواء الأمة ، لأن الاختصاصيين بهذه الأدواء سيدعون للبحث فيه ، لكانت لنا منه نتيجة عظيمة كنتيجة سائر المؤتمرات طبية وعلمية وزراعية . والأمة الاسلامية مقيدة بدينها ، فلا يسوغ أن تترك الدين جانبا ، فهى ليست مقيدة بعقلها فقط .. وقد أوضح لنا التاريخ أن هذا الدين موافق للترقى بل هو بنفسه مرق للأمم التى تدين به بدليل أنه ظهر فى أمة كانت متفرقة فوحدها ، وجاهلة فعلمها ، وفقيرة فأغناها ، وضعيفة فملكها معظم المعمور . فاذا كنا قد رأينا بعد فعله هذا انحطاطا بين المسلمين فلابد أن يكون ذلك لعوارض أخرى دخلت عليهم باسم الدين وهى ليست منه ..

« أما الجامعة الاسلامية فهى قسمان : دينية وسياسية ، فالسياسة التى يعنيها الافرنج بلفظة بانسلافيرم غير موجودة ، أما الجامعة الدينية فهى موجودة .. والتعصب الدينى بمعنى التحمس الى آخر درجة النفع للذات وأول درجات الضرر للغير فهو موجود ، وأما التعصب الذى يصل الى الاضرار فهو غير موجود فى تاريخ الأمة الاسلامية بحمد الله ، ولكنه وقع بأفظع حالة فى العالم الوثنى حيث قرضوا المسيحيين ومرسليهم مرارا ، وأحسن الصور المنصوبة فى الفاتيكان مقر البابا ، صور المسيحيين الذين قتلهم الوثنيون على أشكال فظيعة تقشعر لها الأبدان .. » (١) .

ولم يلبث اسماعيل غصبرنسكى أن رحل الى الآستانة ، والحقيقة أنه كان شخصية مريبة ، ففى أول حديث له عن المؤتمر بمصر يلح على ذكر التمدن الغربى ووجوب اللحاق به ، ثم ها هو ذا يترك المؤتمر ويرحل الى الآستانة ، وهناك ينشر فى جريدته (ترجمان

---

(١) المؤيد ١٩٠٧/١١/٢٤ .

أحوال زمان) « أن أحد أذكياء الترك يريد أن يلقى فى المؤتمر خطابا يبين فيه أن ارتقاء أمة الترك يتوقف على انفصالها من العربية لغة ودينا وسياسة » (١) . ثم يعود فيصرح بأن المؤتمر ينبغى أن ينعقد فى الآستانة لا فى مصر وكان ذلك بعد نفى السلطان عبد الحميد (٢) . وتتوالى الأحداث بعد ذلك مؤذنة بانهيار الفكرة (٣) وتفرق الدعاة ، وبذلك يسدل الستار .

---

(١) المنار ١٩٠٨/٥/١ .

(٢) المؤيد ١٩٠٩/٨/٢٥ .

(٣) كان المنفلوطى قد هاجم المؤتمر وهو يائس من نجاحه بسبب أحوال المسلمين أنفسهم ، وذلك فى المؤيد ١٩٠٨/١١/٢٨ .

بين البكرى وبين الخديوى

لا شك أن صلة الزمالة أيام الدراسه لم تكن قد انمحت من ذاكرتى عباس باشا والسيد توفيق البكرى عندما تولى عباس الخديوية ، وكان البكرى هو المرشح للمناصب الموروثة فى بيته بعد وفاة أخيه الأكبر ، فولاه عباس المشيخة البكرية ومشيخة المشايخ الصوفية ونقابة الأشراف ، وعينه بعد شهور عضوا دائما فى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية . ثم لم يلبث أن أنعم عليه فى نفس العام — عام ١٨٩٢ — بكسوة التشريف من الدرجة الأولى وبالنيشان المجيدى كما ذكرنا . ولكن الأحداث السياسية لم تلبث ايضا ان فرقت بينهما ثم جمعتهما لتفرقهما بعد حين فرقة أبدية .

والواقع أن عباسا كان محور الحياة السياسية والوطنية فى ذلك الوقت ، فقد تولى الحكم وهو شاب صغير ، وكان واسع الامل يريد أن يكون ملكا حقيقيا لا دمية فى يد الاحتلال . وكان مصريا فى روحه كما حكم عليه كرومر فى لقائهما الأول (١) ، ومن هنا بدأت الأمة تتجرأ على مناهضة الاحتلال .

كان دائما ينعى على أبيه ضعفه واستسلامه للاحتلال ، ولذلك كان أول ما فكر فيه عندما تولى الحكم أن يغير رجال حاشيته الذين ورثهم عن أبيه ، والذين ألفوا أن يذلوا أنفسهم أمام المستعمرين .

---

(١) عباس الثانى ص ٢١ وما بعدها .

بدأ عباس حكمه شديد الرغبة فى التودد الى الشعب ، يستقبل طوائفهم المختلفة مرتين كل شهر ، ويصدر عفوه عن عدد كثير ممن اشتركوا فى الثورة العرابية فى السنة الأولى لحكمه ، ويرد اليهم رتبهم وشاراتهم ويعيدهم للخدمة . وهو يستعرض الجيش المصرى مرتين فى ذلك العام ، ويحيى شهر رمضان بتلاوة القرآن والاستماع الى تفسيره مع رجال حاشيته . وهو يطالب بخروج الجيش الانجليزى من القلعة ، ويتصل بالمديرين مباشرة دون الرجوع إلى كرومر كما جرت عادة والده من قبل . وقد نجح نجاحا مؤكدا فى بث شعور الكراهية للانجليز فى قلوب المصريين ، ولذلك لم يكن عجيبا أن يلتف المصريون حوله ، وقد أقر كرومر بنفوذ عباس وقدرته على تكتيل الشعب المصرى ، واعترف بزعامته حين قال ان المبادىء قد بدأت فى الظهور تحت اسم جديد هو لقب (الخديوية) ، والى ذلك اشار خطباء العصر وكتابه (١) .

كان يشجع مصطفى كامل على اصدار صحفه المختلفة وتأسيس الحزب الوطنى ، ثم أمده بالنفوذ وبالمال ، وكان يحاول أن يجمع حوله ضباط الجيش وان يحثهم على عدم الاستسلام والخضوع لرؤسائهم الانجليز ، وكان يحث الموظفين على الاحتفاظ بكرامتهم والتمسك بحقوقهم واختصاصاتهم ازاء رؤسائهم من ممثلى الاستعمار البريطانى . وكان يعرض عن الذين يتوددون الى الانجليز ، ويبدى عداء صريحا لكل من يلوذ بهم ، ويسىء استقبالهم فى القصر فى مختلف المناسبات . ومن أجل ذلك كله لم يكن هناك مفر من اصطدام عباس بكرومر ممثل الاحتلال . وبدأ أول صدام حين عزل الخديو رئيس وزرائه مصطفى فهمى وكان من أوثق الناس صلة بالانجليز ، ثم عين بدلا منه حسين فخرى وطلب اليه تشكيل

---

(١) الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها .

الوزارة مكتفيا بابلاغ كرومر بما تم ، فأصدر كرومر أمره الى الموظفين البريطانيين بأن لا يعترفوا بالوزارة الجديدة ، ووجد الخديو الشاب نفسه وحيدا أمام السياسي العجوز ، فالكتلة الشعبية لم تتجاوز قوتها فى ذلك الوقت التأييد المعنوى ، وقنصلا فرنسا وروسيا اللذان كانا يشجعانه قد تخليا عنه ، وكانت النتيجة الوصول الى حل مقبول من الطرفين ، وهو أن يتولى **مصطفى رياض** الوزارة الجديدة .

وظن كرومر أنه لقن الخديو درسا ، وكان يتوقع أن يجد فى رياض — عدو المبادىء العرابية القديم — عونا على ترويض عباس ، ولكن رياضا انقلب مؤازرا الخديو ، فمنع الموظفين الانجليز ممن جرت العادة أن يحضروا مجلس الوزراء من حضوره ، وقرر أن تكون العربية هى لغة التعليم فى المدارس الاميرية ، بعد أن كانت معظم الدروس تلقى بالانجليزية ، وكثر الصدام بين الموظفين المصريين والانجليز ، وتشجعت الصحف الوطنية على مهاجمة الاستعمار .

لذلك لم يمض على تلك الأزمة عام حتى تصيد كرومر فرصة أخرى لتوجيه لطمة جديدة قوية الى عباس ، حين وجد الفرصة مواتية فى حادثة تافهة ، احتك فيها **الخديو بكتشنر** — سردار الجيش وقتذاك ، فبادر كرومر الى الاتصال برياض يطلب تقديم اعتذار رسمى من الخديو ينشر فى الصحيفة الرسمية ، ويهدد بخلعه .

واسرع رياض الى مقابلة عباس فى جرجا — وكان فى رحلة الى الحدود — قبل عودته الى القاهرة ، وقد ملأ الرعب قلبه ، وأقنعه بقبول شروط كرومر ، فلم يجد الخديو بدا من قبولها ، وكانت هذه الحادثة ضربة قاضية لنفوذ عباس فى الجيش . وقد استنكرت الصحف فى ذلك الوقت موقف رياض من الخديو بمساعدته الانجليز على املاء شروطهم واذلال عباس .

ولم يدم الحال على ذلك طويلا ، فقد تضعضع عباس بعد هاتين اللطمتين ، ولم يدر ماذا يصنع ، فالجيش والشرطة ـ على ضآلتهما وضعفهما فى ذلك الوقت ـ فى يد كرومر ، وهؤلاء الذين اصطفاهم مثل مصطفى كامل وعلى يوسف لا تتجاوز وسائلهم الخطب والمقالات ، وبعض كبار المصريين قد بدأوا يسرعون الى موكب الظافر ، مثلما حدث مع حسين فخرى الذى رشحه عباس لرئاسة الوزارة من قبل ، فقد أدلى بتصريحه السابق الذى استخذى فيه أمام الاستعمار ورآه أهون من غيره ، ومثلما حدث عندما انضوى ماهر باشا وكيل الحربية تحت لواء كرومر مستيئسا من مقاومته ، وكان من ألد أعدائه من قبل ، وكما حدث أخيرا عندما أخذ رياض يتزلف الى الاستعمار بعد أن أقاله عباس من رئاسة الوزارة عقب حادث الحدود .

بدأ لعباس بصيص ضئيل من الأمل يشع من باب الخليفة ، فتتبعه وطرق باب السلطان عبد الحميد ، يرجو أن يجد عنده الملجأ من كرومر . وكان عبد الحميد غارقا فى متاعبه الخاصة ، وهو نفسه عاجز عن مقاومة الدول الأوربية فكيف يدفع الضر عن غيره ؟ واخذ كرومر يرقب رحلات عباس الى الآستانة ، وعلى فمه ابتسامة ساخرة . وتتابعت رحلات عباس الى الآستانة عام ١٨٩٣ ، ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ ، ثم انقطعت حين نصح السلطان للخديو أن يثق بفعل الزمن ، وحين بدأت صلته بالسلطان تفسد بعد مكائد الأمير حليم الصدر الأعظم ، الذى كان طامعا فى عرش مصر (١) ، فقد التقى عباس فى الآستانة بجمال الدين الأفغانى ، وأفزع ذلك السلطان ، وجسم له الصدر الأعظم شبح الخوف ، فسأله السلطان فى غضب « أتريد أن تجعلها عباسية ؟ » (٢) .

---

(١) الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ١٥٧ وما بعدها .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم ١ ص ١١٣ .

وتكاد ترتبط صلة الخديو بالسلطان قوة وضعفا بصلة توفيق البكرى بالخديو، ففى عام ١٨٩٥ استعفى توفيق البكرى من نقابة الأشراف، وفى ذلك يقول: «إنى لما كنت رئيسا للجنة الميزانية في مجلس شورى القوانين طلبت أن يرتب للأزهر مبلغ من المال ثم سعيت حتى رتب له ألفا جنيه، ولم يكن لى غرض فى ذلك إلا مساعدة العلماء، وهم أولى الناس بالمساعدة والمعاونة، فوشى بعض أعدائى لدى الجناب الخديوى وزعم أن لى فى ذلك مقصدا سياسيا، فتغير خاطره... وقد أذكرتنى هذه الحادثة حادثة الشريف الرضى فى استقالته من نقابة الأشراف ببغداد سنة ٣٨٤ هجرية لتشابههما فى الظروف والأحوال». وقد ذكر الشريف استقالته فى قصيدة لامية حيث قال:

وما حط الأعادى لى محلا
ولكن حط عنى الدهر ثقلا

فإن أخذوا الأقل من المعالى
فقد تركوا من الصون الأجلا

بمجد طال ما شمرت فيها
فدونك فاسحب الذيل الرفلا (١)

ولكن ما هو هذا المقصد السياسي؟ أكان الخديو يخشى من البكرى ما خشيه السلطان من الخديو؟ أكبر الظن أن طموح البكرى كان قد بلغ أوجه، وكانت الدلائل كلها تدعو الخديو الى أن يتخذ منه موقفا، فمنزلته من السلطان منزلة الابن، بل لقد قال له السلطان عند الانصراف من زيارته: «لقد صرت من الآن ابنى» (٢) ولم يقلها للخديو، ومنحه من الأوسمة ما لم يمنحها لمصرى. وهذا

---

(١) بيت الصديق ص ١٦١

(٢) شعراء العصر جـ ١ ص ٤

الزهو الذي يملكه ، في أول قصيدة يمدح بها الخديو ، يبدؤها بهذا الفخر الذي يخلي الشكوك ويلغي الظنون :

وأني من البيت الذي تعامينه ... أقام عمود الدين لما تأودا
وأول هذا الأمر نحو أسبابه ... وآخره حتى يكون كما بدا (١)

ألا يدعو هذا الى الارتياب ؟ لقد كان أبو بكر أول أمراء المسلمين بعد الرسول ، فما معنى ان يعود الأمر الى البيت البكري ؟ أليس في هذا دليل على أن « في رأسه عقل طامح أخطر الطموح ، يسبح في أجواء مصر وتركيا ؟ » (٢) ثم ها هو ذا يبغي أن يكتسب الى صفه أكبر هيئة دينية في مصر ، حين يدعو الى الاصلاح المادي للأزهر .
وهكذا فترت الصلة بين الخديو عباس وبين السيد توفيق البكري .
والواقع أن « عباسا » استطاع في أول حكمه ان يضم الى صفه عددا من ضباط الجيش وكثرة من المواطنين ولكنه لم يلبث أن خسرهم حين استيقنوا ضعفه أمام الانجليز ، فمنذ اضطره كرومر الى الاعتذار لكتشنر . وحين كان عباس يخسر الأصدقاء والأولياء كان الانجليز يجدون في اصطناع الأصدقاء والأولياء ويسرعون الى احتضان كل خصم له ، مظهرين انفسهم في صورة المدافعين عن الحرية والعدل ، المقاومين للظلم والطغيان ، فكسبوا الى جانبهم العمد والمشايخ بتأييدهم في التخلص من نفوذ الباشوات وكبار الملاك . ونجح كرومر في عقد صلات ود مع كثير من رجال الدين مثل شيخ الأزهر والمفتي وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ، لعلمه بقوة نفوذهم الشعبي وبحرص عباس على اصطفائهم والاستعانة بنفوذهم (٣) .

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٦٦ .
(٢) صاحب صهاريج اللؤلؤ لزكي مبارك (البلاغ ١٩٣٢/٨/١٩) .
(٣) الاتجاهات الوطنية ص ١٩٢/١٩٣

والواقع أن كرومر كان يهتم بعقد هذه الصلات مع رجال الدين على وجه الخصوص لسبب آخر يضاف الى المبررات السابقة ، فهو يهدف الى ابعاد الشبهة عنه فى تعصبه ضد الاســـلام ، وهو يهدف بعد ذلك الى تمكين هؤلاء من عملية التطوير التى يمكن ان يقوموا بها حتى ينفسح المجال أمام الحضارة الغربية لتثبيت أقدامها دون مقاومة . ولعله راى ايضا ان الســـيد توفيق البكرى ورقة رابحة يمكن أن يلعب بها ضد الخديو فى وقت من الأوقات . وهذا أكثر ما كان يفزع الخديو ، فهو لا ينسى أن كرومر هدده بالخلع منذ حين ، وهو يدرك أن « محمد عبده » لا يحظى بتأييد كل الهيئات الدينية كالأزهر مثلا ، من أجل محاولاته للتطوير ، ولكنه يدرك ايضا أن السيد توفيق البكرى يحظى بهذا التأييد ، ومن أجل هذا كان لابد أن يوقع بينهما مهما كلفه الأمر ، حين تسنح الفرصة ، خاصة بعد أن ترامى اليه ما يتحدث به كرومر عن البكرى فى موضـــع الاعجاب الشديد بشخصيته « كان يقتبس فى محادثتى عن حقوق الانسان آراء جان جاك روسو وذلك بلغة فرنساوية بليغة . ومتى جاء بالآراء الضعيفة بيانا لمزايا الحكومة النيابية وسألنى أن اعيره بعض كتب ليستفيد منها (فلسفة الثورة الفرنسية) عند ذلك سألت نفسى عما اذا كنت فى يقظة انا أم فى منام ، وكان هذا الشيخ المصرى الجامع بين مكة من جهة وباريس من جهة أخرى ، آخر ما انتجه الاسلام فى رقيه » (١) .

يقول العقاد :

« وكان على حذر دائم من الخديو عباس لأنه — فى ذكائه واطلاعه على ما وراء الستار ومصاحبته لعباس منذ أيام الدراسة — **لا يجهل سياســـة البيت العلوى من جميع البيوتات** التى اشتركت قديما

---

(١) المؤيد ١٠ مارس ١٩٠٨ (كتاب كرومر) .

وحديثا فى خلع الولاة وتنصيبهم بمراجعة الباب العالى فى الآستانة وأولها بيت البكرى العريق . وسياسة عباس لم يكن بها جفاء نحو جميع البيوتات ذوات الرئاسة الدينية ، فانه كان يحاول جهده أن يحل فيها أشياعه ومريديه ، وينحى عنها الأقوياء من أبنائها ذوى الشخصيات الملحوظة فى الدوائر العليا ، واحذر ما كان يحـــذره أولئك الذين تتصل العلاقة بينهم وبين كبار الأجانب من السفراء ووكلاء الدول ، ولم يكن أقرب الى هذه الأوساط من السيد توفيق البكرى لمعرفته باللغات الأجنبية ونشوئه نشأة الأمراء فى المعـــاهد الأوربية . ومن يدرى ؟ . . »(١) .

كل هذا كان يحدث عام ١٨٩٦ ، فاذا ما أقبل العام الجديد ، تأزم الموقف تأزما خطيرا بين البكرى وبين الخديو . ففى الوقت الذى كان السيد توفيق البكرى يمدح السلطان بعد الانتصـــار فى الحرب اليونانية بقصيدته :

أمـــا ويمين الله حلفـــة مقســـم
لقد قمت بالاسلام عن كل مسلم . . .

له فى الأعـــادى حمـــلة يعرفونها
واكبر منهـــا حمـــلة فى التكرم

عطايا تغلنـــاها لاعظـــام قدرها
أمـــانى نفس أو رؤى من مهوم(٢)

فقرأها السيد أبو الهدى الصيادى أمام الخليفة فى محفل كبير ، وقوبلت بالاستحسان ، ثم أصدر الخليفة أمره بحفظها فى المكتبة السنية (٣) ، ولم يلبث السلطان أن أنعم عليه بميداليتى الا -ماز

(١) المجلة يناير ١٩٦٣ (وراء التراجم والسير للعقاد) .
(٢) صهاريج اللؤلؤ .
(٣) شعراء العصر جـ ١ ص ١٩٥/١٩٦ .

الذهبية والفضية (١) . في هذا الوقت نفسه تنشر « الصاعقة » لصاحبها أحمد فؤاد في ٧ نوفمبر من نفس العام قصيدة هجاء في الخديو مطلعها :

قدوم ولكن لا أقــــول ســــعيد
وملك وإن طال المــدى سيبيد (٢)

يذكــرنا مــرآك أيـــام انزلت
علينا خطوب من جـدودك ســود

رمتنا بكم مقـــدونيا فاصـــابنا
ســــهام بلاء وقعهن شـــــديد

فلمـــا توليتــم طغيتــم وهكذا
اذا أصبح القــولى وهو عميــد

أعباس ترجو أن تكون خليفـــة
كما ود آبـــاء ورام جـــدود

فيا ليت دنيـــانا تزول وليتنــا
نكون ببطن الأرض حين تســود

وقد ثبت من تحقيق النيابة أن المفلوطي هو ناسخ القصيدة بناء على تكليف من السيد توفيق البكري ، يقول العقاد : « والذى لا نشك فيه أن القصيدة كانت من نظم البكرى مع مشاركة قليلة للمنفلوطي في بعض أبياتها لأن المناظرة بالآباء والأجداد والمقابلة بين

---

(١) بيت الصديق ص ١٦

(٢) الشوقيات المجهولة جـ ٢ ص ١١٤ (راجع أيضا المؤيد ١٨٩٧/١٢/٢٧ ، مذكراتي في نصف قرن جـ ٢ قسم ١ ص ٢٣٨) .

وقد حاول شوقي شاعر الخديو أن يرضى أميره فعدل في المطلع قائلا :

قــدوم ولــكني اقــول ســـــعيد . . . وملك وإن طـــال المدى سيزيد

الدخيل (القولى) والأصيل (البكرى) تخطر لسليل بيت الصديق ولا تخطر للمنفلوطى »(١) .

ولم يلبث كرومر ان تدخل فى الأمر فعزل النائب العام المصرى لأنه رفض تغيير المحقق ، ووضع مكانه محقق بريطانى ، وهكذا خرج السيد توفيق البكرى من التهمة ، فصدر حكم محكمة السيدة زينب فى ١٤ نوفمبر بادانة احمد فؤاد ومصطفى لطفى المنفلوطى (٢) . فازداد الخديو تصميما على الدس بين كرومر وبين السيد توفيق البكرى ، مستعينا على ذلك بدهائه المعروف ، وبجهود أحد أتباعه المقربين اليـــه فى ذلك الوقت وهو حفنى ناصف ، حتى تمكن من الايقاع بينهما .

فذهب حفنى ناصف الى السيد توفيق البكرى وناقشه فى الادب وطلب اليه أن يترك الشعر لأنه ليس من عمله وانما هو من عمل من اشتهروا به وتفوقوا فيه ، ففضب البكرى وتحداه ان ينظم كل منهما لساعته قصيدة ثم يلجآن الى حكم يفاضل بينهما وقبل حفنى ناصف ولكنه اشترط الا تكون فى غرض من الأغراض المتواترة ثم اقترح ان تكون فى الفزل بالمذكر ووافق البكرى . وقرأ حفنى ناصف قصيدة البكرى ثم اعترف له بالتفـــوق ، ومزق قصيدته هو موهما البكرى انه مزق القصيدتين ، ولكنه احتفظ بقصيدة السيد توفيق حتى أوصلها للخديو ، وهذا بدوره أوصلها الى كرومر ، فكانت آخر العهد بين كرومر وبين البكرى فلم يزره فى احتفال من الاحتفالات الرسمية التى اعتاد أن يزوره فيها فى بيته بالخرنفش بعد ذلك (٣) .

---

(١) المجلة يناير ١٩٦٢ (وراء التراجم والسير كما عرفناها للعقاد) .
(٢) الشوقيات المجهولة ج ٢ ص ١١٤ .
(٣) المجلة يناير ١٩٦٣ (وراء التراجم والسير كما عرفناها للعقاد) .

من اجل ذلك فترت صلة البكرى بحفني ناصف بعد أن وقف على تفاصيل الحادث ، وسجل حفني ناصف مظاهر هذا الفتور في رسالة وجهها للبكرى يقول فيها : « كتابى الى السيد السند ولا اجشمه الجواب عنه ، فذلك ما لا انتظره منه ، وانما اسأله أن ينشط الى قراءته ، ويتنزل الى مطالعته ، وله الرأى بعد ذلك أن يحاسب نفسه او يزكيها ، ويحكم عليها او لها .

فقد تنفع الذكرى اذا كان هجرهم
دلالا فأما ان ملالا فلا نفعا

زرت السيد ويعلم الله أن شوقي الى لقائه ، كحرص على بقائه ، وكلفي بشهوده ، كشغفي بوجوده ، فقد بعد والله عهد هذا التلاق ، وطال أمد الفراق ، وتصرم الزمان ، وأنا من رؤيته فى حرمان ، فسألت عنه فقيل لى انه خرج لتشييع زائر ، وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ، ولم ازل أعد اللحظات ، وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج صحن الدار ، وظهر الاستبشار ، على وجوه الزوار ، وجاء السيد فى موكبه ، وجلال محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهينمنا بكماله ، فمن يتعرف وجوه القوم حتى حاذانى ، وكبر على عينه أن ترانى ، فغادرنى ومن على يسارى ، واخذ فى السلام على جارى ، وجز السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وانا فى هذه الحال أوهم جارى ، انى فى دارى ، وأظهر للناس أن شدة الألفة ، تسقط الكلفة ، ومر السيد بعد ذلك من أمامى ثلاث مرات ، ومن الغريب أنه لم يستدرك ما فات :

تمرون الديار ولم تعوجوا
كلامكم على اذن حرام

وكنت اظن ان مكانتى عند السيد لا تنكر ، وأن عهدى لديه لا يخفر ، فاذا انا لست فى العير ولا فى النفير ، وغيرى عند السيد كثير ، وذهاب صاحب او أكثر عليه يسير .

ومن مدت العليا اليه يمينها · فأكبر انسان لديه صغير.

ولا أدعي أني أوازي السيد صانه الله في علو حسبه . او ادانيه في علمه وأدبه ، أو أقاربه في مناصبه ورتبه .. أو أكاثره في فضته وذهبه ، وانما اقول ينبغي للسيد أن يميز بين من يزوره لسماع الأغاني والأذكار . وشهود الأواني على مائدة الافطار . وبين من يزوره للسلام . وتأييد جامعة الإسلام . وأن يفرق بين من يتردد عليه استخلاصا للخلاص ، ومن يتردد اجابة لدعوة الاخلاص . وأن لا يشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد . وقناص الشوارد بنقباء الموالد . ورواد الطرف . بأرباب الحرف .

فما كل من لقيت صاحب حاجة
ولا كل من قابلت سائلك العرفا

فان حسن عند السيد ان يغضي عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يغضي عن جميع الناس ، والا فلماذا يطوف على بعض الضيوف . ويحييهم بصنوف من المعروف . ويتخطى الرقاب « لصروف » . ويخترق لأجله الصفوف . فان زعم السيد أنه أعلم بتصريف الأقلام. فليس بأقدم هجرة في الاسلام . وان رأى أنه أقدر مني على اطرائه . فليس بممكن ان يتخذه من أوليائه .

ولا أروم بحمد الله منزلة
غيري احق بها مني اذا راما

وانما أصون نفسي عن المهانة والضعة . ولا أعرضها للضيق وفي الدنيا سعة .

واكرم نفسي انني ان اهنتها
وحقك لم تكرم على احد بعدي

فلا يصعر السيد من خده . فقد رضيت بما الزمني من بعده .

ولا يغض من عينه ، فهذا فراق بينى وبينه ، وليتخذنى صاحبا من بعيد ، ولا يكلمنى الى يوم الوعيد .

كلانا غنى عن أخيـــه حياته ونحن اذا متنا اشـــد تغانيا

ومنى على السيد السلام على الدوام ، ومبارك اذا لبس جديدا ، وكل عام وهو بخير اذا استقبل عيدا ، ومرحى اذا اصاب ، وشيعته السلامة اذا غاب ، وقدوما مباركا اذا آب ، وبالرفاء والبنين اذا أعرس ، وبالطالع المسعود اذا انجب ، ورحمة الله اذا عطس ، ونوم العافية اذا نعس ، وصح نومه اذا استيقظ ، وهنيئا اذا شرب ، وما شاء الله كان اذا ركب ، ونعم صباحه اذا انفجر الفجر ، وسعد مساؤه اذا اذن العصر ، وبخ بخ اذا نثر ، ولا فض فوه اذا شعر ، وأجاد وأفاد اذا خطب ، واطرب واغرب اذا كتب ، واذا حج البيت فحجا مبرورا ، واذا شيع جنازتى فسعيا مشكورا ، والسلام »(١) .

ولم يستمر الحال على هذا طويلا ، فصلة البكرى بالسلطان تقوى يوما بعد يوم ، وفى عام ١٩٠٠ انعم عليه بميدالية الليـــاقة الذهبية ، وعلى والدته بنشان الشفقة المرصع من الدرجة الاولى(٢)، وصلة الخديو بالسلطان لم تستمر فاترة مـــدة طويلة ، فما لبث الخديو أن زار الآستانة عام ١٩٠١ ، وعاد راضيا عن البكرى ، ومدح البكرى مهنئا بعيد جلوسه ، وكانت قد ألفت لجنة للتحكيم فى قصائد المديح ، فنالت قصيدة البكرى المدالية الذهبية الأولى(٣) . والواقع أن الخديو كان قد سعى فى التقارب بينه وبين البكرى منذ بداية هذا العام حين فكر فى دسائس الشيخ ابى الهدى الصيادى له عند الخليفة ، ولم يكن هناك من يقوى على توطيد الصـــلة بين

(١) جواهر الادب ص ١٠٦ وما بعدها .

(٢) بيت الصديق ص ١٧ .

(٣) صهاريج اللؤلؤ ص ١٧٢ .

الخديو وبين أبى الهدى الصيادى سوى توفيق البكرى ، وقبل البكرى أن يقوم بالمهمة ، فأرسل لأبى الهدى الصيادى كتابا مع حسين زكى الموظف بالقصر يقول فيه : « صاحب السماحة والسيادة الوالد الأعظم أدام الله بقاه ، ان الأمر هنا جميعه على ما يسر سيدى حفاوة به ودعاء له .. وان حامل هذا الى سيدى حضرة حسين زكى بك ، مرسل من قبل الجناب الأسمى والملاذ الأعظم ، فليعتمد عليه سيدى فيما ينقله اليه من ذلك المقام ، والأمل فى تلك الهمم الهاشمية والذمم الأحمدية ، أن تحقق كل ما يسر ويذكر ، ويؤثر بالشكر - أدام الله مجدها وأبقاها » (١) .

ولكن الخديو كان قد بدأ يجيد فن المكائد ، فعندما وصل الى مصر صديق الشيخ أبى الهدى وهو شاب صغير اسمه شكيب ، ظن الخديو انه يستطيع الوصول عن طريق شكيب الى كثير من أسرار الشيخ أبى الهدى التى تجعله يطأطىء رأسه ــ لأن العلاقة بين الشيخ وبين شكيب كانت موضع شبهات ــ وكلف الخديو البكرى وابراهيم المويلحى بالاهتمام بأمر هذا الشاب ، وبلغ ذلك أبا الهدى فغضب على البكرى والمويلحى معا ، وأسرع المويلحى يكتب لأبى الهدى ملقيا التهم يمينا ويسارا بعيدا عنه ، ولكنه فى نفس الوقت أوضح فى خطابه كثيرا من الخفايا حين يقول : « أرى أن سيدى متغير الخاطر على لأجل مسألة شكيب ولا أعلم ما السبب . والحال أنه بمجرد وصول التلغراف بقدومه .. أمرنى الخديو بأخذه مع كافة أمتعته من المحل الذى هو فيه الى لوكاندة الجزيرة ودفع عنه الأجرة وهو يقيم على نفقته وله عربة مخصصة للفسحة ، وجماعة سموه تتردد اليه كل يوم .. وأمر المنافق البكرى بكفالته وله معه خلوات مخصوصة وأتباعه وحشمه تقف حرسا ، ولا أعلم

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم ١ ص ٣٥٠ .

ما أقول غير أن سوء حظ الأصدقاء يجعلهم محل الشبهات وهدف الأخطاء .. وسموه ظن أن عند شكيب مفتاح الكنوز من أسراركم ومن أسرار السراى .. » (١) .

وأرسل البكرى للشيخ أبى الهدى يأسف لعدم ثقته به ، ويتنصل من اتهامه له ويعيب عليه جفوته فى خطاب يقول فيه : « بعد تقبيل يدكم الكريمة ، فان لى كلاما ان كتمته أمرضنى فلا بد ان اذكره ليعلم سيدى انى عانيت كل صعب فى سبيل اخلاصى له منذ عشر سنوات ، فكيف يجوز أن يكون الجزاء على ذلك ارسال مكاتيبى الخصوصية الى عزيز مصر .. والى القاء الشبهة على وعلى غيرى ثم نسبتى بعد ذلك الى التزوير .. وما كنت أتخيل هذا ، ولكن قام عليـــه البرهان ، ولا غرو أن يكون ذلك وأكثر ما دام للوشايات من عثمان بدرخان وأمثاله قبول لديكم واستحســـان منكم . على أننا لم نقصر يعلم الله مع احد من المنسوبين اليكم فقد قمنا لعثمان بما رفه حاله ورغد عيشه ولكن قابل الاحسان الذى عملناه لأجلكم بالكفران ولولاكم لم يجد ما يسره فى مصر . وانى لأنظر الى هذه الأعمال وما تؤدى اليه كل يوم من فساد وما أصلحناه من الحال ، وما كنا نؤمله فى الاستقبال فيأخذنى الأسف العظيم » (٢) .

واتصل البكرى بالخديو منذ ذلك الحين ، وقويت صلته به ، واستعان به « عباس » مرة ثانية عندما اختلف مع كرومر حـــول مشروع « صناديق التوفير » . فهو فى نظـــر اللورد كرومر يمنع السرقات لأن ادخار الناس بالمنازل يغرى السـارقين ، فينبغى التوسع فى المشروع ، وعارض الخديو فى اجتماع مجلس النظار ، لأن المشروع لم يستوف صيغته الشرعية ، والناس تعتبر الفائدة

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥١ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٥٢ .

من الوبا . نغضب كرومر للاعتراض . ورأى الخديو أن يدعم مركزه بالاسناد الى حجة فى الدين . فدعا البكرى واتفق معه على وضع مشروع جديد . وفعـــــلا أتم البكرى المشروع المقترح وقدمه للخـــديو (١) .

كان ذلك عام ١٩٠٣ . وفى هذه السنة نفسها أعاد اليه الخديو نقابة الأشراف (٢) . واخلص للخديو ايما اخلاص . ووالاه ولاء ضحى فيه بصداقته للأستاذ الامام محمد عبده وتقديره له واعترافه بفضله . « وكان الخديو قد غضب على الشيخ محمد عبده لصلته بكرومر ولأنه عصى بعض اوامره الخاصة باطلاق يده فى الأزهر . فأوحى البكرى الى الخديو بحمل بعض اعضاء مجلس ادارة الأزهر على الاستقالة لتكوين حزب قوى ضد الشيخ محمد عبده بدل المستقيلين »(٣) . يقول صاحب « مذكراتى فى نصف قرن » : « ولم يفلح البكرى فى مهمته فالقى التبعة أمام الخديو على شيخ الأزهر . وقد استغربت حينما حادثنى سموه فى الأمر وردد أمامى كلمة (جربوت) وصفا للشيخ وهى الكلمة التى قالها البكرى . فكان الخديو يردد حتى الفاظه لا افكاره فقط »(٤) .

وقد بعث البكرى الى الخديو برسالة أوضح فيها أسباب فشله فى المهمة قال فيها : « اخبرنى محمد بيرم بك أمس بخبر .. وذلك الخبر هو أن الشيخ محمد عبده توجه أول أمس الى اللورد كرومر وقال ان سمو مولانا الخديو يريد رفتى ورفت مجلس الادارة جميعه، وطلب منه أن يتداخل فى الأمر . فقال اللورد بأنه لا يمكنه التداخل، ولما يئس الشيخ محمد عبده منه قال ائذن لى حينئذ ان أتوجه

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم ٢ ص ٣١ .
(٢) بيت الصديق ص ١٧ .
(٣) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم ٢ ص ٣٤ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٨ .

للاسكندرية ، واتكلم مع سمو الخديو ، فقـــال له اللورد : انا لا أمنعك أن تتوجه ، ولكن الأليق أن تنتظر سموه الى أن يحضر ، فخرج الشيخ محمد عبده وقابل بطرس باشا غالى ، فأشار عليه بالسفر الى الاسكندرية ، فقال الشيخ محمد عبده لكثير من أصحابه (انى سأسافر فى هذا المساء الى الاسكندرية لمقابلة ولى النعم) فأشيع الخبر فى مصر بأنه سافر حتى انه كتب فى بعض الجرائد ، ولكني طلبت مقابلة الشيخ محمد عبده أمس فحضر عندى فسألته عن المسألة بوجه الاجمال لأعرف فكره ، فوجدت أنه خضع وغـــير الموضوع حيث قال :

(انه لا يوجد أدنى توقف منا فى تغيير مجلس ادارة الأزهر ، ولكن لم نفهم قصد سمو أفندينا تماما ، فنحن ننتظر مقابلتـــه بالذات لنفهم الغرض فننفذه) وكذلك شيخ الجامع قال لشفيق بك صباحا بأن المشايخ مستعدون لتقديم الاستعفاء ولكن لسمو أفندينا بالذات ، وهذا كله غير ما كانوا يقولونه قبل مقابلة الشيخ عبـــده لكرومر ، ورأى عبدكم أن سموكم لا تظهرون لهم أدنى غضب ، ولكن حيث انهم لم يفهموا ولم يثقوا بأن أكون انا واسطة بين سموكم وبينهم ، فسموكم تفهمونهم المسألة ، وتأمرونهم بتنفيذها فى الحال وقبل صدور الأمر بالتنفيذ تتكلمون مع اللورد كرومر فيها من باب حسن المعاملة » (١) .

ويبدو أن الخديو كان يهدف حقيقة الى تدعيم سلطته الدينية وآلتها الأزهر وماليتها الأوقاف ، وقد حدث بهذا كثيرين قائلا ان أوربا تهاب البابا والسلطان لمركزهما الدينى ، وهذا الأمر يبدو هينا لولا وجود الشيخ محمد عبده ، ومن أجل هذا كانت الحرب التى

---

(١) على فراش الموت ص ١٤٨ .

لا هوادة فيها بين الخديو وبين الشيخ محمـــد عبده (١) . وقد استغل الخديو فتوى الامام المعروفة بالفتوى الترنسفالية ، وكانت من اعظم ما تلمسته الصحف المعادية للتشنيع به ، وخلاصة المسالة ان احد المسلمين فى الترنسفال أرسل الى الشيخ محمد عبده يستفتيه فى ثلاثة امور ، أولها لبس القبعات وثانيها أكل اللحوم التى يذبحها نصارى الترنسفال على غير طريقة المسلمين ، اذ يضربونها بالبلط ولا يذكرون عليها اسم الله ، وثالثها صلاة الشافعية العيدين خلف الحنفية ، مع ما بينهما من خلاف فى فرضية التسمية وفى تكبيرات العيدين ، وقد أفتى محمد عبده بجواز الأمور الثلاثة ، ولكن المسألة التى أثارت عليه الشغب هى المسألة الثانية ، التى أفتى فيها بجواز اكل لحوم النصارى مستندا الى قوله تعالى (اليوم احـــل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) فقد قال تعالى هذا بعد تحريم الميتة ، ورأى أن المضروبة بالبلطة هى غير الموقوذة التى حرمها الله ، لأن الموقوذة التى تقتل بغير محدد من عصا او حجر (٢) .

فأراد الخديو ان يعريه من مناصريه جميعا ليقف وحده أمام غضبة الناس ، وعهد الى توفيق البكرى فى اقناع محمد رشيد رضا صاحب المنار وتلميذ الشيخ محمد عبده ، وفعلا قابله البكرى وطلب اليه باسم الخديو ان يسكت عن الدفاع عنه ، ووعده بتمهيد السبيل أمامه للقاء الخديو الذى يرغب فى مساعدته على تطوير مجلة المنار خدمة للاسلام ، بالمال وبالنفوذ ، فاعتذر صاحب المنار لأن الفتوى مبحث دينى ، والمنار مجـــلة دينية ، فكيف تسكت عن أدق اختصاصاتها (٣) .

---

(١) راجع البند السادس عشر من تقرير يوسف طلعت الى المابين (تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده جـ ١ ص ٥٦٦) .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦٨ وما بعدها .

(٣) نفس المرجع ص ٥٨٦ .

ولم يحقق الخديو حلمه فى المركز الدينى الذى أراده ليدعم به سلطانه ، والواقع أنه بدأ يضطرب فى تفكيره ، ويتخبط فى تصرفاته ، فهو تارة يفر من الاستعمار الى الخليفة ، وتارة أخرى يفر من الخليفة الى الانجليز ، وبينما كان عباس يشجع أعضاء « تركيا الفتاة » الفارين الى مصر من ظلم عبد الحميد ، اذا به ينقلب الى محاربتهم تقربا للسلطان ، وبينما هو مقبل على الشعب يحتضن مطالبه ، ويشجعه على تقديم العرائض للمطالبة بالدستور التماسا للحد من نفوذ كرومر ، اذا به يتنكر للشعب وزعمائه ويعرض عن مطالبه حين يرى اقبال « جورست » — خليفة كرومر — عليه ، فيحارب الحرية ويزج بالأحرار فى السجون . وكان هذا التخبط داعيا لاختلاف آراء الناس فى عباس ، أكان مؤمنا بالوطن ولكنه غلب على أمره ؟ أم أن حبه للملك وتعلقه بما يحيط به من أبهة وجاه كان أكبر من حبه للوطن وللحرية ؟ أم أنه كان يسعى الى زيادة نفوذه واطلاق يده من كل قيد ، فهو يلتمس الوصول الى هذه الغاية من كل سبيل ، وهو اذن لا يكره الاحتلال الانجليزى نفسه ، ولكنه ينافس الأيام وينازعه السلطان ؟ مهما يكن من دخيلة نفسه فقد انتهى الى نهاية لا يختلف عليها اثنان ، انتهى الى اليأس والانحلال ، وانصرف الى المال يجمعه فى شره ، وكان انحرافه سببا فى تحول الشعب عنه . ثم سخطه عليه ومهاجمته له ، منذ وقف للمرة الأولى تحت العلم البريطانى بجوار اللورد كرومر سنة ١٩٠٤ (١) .

والواقع أن السيد توفيق البكرى كان قد نفض يده من كرومر منذ أمد ، ثم استيأس من عباس ونفض يده منه بعد الحادثة السابقة ، ولم يتنكر البكرى لمبدئه الذى دافع عنه طيلة حياته ، وهو المطالبة بالدستور والحرية ، فعندما عبر « شوقى » شاعر

---

(١) الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ١٧١ وما بعدها .

عباس عن رأى الخديو فى تعليق الدستور على نضج الأمة ، رد عليه البكرى فى حديثه السابق مع صحيفة اللواء عام ١٩٠٨ .

وهنا يبدأ الفصل الاخير فى قصة حياة البكرى ، فقد غضب عليه الخديو غضبا شديدا ، اضطره الى أن يمدحه ، ولكن القصيدة تصور مصرع الحرية فى مصر ، وفيها يقول :

يا زمننـــا حـــدثانه	ما تنتهى فتبتـــدى
احس قومى انهـــم	احـــرار غير اعبـــد
ليست لهـــم بلادهم	وهى لكل أحـــد
فهـــم لذاك أصبحوا	فى مبرق ومرعـــد
لم يرتضـــوا بذلة	كالعـــير أو كالوتد
أو بهرج شـــيد على	مســـتقبل مهـــدد
كم شـــدة عادت على	أصحابها بالسؤدد (١)

(١) المؤيد ١٩٠٦/٣/٢٢

الرحيل

لو كان يدرى الخديو أن القدر قد ربط بينه وبين زميله القديم ، لفكر مرة ومرات قبل أن يقلب له ظهر المجن ، ويصب عليه جام غضبه . ولكن ترى ماذا كان وراء هذا الغضب الجديد من أسرار قديمة ؟ هل يرجع غضبه الى تلك المقالة التى تحدى فيها رغبته فى تأجيل الدستور (١) ؟ أم يرجع الى تحديه أن يظفر لمصرى آخر بتلك الرتبة الفريدة التى نالها من الخليفة (٢) ؟ لا شك أن السبب الثانى يدعو الى الدهشة والى التساؤل عما أثاره فى هذا الوقت ، ولماذا لم يكن التحدى فى هذا الشأن منذ سنين . ولكن الحقيقة أن الخديو حاول فعلا فى هذه الفترة أن يظفر بذلك اللقب لبعض المصريين وفشل فى محاولته (٣) ، مما قد يدعم هذا الرأى . ولكن هل هناك أسباب أخرى خفية (٤) ، أم أن هناك رواسب قديمة ،

(١) على فراش الموت ص ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٣) نفس المرجع ص ٤٥ .

(٤) تروى أسرة البكرى وعلى رأسها السيد حسن البكرى والسيد سيف الدين البكرى والسيد أحمد مراد البكرى الذى كان آخر شيخ للطرق الصوفية من أسرة البكرى ، بأن السبب يرجع الى يوم الاحتفال بالمحمل وجرت العادة أن يذهب الخديو الى بيت البكرى فى ذلك اليوم ، فلما ذهب لم يجده بانتظاره ثم حضر البكرى متأخرا فرماه الخديو أمام الحاضرين بسوء الادب ، فرد عليه البكرى ردا قاسيا كان منه قوله « من جدى ومن جدك ؟ » فتوعده الخديو وخرج غاضبا . يقول العقاد : (وكانت آخر كلمة وجهها السيد توفيق الى الخديو عباس : لست : أنا القليل الادب ، أنا وزير مثلك ، وآبائى واجدادى لهم الفضل على آبائك وآجدادك) راجع المجلة يناير ١٩٦٣ « وراء التراجم والسير » .

وكانت تلك الأسباب والتكهنات الجديدة أشبه بالقشة التى قصمت ظهر البعير ؟

الحقيقة ان فتور العلاقة بينهما كان واضحا منذ أربع سنوات، وكان السيد توفيق البكرى قد ضاق به وبالناس جميعا ، واعتزل فترة من الزمن ، كتب فى أثنائها مقالة فى العزلة التى تصور بركانا من زفير ملتهب ، وقذيفة تتفجر من الغضب ، وصف فيها الحاكم واستبداده وجهله ، ووصف فيها الطبقة المترفة الناعمة ، وتبديدها للأموال بلا حساب ، لأنها جمعته من دم الفقير وعرقه ، حين امتصت طاقته وتركته ، مريضا جائعا ، وله فيها خطرات اشتراكية ، ترسم ثورة نفسية عن الأوضاع السيئة فى المجتمع ، وفيها يقول : « أما الحاكم فاكثر ما لقيت امرؤ ان أونس تكبر ، وان أوحش تكدر ، وان قصد تخلف ، وان ترك تكلف ، امع لا يضر ولا ينفع ، قبة جوفاء ، تردد ما يلقى فيها من النغم ، ان لا فلا وان نعم فنعم ، القاب واكاليل ، على شخص فى مرسح التمثيـــل ، فان طرحت الألقاب ، ونزعت هاتيك الثياب ، الفيت تحتها العجب العجاب .. الى تيه وخيلاء ، وعنجهية وكبرياء ، كأنه جـاء براس خاقان ، أو ادال دولة بنى مروان .. رويدك ربما علت الجيف وانحط الدر فى الصدف ، وارتفع فى الميزان ، جانب النقصان ، على أن الانسان ، اذا لم يكن فيه غير جثمان ، فكلما علا يصغر ، لمن ينظر ، وربما حسن الأفن ، تعظيم الوثن .

لعمرى لقد هانت على الناس أمة   يدبر سيف أمرها ولقيـــط

« وأما ابناء السامة فان احدهم غادة ينقصها الحجاب ، ينظر فى المرآة ولا ينظر فى كتاب ، انما هو لباس ، على غير ناس ، كما تضع الباعة مبهرم الثياب ، على الأخشاب ، ورماد تخلف عن نار ، وحوض شرب أوله ولم يبق منه غير أكدار ، آباء واحساب ، وحال كشجر الشلجم احسن ما فيه ما كان تحت التراب ، الى رطانة

بالعجمة بين الأعراب ، أبرد من استعمال النحو فى الخطاب .. ميسر يلعب ، ومال يسلب ، وخدن يخدع ، وكلب يشبع ، وعطر ينفح ، وفرس يضبح .. أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل ان المال وسيلة لا غاية ، فان اصبت منه الكفاية ، فقد بلغت النهاية ..

وأما العامة أيدك الله فهم عظم على وضم ، وصيد فى غير حرم ، سيد مأسور ، والاخشيد فى يد كافور ، ويتيم غنى ، فى يد وصى .

ظلموا الرعيـة واستجازوا كيدها
وعـدوا مصـالحها وهم أجراؤها

فبينما ترى قصورا وثراء ، وجنونا وسراء ، وعربات تترى ، تعدو امامها السليك والشنفرى ، تجد ارمل صناعا ، وايتاما جياعا ، وشيخا يعمل وهو فى ارذل العمر ، يقعده العجز وينهضه الفقـر ...

« رحماك ان عزلة بين كرم واعناب ، ودواة وكتاب ، لهى الجماعة والأنس ، للنفس »(1) .

كانت هذه الخطرات سابقة على عصرها بزمن ، ورد الفعل الطبيعى هو الاستياء والضيق بها وبكاتبها ، ومهما كان السبب المباشر لثورة الخديو ، فان هذه العوامل جميعا اشتركت فى اثارته فتوعد البكرى ، وحاول توفيق البكرى ان يستل سخيمته بقصيدته السابقة ، ولكنها كانت فى الواقع أكثر اثارة له ، بما فيها من هذه الأبيات السياسية .

وهنا تبدأ مرحلة العزلة الثانية ، فقد طغى عباس وتجبر وكمم الأفواه ونشر الدسائس ، وعين الأمير « حسين كامل » رئيسا

(1) صهاريج اللؤلؤ ص ١٠٢ وما بعدها .

لمجلس شورى القوانين ، وأصدر قانون المطبوعات الذى سلب الصحافة حريتها وقيدها بقيد من حديد . فاستقال البكرى من الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين . وقد يقال غير ذلك فى أسباب استقالته ، والحقيقة أن ذهنه فى هذه الفترة كان يصور له قدرة الخديو على اغتيال الحريات والأفراد أيضا ، واحس انه غير قادر على تحمل المسئوليات فى هذا الجو . فلم يلبث أن استقال من مشيخة الطرق الصوفية أيضا فتولاها ابن أخيه الشيخ عبد الحميد البكرى .

كانت بداية النهاية حين احس بالعيون تقتفى آثاره . وتنقل ما يقع فى أسماره (١) ، وفى بعض ذلك ما يذهب برشد الحليم . « وكان الشيخ على يوسف يتردد عليه بالزيارة ليخفف عن صديقه ما يقاسيه من الوساوس النفسية والاضطرابات العقلية . فيصيب منه تارة يقظة ورشدا ، وتارة أخرى قلقا وانسياقا مع الأوهام .. وكان اذا اشتدت به الحال نهض ففتش تحت الأسرة والمقاعد ووراء الأبواب والستائر خشية أن يكون أحد رجال الخديو متربصا به . واخذ يبعث بالرسائل الى النائب العمومى ليحميه والى محافظ العاصمة ليبعث اليه من رجال البوليس من ينقذه . ثم يكتب البرقية تلو البرقية الى بطرس باشا غالى رئيس النظار ويشكو له رجال الخديو ، ويتهمهم بتآمرهم عليه . فيرد عليه رئيس النظار بأن الحكومة ستتخذ الاجراءات اللازمة لحمايته . ثم يمر النائب العمومى أن يزوره فى قصره ليطمئنه .. » (٢) ولكن الداء كان قد استفحل ، فبدأ يشك حتى فى اقرب الناس . ذهب مسرة الى على يوسف فى ادارة المؤيد وكان هناك يوسف سركيس . فما أوعز على يوسف الى النادل أن يأتيه بكوب من الشراب حتى صاح به

(١) صاحب صهاريج اللؤلؤ لزكى مبارك ا البلاغ ١٩٣٢/٨/١٩ .

(٢) على فراش الموت ص ١٢٥ ، ١٩٤٦ ..

« وانت يوسف سركيس قد اتفقتما على تسميتي ! » (١) وعبثا حاولا تسكين روعه . واستمر الوهم يعمل عمله ، حتى قررت الأسرة ان تذهب به الى « مستشفى العصفورية » بلبنان عام ١٩١٢ . ولم يمض على ذلك عامان حتى سقط عباس عن عرشه ونفى ، عند قيام الحرب العالمية الأولى .

احد عشر عاما انقضت مسرعة عجلة لا تتأنى ولا تتوقف فى مسيرها ، وما قيمة الزمن فى حسابه ، نهار وليل ثم لا جديد اللهم الا غضون بدات تزحف على وجهه الأبيض ، وشيب كسا هامته وخضب شعره والبسه رداء الشيخوخة ، فقد تجاوز الخمسين من عمره ، وتغيرت الدنيا من حوله فى أعقاب الحرب ، ولا جديد يغيره ، او يخرجه عن اوهامه .

كان ذلك فى الخامس عشر من اكتوبر عام ١٩٢٣ ، عندما مر صديقه السابق يوسف سركيس ، بمستشفى العصفورية ، فتذكر السيد محمد توفيق البكرى ، الذى نسيه الناس بمصر فى غمرة احداثهم السياسية ، ثورة شعبية ضخمة ، واستقلال مشروط ، اقبله البعض ورفضه الآخر ، واحداث الحاضر ، قد تلهى الناس عن الماضى ، ولكن يوسف سركيس بلبنان ، والى جوار البناء الضخم والحدائق المترامية ، التى تصور له حيا من أحياء اوربا ، وذهب الصديق يسأل عن صديقه القديم فتمنعه ادارة المستشفى من لقائه معتذرة بأن أكثر من زائر جاء من مصر بحجة مشاهدته ، وحاول سرا ان يحمله على التوقيع على اوراق معينة تتعلق بأموره العائلية والمالية ، **ثم كانت الحرب ولم تتمكن الأسرة من ارسال نفقاته** ، ثم اقتنعت ادارة المستشفى بأسباب الزيارة ، وما لبث الحاجب ان مضى ليأتى بالسيد .

(١) مجلة سركيس (عدد يوليو واغسطس ١٩٢٣) .

وبقى سركيس (١) جالسا يستعيد ذكرياته مع السـيد توفيق البكرى . « رايته فأعجبت ، شاب ناهض ، زى حسن ، جبة طالما لمست الجماهير أطرافها تبركا ، عمة طالما انحنت لها الرءوس احتراما وتكريما ، وسمعته فطربت ، ينشد شعرا ناظر فيه فحول الشعراء ، ويرسل نثرا فى (صهاريج اللؤلؤ) فكأنه انفاس العشاق ، وزرته فى سراى الخرنفش ، عاصمة فى عاصمة ، قصر يفاخر بتاريخـه وزخرفه أفخم القصور ، ورافقته فى عربته ، كل خطوة ترتفع الأيدى لتحيته ، وتحنى الرءوس . كذلك كان سماحة السيد محمد توفيق البكرى الزعيم الدينى الشاعر المجيد الناثر البليغ جليس الملوك والأمراء » (٢) .

وأبصر الحاجب يأمر شبحا ان يتبعه ، فصدع بأمره ، اقبل يمشى على مهل ، تلك عادته ، رافعا رأسه محدقا ببصره ، تلك عادته ايضا ، ثم لما صار على مسافة خطوات منه رآه وقد تبينه فعرفه ، فاخذ يمشى على مهل ونكس رأسه حتى اقترب فغض بصره ووقف

---

(١) كان من اهم الاحداث التى ربطت يوسف سركيس بالبكرى : ما اعتادته اسرة البكرى من اقامة حفل فى كل عام يسمى « حفل الكنى » . وكان السيد عبد الحميد البكرى ابن شقيق السيد محمد توفيق البكرى يوزع الالقاب على الحاضرين ، فحضر يوسف سركيس ، وعندما جاء دوره لقبه السيد عبد الحميد بأبى لهب ، فغضب ، ولكن السـيد توفيق ذهب اليه واعتذر وترضاه ووبخ ابن أخيـه ، وطلب سركيس الا ينشر قصيدة شوقى فى هذا الحادث ، وكان سركيس قد شكا الى شوقى ، فقال شوقى :

آل أبى بكـــر لـكم ... فى النـــاس لرفـيع الرتب ...
وكان فى ليلـــة ... مقـــربة من اقتــرب
يمنح من شـــاء الـكنى ... مجـــاملا لمن طلب
فمـا لـكم من بعـــده ... اتيتـــم مـــالا يحب
لقيتـم ابا الضـــيا ... ضـــيفكم أبـــا لهب

(٢) مجلة سركيس سبتمبر واكتوبر ١٩٢٢ (صوت من قبر الأحياء) .

خاشعا ، ولم يملك سركيس دموعه . لقد تبدلت الصورة تماما ، حذاؤه ضخم منكر ، وجبته رثة صفراء ، وقفطان ممزق ، يصل بعضه بعضا « بدبابيس » ، وعلى رأسه « طاقية » ، وقد شاب شعر رأسه ، وطالت لحيته . لحظة من الذعر والدهشة والجمود ، استولت على صديقه ، قبل أن يكفكف دمعه ، ثم مضى يسأله :

ـ أهلا بمولانا السيد . كيف حال سماحتكم ؟

ـ بخير والحمد لله .

ـ أنا قادم من مصر لأزوركم .

ـ شكر الله فضلك .

ـ اتذكرنى يا مولانا ؟

ـ نعم اذكرك واذكر ايام المؤيد .

ـ هل أنت مرتاح هنا ؟

ـ لا بأس .

ـ هل يسمحون لكم بالمطالعة ؟

ـ ليس لدينا وقت .

ـ اتنظمون شيئا من قبيل (اول خبط الكفن) ؟

ـ فضحك وقال : لا .

ـ هل تذكرون كتاب (سهاريج اللؤلؤ) ؟

ـ كيف لا .

ـ أتأمرون بشيء اخدمكم به ؟

ـ شكر الله فضلك .

ـ اترغبون أن أرسل لكم بعض الكتب .

ـ ليس لدينا وقت .

ـ بماذا أقدر أن أخدمكم بمصر ؟

ـ ولا حاجة ، فقط أرجوك أن تقول لابن اخى عبد الحميد أن يأتى او يرسل من يأخذنى من هذا المكان فلم تبق حاجة لبقائى .

كل هذا ولم يرفع راسه ولا نظر الى صديقه، ثم استأذن وانصرف ، فمشى مطرقا بضع خطوات ثم انتصب ورفع راسه ومضى يضرب الأرض بعصاه ، أما يده اليسرى فتقبض بعنف على قطع مكسورة من مرآة . واخبر الطبيب يوسف سركيس أن المرآة ملازمة له لا يتركها لأنها فى زعمه تطرد الشياطين ، وهو دائما يتجول دون رقيب أو يستمع للخطباء من مرضى المستشفى .. على أن من المحقق أن مرضه غير قابل للشفاء ، أما اضطرابه العقلى فليس خطيرا ، لانه حافظ لكثير من قواه ، يحادثك حديث العقلاء ، ويكثر من المطالعة ، ومن الغريب أنه مع وجوده فى المستشفى من عهد بعيد فهو ما يزال يذكر المكتبات والناشرين ، فيدفع الى أدارة المستشفى بقائمة كتب من حين الى حين يطلب شراءها ، فيجدون كل كتاب وارد بالقائمة موجودا لدى الناشر أو المكتبة التى حددها (١) .

وتزعم سركيس حركة ضخمة تهدف الى اعادة السيد البكرى الى مصر ، فمرضه غير قابل للشفاء ، وهو ما يزال يحتفظ بكثير من قواه العقلية ، وليس من المروءة أن يترك على هذا الوضع الشائن غريبا وحيدا ، يستثير منظره أقسى القلوب . ولم تلبث بقية الصحف ان شاركت فى الأمر ، فكتب حوله حسين شفيق المصرى بمجلة « السيف » يقول : « يا أيها الناس ، كان أوجه أهل هذا البلد وأرفعهم مقاما وأعلاهم بيتا وأشرفهم نسبا وأعظمهم حسبا وأقربهم الى رسول الله وأوسعهم علما وأبلغهم نثرا وأجودهم شعرا ، السيد توفيق البكرى صاحب قصر الخرنفش وشيخ مشايخ الصوفية ورئيس نادى العظماء والعلماء والأدباء ، الذى عرفناه وكل رأس لا يرتفع اليه الا لينظر الى الهيبة والوقار وابهة المنصب وفخامة المقام ..

(١) سركيس اكتوبر ١٩٢٣ ، أغسطس ١٩٢٥ .

« اصبح يقوده من لم يكن أهلا لمسح حذائه ويزجره من لو كان دابة ما رضيه لمركبته ، وتولى امره من لم يكن يصلح لتقبيل يده .. يسأم الخسف ويعامل معاملة مجانين الجهلاء الفقراء وأموال أوقاف أجداده الوف الوف مؤلفة يخطئها العد .. يا حزنا على أغلى الناس حلة جديدة فى أطمار بالية ، ويا بكاء العيون على من كان يكاد ينتعل النجوم ونعلاه اليوم نعلا أبى القاسم ، وذوبى يا نفوس حسرة على الشيخ الأعز ، اصبح اذل من سندان حداد يحمى حوله بالنار ، ثم تتناوبه المطارق . الغوث الغوث النجدة النجدة ، يا مصر ، يا حكومة ، يا أمة مصر ، هاتوا الشيخ واجعلوه فى دار يطعم فيها ويكسى ويخدم الى أن يموت »(١) .

.. وكتبت جريدة « المحروسة » ناعية على ابن اخيه ترفه ، بينما عمه على هذا الوضع ، ثم استنجدت له اهل الفضل ، وكتبت « الصاعقة » تلح فى عودته . وتحت ضغط الراى العام ، سافر بعض أعضاء الجمعيات الى بيروت ، والتقوا بمدير المستشفى وتاكدوا أن حالة السيد الصحية لا تقتضى بقاءه ، وانه يستطيع الاقامة فى بيته ، فرأت أسرته أن تعيده .

وعاد الى مصر عام ١٩٢٨ ، مهدوم البنية منهوك القوى ، يخطو الى القبر ويستقبل الفناء ، وما زالت أوهـامه ملازمة له ، لكن يتخللها فى بعض الأحيان فترات يثوب فيها الى رشده ويذكر سابق عهده ، ويروى لمحدثيه جميل أيامه وما سمح به الدهر من لحظات باسمة ، ويستعيد الأحداث ويسوق الذكريات ، وكلما مر على حادث ذكر رجاله المحسن منهم والمسيء ، حتى اذا أتى على حادث الشيخ محمد عبده استغفر لنفسه وندم . وقبل وفاته بأيام كان اذا جاء ذكر الشيخ محمد عبده وما وقع له معه ، قال لمن حوله : « احب أن

---

(١) راجع سركيس يوليو واغسطس وسبتمبر واكتوبر سنة ١٩٢٣ واغسطس وسبتمبر سنة ١٩٢٥ وما نقله عن المجلات الأخرى .

يذكر عنى كل من يعرض للكتابة فى هذه الحـــادثة ، أننى أخطأت وأننى آسف لهذا الخطأ » (١) .

وكان حديث هذا الندم آخر أحاديثه ، فلم يسمع منه بعده حديث مستقيم ، حتى كان السبت الثالث عشر من أغسطس عام ١٩٣٢ ، حين وافاه الأجل ، وشيعه رجـــال الطرق الصوفية بالبيارق الى الأمام . وكتب زكى مبارك فى رثائه (٢) يقول : « أيها الرجل الذى مشى به عقله الى وادى الجنون ، انا نرثى لك ونعطف عليك ، ونؤمن بأنك فهمت يوما اخوانك سكان هذه الأرض فهما هو عين الصواب ، ونحمد الله الذى منحك ما اشتهيت من العزلة فى مصر ولبنان ، الى أن اختار لك الراحة الباقية فى عالم الخلود » .

---

(١) على فراش الموت ص ١٥٠ .

(٢) البلاغ ١٩ اغسطس ١٩٣٢ .

الباب الثاني

إنتاج الأدرينالين

الكاتب

عندما أتم القرن التاسع عشر ربعه الثالث ، كان الصراع بين المدنية الاسلامية والحضارة الغربية قد دخل دورا فعالا فى الوطن العربى بوجه عام ، وفى مصر على وجه الخصوص . والواقع أن مصر بدأت تطلع على ضروب من الحضارة الغربية منذ أول ذلك القرن . وعندما نقرأ قول الشيخ حسن العطار فى ذلك الوقت ـ عقب خروج الفرنسيين من مصر ـ نحس أن كلمته « وأن مصر لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها »(١) ، لها مدلولها القوى فى التعبير عن الرغبة التى بدأت تجتاح العقول للتعرف على تلك الحضارة ، وفى نفس الوقت بداية التشابك الحضارى بين الشرق والغرب .

ثم كانت البعثات العلمية التى استمرت طوال القرن الماضى عاملا فعالا فى خلق هذا الجو ، وحين ندرك أن تلاميذ رفاعة الطهطاوى قد ترجموا فى فروع المعرفة ما يقرب من الفى رسالة وكتاب ، نستطيع أن نتصور هذا التفاعل الحضارى فى مجال الفكر ، بل فى بعض نواحى الحياة العامة ، لأن التأثر الفكرى ينعكس على سلوك المرء فى حياته الخاصة والعامة ايضا . ومن المؤكد أن « مدرسة الألسن » ما كانت تقوم الا بعد مرحلة من التهيؤ النفسى للاقتناع بدورها ، وأن « مدارس البنات » التى انشئت فى مراحل متقاربة خلال النصف الثانى من القرن الماضى ، ما كانت تقوم كذلك ،

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٣٨ .

الا وهذا التشابك الحضارى يأخذ مداه ، خاصة اذا عرفنا أن مدارس البنين نفسها لم تكن تجتذب ابناء الشعب فى أول القرن الماضى . وهكذا نستطيع أن نتصور بداية التطور فى فن العمارة وفى طرق المواصلات وفى الملابس وفى الأطعمة وأسلوب تناولها وفىالعادات والتقاليـــد .

يقول السيد توفيق البكرى فى « الوفاقات فى العادات بين الافرنج والعرب » : (وكانت عادة البالو أو ما يقاربها معروفة عند ملوك الاسلام ، وكانوا أحيانا يصورون الوقائع التاريخية كما تفعل الفرنجة اليوم ، وقد كانوا يستعملون الورق والجلود مكان النقود فى وقت الحاجة كما تفعل الدول الآن ، وكانوا يتهادون بالزهور والرياحين فى ايام المواسم والأعياد كالافرنج ، كما كانوا يرفعون ما على رؤوسهم للتعظيم . كذلك كانوا يقيمون تمثالا للرجل المشهور عندهم أو الصالح ليبقى ذكره بينهم ، وكانت النسوة يرسلن ذيول ثيابهن ولا وسيما فى الحلل النفيسة التى يلبسنها أيام المواسم . ومن عاداتهم الانحناء فى السلام ، فانها كانت عادة لبعض قبائل العرب كغسان . وما هو عادة الآن عند الافرنج وكان مستعملا عند بعض ملوك العرب ، تصوير الملوك على السكة المضروبة من الدنانير والدراهم ، وبيوت الأمتعة وهى المعروفة الآن « بالانتقخانة » وهى مواضع تحفظ فيها الآثار القـــديمة من ملابس الملوك وآثارهم ، والاستئذان قبل الدخول فى المحلات اما بدق الباب أو غــيره ، وتقديم ورقة الطعام قبل الأكل وفيها أسماء الأطعمة التى ستقدم فى الخوان) (١) . ولسنا بصدد مناقشة هذا النص مناقشة تاريخية لنتبين صحة آرائه ، ولكن مدلول النص واضح من حيث محاولة الملاءمة بين العادات والتقاليد الغربية الغازية وبين العاداتوالتقاليد

---

(١) سهاريج اللؤلؤ ص ٢٥٨ .

الشرقية ، فقد ينفر بعض الناس من الجديد ما لم تكن له جـذور قديمة ، وقد يقارن البعض الآخر بين العادات الشرقية والغربية مستهجنا كل ما هو شرقى ، وتلك هى طبيعة الناس فى عصور التقاء الحضارات ، أو ذلك هو « قانون تلاقى المدنيتين » (١) .. فالواقع أن الربع الأخير من القرن الماضى بالذات قد شهد حدثين كبيرين أولهما انتشار المطبعة العربية وما أعقب ذلك من حركة الطباعة الهائلة التى التفتت الى التراث ونشرت أمهات كتب الأدب ودواوين الشعر ، ثم ظهور الصحف العربية والدوريات وعلى الأخص «الهلال والمقتطف» . وقد حرصت هذه الدوريات على نقل كثير من المعارف الغربية والفكر الغربى ، ولعبت دورا كبيرا فى تصوير الحضارة الغربية بصورة محببة الى الشرقيين . أما الأمر الثانى فهو الاحتلال وما أعقبه ايضا من محاولات للتطوير — لا للتطور — وتذويب القيم الاسلامية واحلال القيم الغربية بدلا منها ، ومهاجمة الدين نفسه واللغة العربية الفصحى . وهكذا دخلت الحضارة الغربية بمحاسنها ومساوئها فى صراع عنيف مع الحضارة الشرقية الموروثة ، وكان لابد أن ينقسم الناس على انفسهم ازاءها . فهناك فريق اندفع مع الجديد لا يبقى على شيء ، وفترت صلاته بالحياة الشرقية ، واقترن فى ذهنه حاضر الشرق الضعيف بتقاليده الموروثة ، فراح ينادى بوجوب الأخذ بالحضارة الفنية الغازية فى كل صورها كما قلنا ، وهناك فريق آخر زاده هذا الغزو الغربى تمسكا بتقاليده وقيمه الموروثة ورأى أن تقليد الغربيين سوف يفقد الأمة احساسها بشخصيتها فلا ينبغى اذن أن تقوم نهضتنا الا على جذور من قيمنا وتقاليدنا وديننا . أما الفريق الثالث فهو الذى وقف حائرا بين

---

(١) تيارات ادبيــة بين الشرق والغرب (راجع الفصل الخاص بقانون تلاقى المدنيتين) .

المتناقضات الاجتماعية والفكرية ، يحاول ان يأخذ خير ما فى الجديد . ويمزج بصالح الموروث فى الحياة وفى الفكر معا .

وقد وضح هذا الصراع فى الادب وفى أسلوب التعبير . اما فى الشعر فنجد البارودى والكاظمى وعبد المطلب وهم يمثلون المدرسة المحافظة خير تمثيل والى جوارهم فى نفس الفترة ظهرت مدرسة جديدة تمثل الجديد وتولى وجهها نحوه ممثلة فى مطران وشكرى والمازنى والعقاد . أما الفريق الذى حاول ان يأخذ من صالح الجديد والموروث فتمثله مدرسة شوقى التى اكتسحت الميدان لأنها تستند الى قاعدة شعبية ضخمة فلا تمثل تطرفا الى اليمين او الى اليسار . وهكذا كان الشأن فى النثر أيضا . ولكن النثر كان له مظهران . مظهر المحافظة ومظهر التجديد . أما المحافظة فتتجلى فى « صهاريج اللؤلؤ » للبكرى و « حديث عيسى بن هشام » المويلحى و « اسواق الذهب » لشوقى . ولكن الواقع أن الصحف اليومية والدوريات بصورة عامة . كانت تضطر الكاتب الى ضروب من التعبير عن حاجات العصر وأحداثه . وتضطره أيضا الى نبذ الزخارف اللفظية التى تعنى التأنق والاحتفال ، لأن الصحافة يومية أو أسبوعية . فليس هناك وقت لمثل هذا التأنق وذلك الاحتفال ؛ ومن أجل هذا غلب أسلوب المجددين — الذين نبذوا السجع والزخرف — على كتاب المقالات الصحفية . كما غلب ايضا على الكتاب الذين تعمقوا الثقافة الغربية . ووجدوا النثر يقوم هناك بكثير من مهام الشعر فى التعبير عن حاجات العصر فى أسلوب بسيط يستطيع أن يقرأه الناس وأن يفهموه . مثلما نجد فى كتابات « قاسم أمين » او فى مقالات « اديب اسحق » و « مصطفى كامل » ممن زاولوا العمل الصحفى .

ولكن لماذا تخير السيد محمد توفيق البكرى هذا الأسلوب المسجوع الملىء بالغريب ؟ ألانه قرأ مقامات الحريرى ونثر ابى العلاء ؟

ولكنه قرأ ايضا فلسفة اليونان كما قرأ كثيرا من كتب التـــاريخ والأدب الفرنسى (١) .

يقول فى مقدمة (سهاريج اللؤلؤ) : « هذه كلمات من النثر ، وابيات من الشعر ، ضمنتها نخبا من الحكم ، واقاويل من جوامع الكلم ، وذكرى من مغربة الأخبار ، ونعوتا لبعض الأناسى والآثار ، ومثلات فى المواعظ والاعتبار ، وشعشعتها بأنظار الجهابذة المتقدمين، والحكماء المتاخرين ، كما تشعشع الراح ، بشفبان البطاح ، فجاءت بحمد الله من البلاغة فى القرار المكين ، والركن الركين ، **وقد التزمت فى أكثر عبارتها فصح الحجاج ، ولسان رؤبة بن العجاج ، وأنا اعلم ان من الأدباء اليوم من ينفر من الغريب ولا ينفر من الدخيل ، لاستيلاء العجمة على هذا الجيل** ، فلم يثنينى ذلك عن ان اودع كلام الاعراب ، بهذا الكتاب ، وأحدو فى اثر تلك الرفاق ، بما فى هــذه الأوراق »(٢) .

من الواضح اذن انه يأخذ الطرف المقابل الى غايته ، ان كان غيره ينفر من الغريب ولا ينفر من الدخيل كما يقول بل يستحسن هذا الدخيل ويتشدق به ، لأنه فى وهمه دليل التطور والرقى ، فالانسلاخ عن لغة الأجداد والدعوة الى الكتابة بالعامية أو الحديث باللغة الأجنبية كان ظاهرة جديدة تستدعى أن يقف الطرف المعارض موقفا جادا منها ، ومن اجل ذلك كانت الدعوة الى المجمع اللغوى التى تبناها البكرى من قبل ، ومن اجل ذلك ايضــا كان اسلوب المؤلف الذى انتحى هذا النحو . ولا شك أن نشأته الدينية ومركزه الدينى كان عاملا من العوامل التى دفعته الى الحفاظ على أسلوب العربية ولغة القرآن ، وقد أعانه على هذا الأسلوب كثرة محفوظة من الغريب ، فهو صاحب « أراجيز العرب » ، ونحن نعلم أن الرجاز

(١) راجع سهاريج اللؤلؤ ص ٣٨ ، ٧٠ ، ١٢٦ ، ٢٢٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١/٢ .

على وجه الخصوص كانوا يهتمون بغريب اللغة ، كما أعانه بوجه عام سعة اطلاعه وعمق ثقافته العربية ، وبوجه خاص اهتمامه باللغة ومفرداتهـــا .

واذا كان أسلوب البكرى يهتم بالسجع والغريب واستيعاب الكثير من الأمثال العربية ، فان احتفاله الشديد بالتشبيه يفوق كل احتفال ، واهتمامه به يفوق كل اهتمام بغيره ، حتى أصبحت اداة التشبيه ، اظهر حرف فى أوائل جمله كما يقول العقاد (١) . ولكن لماذا احتفل البكرى بالتشبيهات كل هذا الاحتفال ؟ الواقع انه كان مجددا فى الصناعة الفنية ، بالرغم من أن أدواته فى هـــذه الصناعة أدوات مستعملة . فاللفظ مغرب اشد الاغراب والسجع نغمة موسيقية حظيت باهتمام الكثيرين من الكتاب العـــرب ، والتشبيه والمثل كذلك ، ولكن الجديد هو التصوير الذى أدار حوله صناعته الفنية ، والذى اسعفه فى هذا المجال أن كثيرا من مضامينه معاصرة جديدة ، بل ان كثيرا من موضوعاته شعرية ، فنثره شعر من حيث الخيال ومن حيث الموضوع كما يقول عمر الدسوقى(٢) . وكانه اراد أن يتحدى المجددين الذين يحسبون التجديد امرا شكليا يتعلق بالأدوات ولا يتعلق بالصياغة ، أو يحسبون الأدوات الموروثة لا تتسع لجديدهم ، **بالضبط كما يحسب أصحاب الشعر الحر اليوم أن أدوات الشعر العربى الموروث لا تمكنهم من التعبير عن تجاربهم الجـــديدة .**

ولكن الأمر هنا اخطر بكثير ، لأن الكاتب على هذا الوضع قد يقع تحت وطأة التشبيه القديم والمثل الموروث فلا يفيده بقدر ما يفكك صوره ، ولا يسعفه فى رسم الجزئيات وانما يبتلعه المثل والتشبيه،

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٧١ .

(٢) فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٣٨٠ .

فلا بد من عملية تمثل كامل لهما حتى يخرج كل منهما أشبه ما يكون بالظل الذى يوضح ملامح الصورة عند الرسام ولا يطمس معالمها ، أو بمعنى آخر لابد ان يستحيل التشبيه والمثل الى ملك خالص للكاتب كما يقول زكى مبارك (١) .

ولابد من المقارنة لتتضح الفكرة وتتجلى معالمها ، ففى احدى قصائد الشاعر الفرنسى « فكتور هوجو » واسمها « واترلو » يصف الموقعة الشهيرة التى انهزم فيها نابليون ، وفيها يقول : « لقد وقع فى هذا السهل موقعة كبرى خلط الموت فيها الجيوش فماجت به كما يموج الماء فى حوض مفعم ، وكانت فرنسا فى ناحية وأوربا تقاتلها فى ناحية ، فخاب ثمة أمل الشجعان وحقت عليه الواقعة . ابكى على هذه الموقعة وحق لى البكاء ، اذ هؤلاء الشجعان كانوا خيرة الرجال ، وقد فتحوا الأرض ودوخوها ، وطردوا عشرين ملكا وجازوا جبال الألب ونهر الرين . وقد كانوا الى المساء هاجمين ومنتصرين ومضايقين (لولنجتون) القائد الانكليزى اذ جازوه الى الغابة ، وكان نابليون والنظارة فى يده يقلب نظره تارة فى وسط الجيش اذ يراه كأنه حصيد وتارة يتأمل الأفق كأنه البحر فى ظلامه . وبينما كان يؤمل مقدم الجنرال (جروش) لنجدته اذ رأى قدوم الجنرال (بلوخر) عدوه ، فانقطع الرجاء وتغير الأمر فى الحرب وأخذت المدافع الانكليزية تحصد مربعات الفرنسيين ، وأصبح السهل بما فيه من الدماء والقتل المستحر كفوهة متقدة تسقط فيها الفيالق كأنها قطع من حائط ، فلما رأى ذلك نابليون وأدرك الخطر بحذقه العجيب وحسن نظره امر جيش الحرس وهو أعظم فيالق الجيش الفرنسوى وعلى رؤوسهم الخوذ اللامعة بالتقدم ، فحيوا مليكهم وتقدموا للموت باسمين على أنغام الموسيقى ، فلم يلبث

---

(١) البلاغ ١٩٣٢/٨/١٩ .

نابليون حتى نظر الى هؤلاء الابطال وقد التحموا فى الموقعة ، وساروا يتساقطون فى تلك الفوهة المحرقة صابرين ، فريقا بعد فريق ، حتى لم يبق منهم أحد ، وعندها انقطع الرجاء وامر جنوده بالتقهقر ، فانهزم هذا الجند الذى طالما هزم العالم باسره قبل »(١)

ومهما تحدثنا عن ضعف الترجمة فى نقل الحس الفنى أو جرس الكلمة ، خاصة حين نحيل الشعر الى نثر وعلى الاخص الى لغة غير لغته ، الا اننا نهدف الى المقارنة من زاوية اخرى لا تخطئها الترجمة ، وهى زاوية التصوير ، فمن الواضح ان الشاعر تفريزك هنا اشبه بالمؤرخ من هذه الناحية ، ولكن البكرى حين اراد ان يصف احدى وقائع نابليون نثرا ، ذهب الى متحف فرساى وأدام النظر الى صورة الموقعة التى رسمها « جيرارد » ، بل ان الصورة هى التى اوحت اليه التعبير عنها ، تلك هى موقعة (استرليز) :

« كأنى انظر اليه يوم (استرليز) وقد خرج لقتاله القيصران ، فى يوم أرونان ، (فذاك يوم ... وما يوم حليمة بسر) ، فاصطف حياله الروس ، كالسطور فى الطروس ، وبنوا فى الأخاديد ، كالجلاميد ، وانحدروا فى السهول ، كالوعول . واقبل النمساويون فى كتيبة جرارة ، وململمة ...علاء ، ينزل اولاها وليس بنازل ، ويرحل اخراها وليس براحل ، فقابلهم من جيش الفرنسيس ، بالدهياء الدردبيس ، دوسر بسط جناحيه على الشعاب ، كما بسطت جناحيها العقاب ، فلا ترى ثمة الا اعلاما تخفق ، وحديدا يبرق ، وجنودا فى الماذى كأنها صخور فى ماء ، او افاعى عرماء ، أو أسود والسيوف انياب ، او عقارب شائلات الأذناب ، ثم حمى القتال ، وزلزل الزلزال ، واتقد الوهج ، وسطع الرهج ، فكأنما نرى جانا من مارج من نار ، أو اعصارا يدور فوق اعصار ، وكأنما

(١) المقتطف ، يناير ١٩٠٠ .

مدينة فى حريق ، وسماء تهطل برحيق ، وكأنما فكت الشياطين وانسابت الثعابين . وكانما فى قلب الأرض وهل ، وعلى خدها من الدماء خجل ، وكأنما فى الجو من الدخان والنار ليل وشروق ، ومن الرصاص والشفار وبل وبروق ، وكأنما كسرت قبة السماء ، فهوت بما فيها من نور وظلماء ، وكأنما كل صف من الجنود يميل بحائط من جهنم ، فيلقاه الآخر من الحديد بلج من يم ، فما ينكفىء ، حتى ينطفىء ، وبين ذلك خيول تكدس ، وسلاح يضرس وجماجم تفلق ، وأشلاء تفرق ، ومنا ومنون ، وطعن كأنه طاعون ، وشهيق وزفير ، وعير ونفير ، وصرعى كأنما غالتهم الكؤوس ، وواد يسيل على العلمين فقاقيعه الرؤوس ، ومقلة فى مخلب طائر ، وكبد فى رجل عاثر ، وبنان فى ناب وحش كاسر . هذا ونابليون قد أشرف على المرقب ، فوق نهد سهلب ، ثبت فى المعمعان ، كأنه خنذيذة من كتفى ثهلان ، لا تهوله كثرة البهم ، ولا جموع الأمم ، كأن جنده قليل من ضرم ، فى كثير من فحم ، يقلب عينه يمنة وشامة ، ويخبر اخبار زرقاء اليمامة ، فتطوى الجنود لأمره وتنشر ، وتقدم وتأخر ، كأنه فى هذا الهرج والمرج ، امام رقعة من الشطرنج ، الى ان يبدو له النصر من خلل القتام ، كما تاوح الشمس من تحت الغمام »(١) .

نلاحظ فى هذا النص امرين ، الأمر الأول أن كل تشبيه يرسم جزئية ، ثم تتعاون الجزئيات جميعا على تحديد ملامح الصـــورة النهائية أو اللوحة الكاملة ، فهو ها هنا أشبه بالرسام يصدر ملامح الجيوش وقد اصطفت للحرب ، وارتفعت الأعلام ولمعت السيوف ، والتهبت الأفق بنيران المدافع وارتمى صرعى الحرب اشبه بالسكارى اولا المزق المصبوغة بالدماء حولهم ، ووسط هذا الجو كله ، يأخذ الرسام زاوية معينة يسلط عليها الضوء حتى تحتل جانبا كبيرا من

(١) سهاريج اللؤلؤ ص ٧٠ وما بعدها .

اللوحة ، تلك هي صورة نابليون المنتصر . أما الأمر الثاني فيتعلق بالمثل الذى أحاله ملكا خالصا له ، ولو حاولنا أن نتتبع ما أتى به البكرى هنا من أمثال لطال بنا الأمر ، ولكن القارىء لا يكاد يحس لأول وهلة بالأمثلة العربية الكثيرة التى استفاد منها فعمقت صوره، واذا تركنا المثلين اللذين بدأ بهما ، وجدنا بعد ذلك (الدهيــاء الدوسر) وفى المثل (أبطش من دوسر) وقوله (أو اعصارا يدور فوق اعصار) وفى المثل (ان كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا) وقوله (وعير ونفير) وفى المثل (لا فى العير ولا فى النفير) ، الى غير ذلك مما اقتبسه من القرآن وضمنه مقطوعته .

وهكذا كان البكرى فى وضعه ، والواقع أن أكثر الكتاب على هذا النحو ، لأننا نستطيع أن نقسم نثره الى ثلاثة أقسام : الوصف ، والمديح والرثاء ، الاجتماع ، وكلها كما نرى موضوعات شعرية ، وقد غلب الجانب الأول على الكتب . وهو شاعر حتى فى اختيار الزوايا التى ينظر فيها الى الطبيعة : البحر ، الأصيل فى الماء ، الهلال، الليل والنجوم ، خليج القسطنطينية ، أيا صوفيا ، منتزه ، حسان القسطنطينية ، الريف ، الفجر ، الزرع ، الغـــدران ، الصيف ، الشتاء ، ليلة راقصة ، غاب بولونيا ، الرحيل ، العزلة . وليس له بعد ذلك الا ثلاث مقطوعات فى وصف الشخصيات ومقطوعة واحدة فى الرثاء ، وأخرى عرض فيها لأوضاع المجتمع وطبقاته ، وهاجم تلك الطبقات هجوما مرا قاسيا .

ومن الواضح أن أكثر حديثه عن الطبيعة المصرية التى أحبها ، وصور منها عدة لوحات ، « كلوحة الفجر » فى الريف المصرى ، فهناك الطبيعة عارية لا يحجبها حجاب الصناعة والمدنية الكثيف ، ولوحة « المزرعة » بسنابلها وزهورها ولكنها مزرعة مصرية لا تخلو من نخيلات تقف بقامتها المديدة والغربان واقعة على رطبها ، ومن تحتها الماء يجرى ، ثم لوحة « النواعير والأبقار » . ولكنه قادر على

أن يجمع هذه اللوحات فى اطار واحد عريض ، فيخرج منها بصورة واحدة تتحرك مناظرها ، صاخبة بالحياة .

« يا ما أحيلى الوحدة فى الريف ، وذلك المشتى والمصيف ، والجو السجج والظل الوريف ، فجر يلوح فى الأفق ، كالنور فى عين الزرق ، وضياء ينبثق فى الفضاء ، كما ينبثق الماء ، وشمس تبدو للاشراق ، فى الافاق ، كبودقة من ذهب ، أو قنبلة ترمى باللهب ، فيرتفع جرس كل حيوان ، كممنون فى الأوثان ، فللانسان تسبيح وتكبير ، وبلابل حنين وهدير . . وسنابل خضر ، وبراعم صفر ، وعهن منفوش ، ويقطين ومردقوش ، وعرف الخزامى ، وعرق الرخامى ، وكروم وأعناب ، وأباريق قد همت باعشاب ، ونخيل مواقير بالقنى ، من البرنى ، لا تزال الغربان واقعة على رطبه ، واكدة فى شذبه ، وفى خلال هذه الخضرة ، مياه ونهر ، فمن جدول فى ظل نخل ، وحوض تحت أثل . . ونواعير كأنها عشاق ، بعد فراق ، لم يبق فيها غير ضلوع ، وانين ودموع ، قد أوشم النبت حولها وطر ، واستدار الحرج واخضر ، وثم سائمة الأنعام ، بين الحقول والآجام ، نرتع فى مرابضها ، وتمرح فى مراكضها »(١) .

ومن الغريب أن القارىء لشعر شوقى يكاد يحس بتأثره فى بعض القصائد بنثر البكرى فى الموضوعات المتشابهة كخليج القسطنطينية ، وليلة راقصة ، ومرثيته الوحيدة التى نلحظ وجه الشبه بينها وبين رثاء شوقى لاسماعيل صبرى حين ينتقلان الى الحديث عن فلسفة الموت وعظته وعبثه بالراحلين الى وادى العدم فها هو ذا شوقى يردد فى قصيدته :

أجـل وان طـال الزمـان موافى
أخلى يديك من الخليل الوافى . . .

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ١٠٥ وما بعدها .

وترى الجمـــاجم فى التراب تماثلت
بعد العقــول تمــاثل الأصـــداف

وترى العيـــون القـــاتلات بنظرة
منهوبة الأجفـــان والأســـياف

وتراع من نـــحك الثغـــور وطالما
فتنت بحـــلو تبســـم وهتـــاف

بينما يقول البكرى : « انظر الى هذه المقابر ، بالحاجر ، ففيها بلاغ ومعتبر ، لمن ادكر .. وخدكان يصان عن قبله ، تعيث فيه الارنبة والنمله ، وثغور كأنها أقاح ، أو حبب على راح ، تنثر فى البوغاء ، وتخلط بالحصباء ، وعينين كأنهما سنانان ازرقان فى عامل ، او سحرا الملكين ببابل ، اضحيتا فى الحجاج ، كما قال العجاج .. » (١) .

وقد يزول عجبنا اذا عرفنا ان شوقى كان فى بعض الأحيان يقرأ مقطوعات من النثر ويتأثر بها فى شعره ، كما حدثنا عن ذلك صاحب كتاب « اثنا عشر عاما فى صحبة امير الشعراء » أكثر من مرة ، واذا عرفنا أن قصائد شوقى متأخرة فى نظمها عن نثر البكرى فى كتابه « صهاريج اللؤلؤ » ، خاصة وقد كان للكتاب صداه البعيد فى تلك الأيام ، وعلى الأخص عندما شرح المجتمع فى مقاله عن « العزلة » .

واذا كان حديث البكرى فى مرثيته حديثا فلسفيا يثير الاعتبار امام وادى العدم ، فحديثه عن شخصياته بوجه عام حديث يصور النفس أكثر مما يصور المظهر ، بمعنى انه لا يعطى الملامح الخارجية للشخصية وتفردها عن بقية الشخصيات ، وانما يعمد الى نفسيتها يشرحها ويدقق فى خباياها . والواقع أننا نحتاج الى الناحيتين فى رسم الشخصيات فلا تكتمل الشخصية بالمظهر الخارجى وحده ،

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ١٩٩ ، ٢٠٣ .

ولا يستغنى التشريح النفسى عن الملامح الظاهرية . وكأن البكرى رأى تميز الانسان عما حوله من مظاهر الطبيعة بأحاسيسه وبمشاعره الباطنية وتفكيره فاهتم بها ، فى حين كان اهتمامه مركزا على الوصف الخارجى للوحاته التى نقلها عن الطبيعة فلم يحاول أن يغير جزءا من ملامحها ، بل نقلها لنا كما هى فى الواقع ، ولم يحاول أن يضفى عليها شيئا من أحاسيسه . ونحن حين نقرأ رسم الشخصيات لمعاصره قاسم أمين ، نجد الجانب الآخر هو الغالب ، حين يرسم لنا شخصية الجبان المتظاهر بالشجاعة ، أو شخصية النهم الأكول(١)، فيدقق فى الحركات ، حتى يخرج بصورة تستثير الضحك ، أما البكرى فيعمد الى الجانب الثانى كما قلنا ، وفى حديثه عن صلاح الدين الأيوبى نرى ذلك واضحا حين يقول : « ظهر فى الأمة سميدع نقاب ، كأنه قسور غاب ، قلب حول ، لو عادته نجوم الأفق لعاد ذو الرمح منها وهو أعزل . يعبس وهو راض كالسحاب ، يضحك وهو غاضب كالقرضاب ، عاجل العفو آجل الانتقام ، كأن الملوك صف وهو الامام ، طبيب بأدواء الأمم حذاق ، يعالج تارة بالسم وطورا بالترياق . واحد لم يختلف فى فضله اثنان ، نطقت بمآثره السن الخرسان والخرصان ، فقرت بظهوره القلوب ، واذا هو صلاح الدين يوسف ابن أيوب »(٢) .

ولن تتم لنا الفكرة عن كتابه « صهاريج اللؤلؤ » الا اذا عرضنا لمقالته الاجتماعية . ونحن نعلم أن محاولة الإصلاح الاجتماعى قد بدأت بصورة قوية أيام جمال الدين ، حين حاول مخض المجتمع المصرى ، وركز جهده ــ من هذه الناحية ــ فى الاصلاح الدينى باعتباره أساس الاصلاح الاجتماعى ، وتلقف الراية من بعده تلاميذه ،

---

(١) راجع فصل الكاتب المبدع (قاسم أمين) .
(٢) صهاريج اللؤلؤ ص ٢٧٢ .

فتحدث الكواكبى فى « طبائع الاستبداد » عن عيوب المجتمع وردها جميعا الى الاستبداد كما قلنا ، وتحدث النديم بعد الاحتلال فى « التنكيت والتبكيت » عن التفرنج وانتشار المباذل والخمور ، وكان قاسيا فى مقاليه « عربى تفرنج » و «مجلس طبى لمصاب بالافرنجى»؛ وتحدث قاسم أمين فى كتابه « أسباب ونتائج واخلاق ومواعظ » عن اللامبالاة والكسل العقلى والأنانية المنتشرة بين الموظفين ، ولكن احدا لم يمسك بيده مبضع الجراح كما أمسك به البكرى ؛ ولم يهاجم التفرقة الطبقية كما هاجمها البكرى ، فالحديث فى هذه الفترة كان يصور « الفقر من مولودات الطبيعة » (١) ، ولكن حديث البكرى نكأ الجراح ، وكشف الطبقة المترفة التى الانتها النعومة حتى لم تعد تصلح لشىء ، وابتعدت فى أسلوب حياتها وتفكيرها عن المجتمع ، حتى أصبحت تتكلم لغة غير لغته ، وتعيش على قيم غير قيمه . طبقة معطرة فى مظهرها ، ولكن خباياها يترسب بها خداع الجشع ورائحة التحلل . والى جانب هذا اللين المعطر الذى يقف أمام القصر وعربته الى جواره ، صورة الشيخ المهدم تفوح منه رائحة العرق فى أرذل العمر ، وصورة اليتيم الجائع ، وصورة المرأة الشريدة ، وكثير من مظاهر الحرمان فى أبشع صوره وأذل الوانه(٢) .

وكان المجتمع كله أصبح بعد الاحتلال على وشك الانهيار ، فحتى الصديق لم يعد موضعا لثقة صديقه ، ولا أهلالها ، وئدت الشجاعة وكثر الخداع والملق ، والتطالب على المنافع ، لولا تلك القلة المؤمنة التى تجاهد ولا تمل الجهاد . « وأما الأخلاء ، والصحب والسجراء . فحسبك من رجل عون فى كل أمر لم ترده ، ونصير فى كل مطلب لم تقصده ، فان عرض لك بعض الحاج ، فالعلوى يسترفد الحجاج .

---

(١) راجع منتخبات امين حداد ص ٨٧ .

(٢) راجع فصل « الرحيل » .

ماء ، يتلون بلون الاناء ، ونيلوفر يدور مع الشمس فى الاصباح والامساء ، ان جددت فاليك ، أو شقيت فعليك ، مدح مع المادح ، وقدح مع القادح ، أجسام متدانية ، وقلوب متنائية ، ان كان خبر سوء فحماد الراوية حدث عن البحر ولا حرج ، مئذنة فى ظاهر مستقيم وباطن معوج .. رحماك ان عزلة بين كرم وأعناب ، ودواة وكتاب ، لهى الجماعة والأنس ، للنفس ، وان اجتماعاً بكبير يبغض ويزار ، أو رئيس لا يجد نفسه فى الليل ولا تجده فى النهار ، أو عدو ليس من صداقته بد ، أو حقود ذله أظهر منه الود ، أو حسود ملق ، كالذبالة يضحك ويحترق ، أو جاهل متعاقل ، أو متفصح وهو باقل ، أو صغير به كبر ، أو خدين فيه غدر ، لهو وأيم الله الوحشة والوحدة ، والسلولية والغدة » (١) .

وإذا كان البكرى قد هرب من الواقع المر الى عزلته بالريف ، فقد وجد العزلة لا تحقق الأحلام ، فعاد الى الجهاد مرة ثانية أشد التصاقا بالواقع ، ولكن بقيت لنا من عزلة تلك الصورة الداكنة التى رسمها للمجتمع فى مرحلة من مراحل تطوره ، والتى لم يقدر البكرى على محوها . وكان أبشع الجوانب فى صورته ، هو التفرقة الطبقية التى سلط عليها الأضواء وعرضها على الناس فى متحفه ، علهم يكتشفون أنفسهم وطريقهم ، طريق الثورة وحتمية الحل الاشتراكى . فالبؤس نفسه لا يولد الثورة ، والفقر حين يصاحبه الجهل والمرض لا يدفع صاحبه الى تغيير الأوضاع ، ولكن الاحساس بالفقر وبالبؤس ، والتفات البؤساء والمحرومين الى واقعهم واكتشافهم لأنفسهم هو الذى يولد فيهم الأمل ويدفعهم الى الخلاص . يقول زكى مبارك : « حدثنى أحد الأدباء أن البكرى اغتصب وصف (وابور البر) من المرحوم أحمد مفتاح وأعطاه دينارين ، وأن المرحوم

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ١٤٢ ، ١٦٢ .

تردد بين الرفض والقبول ، ثم وجد الدينارين أنفع وأبلغ فتنازل طائعا عن وصف (الوابور) ليضمه البكرى الى رسالته عن رحلة القسطنطينية » (١) . والواقع ان البكرى الذى رأيناه ، ليس هو الذى شبه « الدابور » بالثعبان ، فسواء أصحت هذه التهمة أم لم تصح ، فالبكرى فى نثره عامة هو الفنان المصور ، وهو الثائر المؤمن بحتمية التغيير .

ويقول عمر الدسوقى : « ولكنك تتخيل كأنه فى صراع بين حاسته الفنانة وبين حنينه للقديم . لقد حفظ كثيرا من أمثال العرب وحكمهم وشعرهم ، وأحاط بغريب اللغة احاطة عالم ، وقد حشدها حشدا فى كتابه صهاريج اللؤلؤ .. كأنه يتباهى بكثرة ما وعت ذاكرته من ذلك »(٢) . ولكن الحقيقة كما قلنا انه استطاع ان يحيل الأمثال والحكم الى ملك خالص له ، ولم تضطرب فيها شخصيته الفنية ، ولم تبتلعه الأمثال الموروثة . واكبر الظن أن الصراع بين حاسته الفنانة وبين حنينه للقديم ، لم يكن صراعا بالمعنى المفهوم للكلمة ، فقد كان بعض كتاب العصر يرجعون باللغة الى ما قبل العصر العباسى ، أو الى عصور الصحة والسلامة والبراءة من فساد العجمة ، فنحن محتاجون لتذوق نثر البكرى وصوره الى أن تنفض غبار الزمن عنها وندرك مدلولات الكثير من غريبه ، وهذا هو السبب فى قول العقاد عنه « ان الصنعة أفسدت الطبيعة » (٣) . والواقع انه لم تكن هناك صنعة وانما هى أدوات قديمة استطاع أن يرسم بها صوره الجديدة المعاصره ، ولكنك تحس بآثار تلك الأدوات الموروثة من عهد بعيد تترك ظلالها على صوره . اما السجع فقد بدأ يتراجع فى هذه الفترة تحت وطأة الهجوم المستمر لكتاب العصر .

---

(١) البلاغ ١٩٣٢/٨/١٨ .

(٢) فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٣٥٨ وما بعدها .

(٣) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٦١ .

ومن الغريب أننا نجد كاتباً كالشدياق يهاجم السـجع بقوله : « السجع للمؤلف كالرجل من الخشب للماشى ، فينبغى لى الا أتوكأ عليه لئلا تضيق بى مذاهبـه » (١) . ولكنه يتمسك به فى كثير مقالاته التى جمعها فى كتابه « الساق على الساق » . ومن الواضح أن مهاجمى السجع كان أكثرهم من كتاب الصحف الذين اضطروا بحكم عملهم الى التخلص منه ، خاصة اذا كانت المقالة تتعلق بالأخبار والأحداث ، وقد كان البكرى فى خطاباته ودراساته يؤمن بأن السجع لا يصلح لصياغة الخبر وسهولة الوصول للفكرة فتخلص منه ، ولكن الأمر على خلاف ذلك فى النثر الفنى ، خاصة اذا كان الكاتب يملك ناحية اللغة ، ولا تضيق به مذاهبه كما يقول الشدياق ، فهو اشبه بالقافية فى الشعر ، فالشاعر القادر لا تعوقه القافية عن التعبير ، وحتى فى الشعر الحر ، نجد الشاعر يعمد الى القوافى الداخلية للتنغيم - وعلى الأخص حين يكون تعبير الشاعر بالصور ، فهو فى حاجة الى الموسيقى التصويرية . وهكذا كان الشأن فى نثر البكرى فهو مصدر يحتاج الى نفس الموسيقى التصـويرية ، لأن الايقاع يؤثر فى السمع والصورة تؤثر فى البصر ، واستمتاع أكثر من حاسة فى هذا المجال الفنى الخالص له قيمته فى تعدد نواحى التأثير ثم ترسيبه فى النفس ليبقى الى أمد طويل .

---

(١) الساق على الساق ص ٥٢ وما بعدها .

الشاعر

كان الصراع الأدبى كما قلنا يدور فى مصر أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن نتيجة الاحتكاك بين الثقافة الغربية والموروث الشرقى . وكان المقتطف كما كان الهلال يحملان لواء هذه الدعوة فى كثير من المقالات التى ترسم بداية الصراع . ولكن النماذج التى أمام شعراء هذه الفترة كالبارودى وعبد المطلب والبكرى وشوقى هى النماذج العباسية التى بدأت المطبعة العربية تطبعها . ومن الحق أن هذه النماذج كانت تصور عصرها أروع تصوير ، ولكن هل يستطيع الشاعر الحديث الذى عاش على هذا الغذاء الفنى ، داخل ذلك الاطار الثقافى أن يخلص من تأثيره ؟ وهل يستطيع الشاعر المؤمن بالمحافظة على قداسة الموروث أن يطور فى فنه اذا ما قرأ شيئا من الشعر الغربى ؟ بل هل يستطيع الشاعر الذى عاش فى هذه البيئة وفى تلك الفترة أن يجابه الناس بالجديد دون أن يخشى عواقب الطفرة ؟

كانت الأصوات تتعالى من حين الى حين منادية بالدعوة الى التعبير عن العصر ، فالشاعر العربى فى العصور القديمة كان يصف الأماكن التى يراها والتى له فيها ذكريات ، وكان يبدأ بالحديث عن الطلل لأن طبيعة حياته التى تقتضى الرحيل الى مساقط الغيث ، كانت تقتضى أيضا الفراق الأبدى الذى كتب عليه أن يتجرعه بعد الرحيل ، فليس له الا تلك البقايا من الديار يفتتح بمناجاتها حديثه، كما يفتتح المرء حديثه بأمر مقدس . وهو فى مديحه يشبه الممدوح بالسحاب بالمطر وبالبحر ، لأن المطر سر الحياة فى الصحراء ، وأن

كان الرجل الحضرى الذى يرتوى من الأنهار ويعيش على التجارة لا يدرك تمام الادراك نعمة المطر ، بل لعله يتوقعه بشىء غير قليل من الضيق ، وهو فى غير ذلك من مضامين شعره مرتبط ايضا بالبيئة ، فالفخر الذى يأنف منه الذوق الحضرى ان لم يكن فخرا عاما بالوطن مثلا ، كان غرضا هاما من أغراض الشعر قديما لقوة العصبية القبلية . ولكن عصرنا الحديث تبدلت فيه القيم وتطورت فيه الحياة الاجتماعية فما بالنا نرتبط بالقديم ارتباطا جعلنا نعيش بأجسامنا فى القرن العشرين وبخيالنا فى القرون الاسلامية الاولى ، بل قبل الاسلام بقرون ؟ الم يكن الشعر مرآة لحياة العرب من قبل ، فما بال مرآتنا لا تعكس الا صورهم وحياتهم ؟

كان الحديث عن مضمون الشعر يدور على صفحات المقتطف والهلال وكان كتاب هذه الأحاديث بعض ذوى الثقافة الغربية الذين يقارنون بين الأدب هناك وبين أدبنا ، فيجدون أن مرحلة النهضة الأدبية بحاجة الى دفعات قوية ، ويجدون الحديث هناك يدور حول المضمون وحول الشكل ، وهكذا التفتوا أيضا الى شكل القصيدة من حيث مظهرها الخارجى ، فالى أى حد ينبغى أن يلتزم الشاعر بالقافية الواحدة ؟ ان الرتابة الموسيقية ثقيلة على القارىء ، وهى فى نفس الوقت قيد أثقل على الشاعر ، تضطره بحكم تقيده بالوزن الى أن يحيد عن فكرته الى الوادى الذى تشاؤه القافية لا الذى يرغب فيه الشاعر ، ومن أجل ذلك ظهر فى الشعر الأوربى لون حر فى قوافيه هو الشعر المرسل ، وهكذا أيضا ينبغى أن يسير الشعر العربى فى نفس الطريق (١) .

والقارىء لشعر البارودى يجد فعلا أن كثيرا من قصائده كانت متأثرة بالمثل الفنية الموروثة فى القصيدة من حيث مضمونها وشكلها.

---

(١) راجع المقتطف ١٨٩٢ (الشعر والشعراء) ص ١٥٠ ، ١٩٠٠ (بلاغة العرب والافرنج) ص ٢٩٣ ، الهلال ١٩٠٤ (الصنعة والترصيع) ص ٥٦٨ .

فذكر الأماكن العربية فى الجزيرة والتغنى بالأطلال فى مطالع القصائد والحديث الطويل عن النوق واستمطار الغيث يتردد فى شعره مرة ومرات ، بل ان كثيرا من صوره وتشبيهاته مستمدة من اطاره الثقافى لا من رؤاه المعاصرة . واذا كان البارودى قد نفى فى أعقاب الثورة العرابية ، فقد استمرت مدرسته وكان عبد المطلب خير نموذج يمثلها ، ولكن عبد المطلب كان بدويا ، فهو أصيل فى حديثه عن كثير من تلك المضامين (١) ، ولكنا نجد شاعرا آخر لعله لم يرتبط بالموروث ارتباط بقية الشعراء ، بل ارتبط بالثقافة الفرنسية والفكر الغربى — يحفر رافدا جديدا فى تيار الشعر العربى الحديث ذلك هو مطران الذى يعتبر رائد المدرسة الابتدائية ، وقد أحدث ديوانه الأول الذى ظهر عام ١٩٠٨ ضجة فى الأوساط الأدبية .

فما موقف شاعرنا البكرى من هذين الاتجاهين ؟ لم تنس بعد الاتجاه الذى اتجه اليه فى نثره من قبل ، فقد كان مصدرا لعصره بأدوات قديمة ، ولكنه كان يلقى بتلك الأدوات بعيدا فى خطاباته ودراساته . وبمعنى اخر ان الموروث المقدس كان يتغلب على الجديد الذى رآه فى اوربا وفى قراءاته للأدب الغربى ، ولكن شعره لم يكن قادرا على أن يخلو من ظلال هذا الجديد . وفى نفس الوقت كان شوقى يحاول التجديد فى رفق واحتياط حتى لا يجابه الناس بالجديد ، فهما من مدرسة واحدة ثقافتها العربية عميقة وثقافتها الغربية واسعة مع اختلاف هنا أو هناك فى العمق أو السعة ولكن البكرى كان يشده الموروث بينما كان شوقى يجذبه الجديد فيحتاط فى محاولاته .

ومن هنا وجدنا شعر البكرى بصورة عامة تعبيرا عن مشاعره فى مواقف خاصة كالمديح او الوصف او الرثاء أو الغزل أو الحكمة ،

(١) راجع فصل « الشعراء المحافظون » فى تطور الشعر العربى فى مصر .

وهى أهم الأغراض التى نظم فيها على قلة نظمه . وما دام الشعر تعبيرا عن تجربة وجدانية ينفعل بها ، فهو تعبير انفعالى لا يلجأ فيه الى محفوظه من الغريب ، بقدر ما يلجأ الى الوضوح والابانه ، لأن العقل يتحكم فى النثر أكثر مما يتحكم الانفعال ، والانفعال يتحكم فى الشعر أكثر مما يتحكم العقل ولحظات الأنفعال لاتدع مجالا للتفكير فى المحفوظ والغريب . يقول مطران (١) : « أما نظمه فمتين ، وله فيه نظرات الى زمانه ، ولكنها أشبه شيء بنظرات موجهة من عهد عهيد الى عهد جديد . ليس له فكر عام ثابت يتجه اليه ، ولو التفاتا ، فى أكثر ما ينظمه ، كما يلتفت حافظ الى اجتماعياته . وشوقى الى أخلاقياته ، فهو يقول اجابة لدعوات الطوارىء ، ويلبس لكل حالة لبوسها .

على أننا انما أشرنا الى انتفاء الجامعة التى تجمع ، ولو بصلة ضعيفة ، بين أقسام شعره لأسباب منها : أن السيد شاعر مباه بالشاعرية عن حق ، وكان فى وسعه أن يحل فى الرتبة الأولى من شعراء زمانه ، لو أنه أراد أن يكون من زمانه ، ولكنه انتهى الى عصر آخر ، فلم يبلغ ولن يبلغ هو ولا سواه أدباء ذلك العصر لانهم كانوا يأخذون اللغة رضاعا وفطاما ، وعادة يقظة ومنام وعشرة ومعاش ، ومنها أن السيد طالع شعر الأفرنج ، وعلم منه المهمة العليا التى ينتدب لها الشاعر لا بين امته منفردة ، بل بين الأمم جمعاء أحيانا ، ومنها أن سماحته ادرى بأن الشعر فى بلد محتاج الى التربية والتأديب كمصر ، واذا لم يكن الا طوائف أسطر ترسم مقسومة الى أشطر ففضل الشاعر رب القاصد والمعانى على الوزان مقطع العروض ليس بالكبير ، وهو اذن بما يقتضيه من المنزلة والتجلة غير جدير .

---

(١) مختارات المنفلوطى ص ٧٦ (الطبعة الثانية) .

هذا وللسيد من المقاطيع الشعرية مالا يدع فى معناه مقالا لقائل ، ولا مجالا لجائل ، فلو جارى فى كثيره قليله لأصبح قطبا من اقطاب الزمان فى الجمع بين البلاغة والبيان ، أما وطريقته العامة ما وصفناه ، فالكلمة التى تغلب فى وصف شعره انه فى القرن الرابع عشر المحمدى شعر البعثة الجاهلية . »

وقد يكون فى هذا الرأى بعض الحق ، ولكنه ليس كل الحق ، فمن المؤكد ان منهج البكرى يختلف عن منهج مطران وأن البون بينهما بعيد ، ولكن من المؤكد أيضا أن شعر البكرى ليس شعر الجاهليين وانما هو شعر المدرسة المحافظة على النسق الموروث فى النظم ، وان كانت هذه المحافظة لا تخرجها عن شخصيتها التى تعيش فى مرحلة الصراع بين الجديد وبين القديم . فهو ما يزال يستفتح القصيدة بذكر دور مية واللوى وذكر الفراق (١) ، ولكن ألم يصنع ذلك شوقى وغيره من معاصريه ؟ (٢) الأمر اذن لا يرجع الى البكرى بصورة خاصة ، بقدر ما يرجع الى تلك المدرسة الشعرية التى تأثرت بالقديم فى كثير من ملامحه .

وعندما نهم بقراءة مدائحه ندرك أن المديح فن استهلكه الشعراء من قبل فلن تتوقع ان نرى جديدا من حيث المديح الخالص ، خاصة اذا مدح الخديو ، فهو فى مديحه له لا يستجدى ، ولا يطيل ضنا بكرامته وهو المفامر بشخصيته وبنسبه وبشاعريته ، وانما هو واجب يؤديه كما عرفنا من سيرته ، فهو يستر هنا ضعف الاحساس بالزخارف اللفظية فى كثير من الأحيان . وها هو ذا يبتدىء بذلك النسب الذى أشرنا اليه ، ثم

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٨٤ ، ١٦٥ .

(٢) انظر الشوقيات جـ ١ ص ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ، ١٢٥ ، ٢٤٠ .

يعرج على وصف السفينة التى أقلته الى مصر ، وقد عدل عن وصف الناقة التى كانت توسل الشاعر الى الممدوح وتشق به الصحارى ، الى السفينة التى اوصلته الى مصر وشقت به عباب البحر ، وهو فى هذا الوصف متردد بين القديم والجديد .

اخوض عبابا فوق فلك تظنها
على سروات الماء قصرا مشيدا
تهاوى به مثل العقاب وتارة
ترقى من الأمواج صرحا ممردا
وترزم حينا فيه حتى كأنها
تجوز على الصلات حزنا وقرددا
خضارة مرآة السماء فلم تزل
ترى وجهها فيها وان بعد المدى
فان أشرقت فيه الغزالة خلتها
كمين بجوف البحر تقذف عسجدا
وان لاح تحت الماء بدر رأيته
كماوية يعلو على متنها الصدا
كأنا وقد جزنا لمصر فرنجة
حنيف تخطى من ضلال الى هدى
نؤم بها العباسى فى دست ملكه
كما أم سفار على الجهد موردا (١)

فمن الواضح أن نسيج الشاعر عباسى ، والجو العام للأبيات نشتم منه روائح العباسيين او من سبقوهم فارزام السفينة من ارزام الناقة ، وتشبيه هويها بهوى العقاب قديم ، ولكننا أمام سفينة تقصد مصر والعباس ، وامام لمحات تصويرية

(١) سهاريج اللؤلؤ س ١٦٨ .

جديدة ، كتشبيه البحر بمرآة كبيرة ترى فيه السماء وجهها ، وتشبيه الشمس فوق البحر بعين تقذف عسجدا ، والبدر بصورته العائمة فوق الماء كالمرآة الصدئة ، واجتياز أوربا الى مصر ؛ كما يتخطى الحنيف الضلال الى الهدى . وربما كان هذا الاحتفال الشديد بالتشبيه نوعا من التأثر بابن المعتز العباسى كما يقول العقاد (١) . فكل صفة مهما بلغت من الوضوح لابد لها عنده من تشبيه يؤكدها ، كأن التشبيه مقصود لذاته (٢) .

فاذا ما تخلص الى مديح « العباسى » لم يزد عن وصفه بالحلم والحزم والكرم والشجاعة وبعد النظر ، وهى أوصاف استنفذت صورها حتى احترقت ، وقد أتى شارحا « صهاريج اللؤلؤ » بنماذج كثيرة من الشعر العباسى فى تلك الصفات . وقد حام حول هذه الأوصاف نفسها عندما مدحه مرة ثانية فى قصيدته عن مصر فلم يزد على ان قال :

ملك بضوء جبينه	تسقى البلاد وتمطر
السيد المحصن العلا	والجوهر المتخير
العدل مما ينشر	والمجد مما يذخر
خلق حوى كل الفضا	ئل فهى عنه تؤثر
جود وبأس فى الورى	بهما يخص ويشهر

وله فى مدح السلطان « عبد الحميد » قصيدة واحدة مدحه فيها بما قام به من الدفاع عن الاسلام والمسلمين ، ثم انتقل الى وصف المعركة ، فأعطانا صورة الجيش الذى ملأ الأرض والتوى فى طرقها كما تلتوى الغدران فى مسالك الجبال ، ثم التقى الجيشان فكان كل فارس مسلم أشبه بالنسر ، وكل رومى فريسة

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٧٥ .

(٢) فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٣٧٠ .

فى يده ، ثم يلح على مخيلته فلا يخرج منها الا بصورة ترددت من قبل ، صورة الدخان وقد ملأ الجو والنار تلمع من حين الى حين كما يلمع البرق والصواعق وسط السحب الدكناء ، ثم يلوح النصر فى النهاية . ومن الواضح أن صورته السابقة فى انتصار نابليون التى رسمها نثرا أروع من هـــذه بكثير ، لأنه انفعاله بالصورة التى رآها فى متحف فرساى صبغ لوحة بالصدق الفنى ، أما هنا فان اللوحة من عمل المخيلة ، فهو لم ير الموقعة ولا شاهد صورتها وانما اعتمـد على المخيلة وبها حشد من صور المواقع القديمة فعنصر الصدق الفنى هنا يكاد يكون مفقودا .

أما ويمين الله حلفـــــة مقســـم
لقد قمت بالاسلام عن كل مسلم (١) ...

أسأل فجاج الأرض بالجنــــد يلتوى
كأغـــدرة الوديان فى كل مخـــرم

فمن كل مغـوار ترى الـروم دونه
طرائد وحسن بين أظفـار قشعم ...

عليـــه دخان يقطـر الجمـر بينـه
كأســـود دجن بالصـــواعق يرتمى

وليس غريبا أن يمدح البكرى السلطان « عبد الحميد » بدفاعه عن الاسلام ، هذا المديح الذى أنكره عليه بعض الكتاب (٢) ، فهو لم يطوح بالاسلام كما يقولون ، ولكنه دافع عنه بقدر ما يملك وما يطيعه ، فهو خليفة المسلمين أولا وهو الداعى للجامعة الاسلامية ثانيا ، وقد التفت حوله أفئدة المسلمين فى هذه الفترة وانبعث

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٥٠ .

(٢) فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٣٦٧ .

شعور دينى جارف يربط بين المسلمين ، ومن هنا وجدنا الشعراء جميعا يمدحونه بدفاعه عن الاسلام والمسلمين عن عقيدة لا عن تزلف ، فكثيرون لم يروه ولم ينالوا شيئا من عطاياه مثل أحمد محرم وأحمد الكاشف وغيرهما ومع ذلك لهجت ألسنتهم بالمديح . « وعبد الحميد » هو الذى وقف فى وجه المطامع الصهيونية فى فلسطين خلال فترة حكمه حينما اغروه بأموالهم لسد العجز فى الخزينة فقال لهم لن تنالوا فلسطين الا على أشلائى . ولم يشوه سيرته الا اليهود ، والاستعمار البريطانى الذى حارب الدعوة للجامعة الاسلامية بكل قوته . ولم تلغ الخلافة ويتمزق شمل المسلمين الا بعد خلعه (١) .

وله قصيدة فى رثاء والده بعنوان « أبى » عارض فيها المتنبى حين رثى جدته . ويبدؤها بالدعاء لقبره بالسقيا كما كان يصنع الشعراء القدماء ، ومن الواضح أنه قالها فى وقت متأخر لأن والده مات وهو طفل صغير ، ومن أجل ذلك لا نجد مرة أخرى حرارة الانفعال وانما نجد عمل المخيلة ومديح الميت بالكرم والحسب والتدين والعلم والفصاحة . والمعارضة فى حد ذاتها دليل على انكسار حدة الانفعال وعنف التجربة .

على أن البكرى فى مقطوعاته الصغيرة شاعر حقيقة ، وهى مقطوعات فى الحكمة ، والحكمة (٢) من فلسفة الخاصة ، كما أن المثل من فلسفة العامة . ومن الواضح انها خلاصة تجارب ونظرات فى المجتمع . فمن ذلك قوله عن سعى المرء فى سبيل المجد ، وما قد يعترضه من صغار العقبات ، ولكنها تكون كافية لتوقفه عن المسير :

---

(١) راجع الاتجاهات الوطنية (فصل الجامعة الاسلامية) وحركة البعث (فصل الحياة السياسية) .

(٢) صهاريج اللؤلؤ ص ٢٠٨ وما بعدها .

وفى وسعة المرء نيل العلا وقد يمنع المرء ما يمنع
صفير من الأمر يلهيه عن بلوغ العظائم أو يقطع
كعين تحيط بهذا الوجود جميعا ويحجبها اصبع

ثم يقول فى قطعة اخرى ، ان غضبة الأحمق فى لسانه وسبه وافحاشه ، ولكن غضبة العاقل فى فعله ، فاذا ضاق صدره بانسان أسكت لسانه واستعمل عقله ، وكأنى أنظر الى قصته مع حفنى ناصف فى قوله :

ان احرجوا صدرك لا تنبعث
للقذع بالفحشاء أو مثله
فغضبة الأحمق فى قوله
وغضبة العاقل فى فعله

وله مقطوعتان يصور فيهما الجهل واثره فى استبداد الحكام بالرعية ، فليس للحاكم حول ولا قوة بغير الناس ، فهم اشبه بصانع صنم ثم يرجوه ويخشاه ، ويرى فى احداهما أن الظلم عقوبة الجهل :

لا تعجبوا للظلم يغشى أمة
فتنوء منه بفادح الأثقال
ظلم الرعية كالعقاب لجهلها
الم المريض عقوبة الاهمال

ويرى العقاد أنه تأثر فى ذلك بقول أبى العلاء :

« ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها (١) »

واذا جاز أن يكون البكرى قد تأثر فى المقطوعة الأولى بقول

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٥٨ .

أبى العلاء ، فلم يتأثر فى الثانية بشعر المعرى ولكنه تأثر بقول فولتير (الظلم الواقع على أمة ، عقاب لها على جهلها) (١) .

ويصور فى قطعة من هذه الحكم المتناثرة ، ظهور الشعرة البيضاء وما توحيه من بداية النهاية ، وكأنها أول خيط من خيوط الكفن تنسجه الحياة بعد ذلك ، حتى اذا تم نسجه لبسه صاحبه ، فهى تقف بنا على باب الشيخوخة ، وتجعلنا نتأمل الحياة تأملا عميقا كلما تكاثر المشيب ، وقد صور « شوقى » من بعد تكاثر المشيب وشبهه بالحريق يحيط بخيط الحياة الواهى ولكننا نغفل عنه (٢) .

وقد سبقهما « ابن الرومى » حين شبه خضابه للمشيب بملابس الحداد ، يلبسها حزنا على وداع الشباب . ولكن العقاد حين قارن بين البكرى وابن الرومى فى هـــذا المعنى ، رأى فى قول ابن الرومى تهكما جائزا ولـــكن قول البكرى بعيد حيث لا يخطر على البال أن شعرة الشيب الأولى خيط من خيوط الكفن لا على سبيل الجد ولا على سبيل التهكم (٣) . وهكذا كان شأن النقاد القدماء فى تخطئة المعانى ، فهم يقيسونها قياسا منطقيا ، من حيث ينبغى أن يكون الاحساس هو المقياس الحقيقى .

واذا تركنا هذه المقطوعات وجدنا له بعد ذلك قصيدة فى وصف مصر واخرى فى السياسة وان عرجت على مديح العباس دون جديد فى فن المديح نفسه ، أما الثالثة ففى الغزل وهى التى سماها « ذات القوافى » .

وقصيدته فى وصف مصر (٤) ، قالها وهو بأوربا ، يحس بالغربة ،

---

(١) المستقبل للاسلام ص ٣٣ ، وقد اقتبس البكرى نص ڤولتير فى كتابه .
(٢) فى بيته : حريق أحاط بخيط الحياة تعجبت كيف عليهم غبى .
(٣) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٥٩ .
(٤) سهاريج اللؤلؤ ٨٤ وما بعدها .

ومن اجل ذلك يتعانق الاحساس الصادق بالمخيلة ، يغريه التشبيه فيندفع وراءه ، ولكن الأبيات حقيقة فواحة بزفرات الحنين :

ام قد ذكرت بطاحها وهى البساط الأخضر
والنيل فى لباتها عقد يلوح مجوهر
وغصونها لدن تميد بما تقل وتثمر
فكأنهن ولائد فى حليها تتكسر
هى مثل لوح صور الفردوس فيه مصور
يا جنة يجنى الجنى فيها ويجرى الكوثر
انا شاعر فى وصفها لكنها هى أشعر

فهو هنا يصور البساط الأخضر رمز مصر الخصيبة ثم يعود فيحلى جيد مصر بعقدها الفريد ، بالنيل ، وفى هذه الخضرة المترامية تتعالى الأشجار وغصونها محملة بالثمار أشبه بالصبايا يتكسرن فى مشيهن وهن حاليات ويحس أن صورته لم تعبر عن كل أحاسيسه فيعود ينظر الى صورته والى صورة مصر فيشبهها بلوحة صورت فيها الجنة ثم تتمثل له جنة حقيقية فيناديها عاها تسمع نداءه .

ويستمر فى القصيدة ، فنراه فى بعض أبياته يقتفى أثر البحترى فى وصف ايوان كسرى حين يعرض لوصف قصر عابدين والصور التى تزينه وقد مثلت عليها الوقائع الحربية ، كما لاحظ ذلك عمر الدسوقى (١) من قبل :

فترى الوقائع منظرا وكأنما هى مخبر
والجند تخطر فى الحديد فدارعون وحسر
والخيل بين عجاجها تخفى وحينا تظهر
وتظن أحياناء به فتمس كيما تخبر

---

(١) فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٣٧٢ .

ثم يصف نساء مصر وقد خرجن للنزهة بين أرجاء الجزيرة فى مركباتهن ، فصور المركبة بالمشكاة والحسناء فيها بالمصباح ، وينتقل بناظريه وخياله بين ربوع مصر فيذكر الجيزة ويتوقف عند حديقة الحيوان ، ولكن انفعاله كان قد هدأ فيظهر عمل المخيلة فى تأليف التشابه :

فيهـــا النعـــامة والحبـــارى والمهـــا والقســـور
كســـفين نوح أظهـــرت ما كان فيهـــا يضـــمر
وجـــداول كســـبائك بســـنا الأصـــيل تعصفر
ماء كبلـــور يـــذوب وأدمـــع تتقطـــــــر
وعليـــه من نسج الصـــبا درع هنـــاك ومغفـــر

وقد تأثر فى هذا الوصف بقول « ابن المعتز » :

غـــدير ترجـــرج أمواجـــه
هبـوب الرياح ومـــر الصـــبا
اذا الشمس من فوقـــه أشرقت
توهمتـــه جوشـــنا مذهبـــا

وينتقل الى وصف المتحف وقد حشدت فيه أجساد الفراعنة ، فيستثيره المنظر وهو يفكر فى الموت والحياة ، فيرى الدنيا مسرحا تمثل فيه رواية الحياة والليل ستارة المسرح ايذانا بانتهاء فصل وابتداء فصل جـديد ، والشمس نور ذلك المسرح والناس هم الممثلون ، هذا يمثل جنـديا وذاك سوقة ، وثالث فى دور الملك ورابع فى دور التابع ، ثم ينتهى المسرح ويخلع هذا تاجه وذاك ملابسه ، فاذا بهم جميعا قد تساووا .

نشرت به أمواتهـــم فكأنمـــا هـــو محشر
رمسيس أين مطـــارف الديبـــاج أين الجوهـــر
نـــم فى رقـــاد ليس فى أحـــلامه ما يذعـــر

فالمـــوت نوم أكبـــر والنـــوم مـــوت أصـــغر
دنيــا تشــابه ملعبــا والليـــل ســـتر يســـتر
الفصـــل يضـــحك والثريا الشمس فيـــه تنـــور
جنـــد هنـــاك وســوقة ومتـــوج ومســـخر
فاذا طـــرحت ثيابهـــم ســـاوى الأعـــز الأحقـر

ثم ينتقل الى ذكر الأزهر وهو يحفل بالعلوم كما تحفل خلية النحل بالجنى ، والى الأزبكية ويلتقط لهـــا عدة مناظر ، منها منظر الشمس وهى تلوح بصفحتها أشبه بالحسناء تنظر فى مرآتها ، ويمر أمامه فى شريط الذكريات ، منظر القلعة بعد ذلك وقد قامت مآذنها وامتدت عالية كالحق لا ميل فيه ولا عوج ، وتتعدد الصور وتتكاثر فيهتف من أعماقه :

فى كل ركن مخبـــر وبـــكل ســـفح منظـــر

ولكن هناك من الصور ما توارى وخبأته يد الزمن وأصـبح رؤيا نائم وان بقيت الأهوام شاهدة شهادة حق لا تنكر ، فالمجد خالد لا تزول أناشـــيده . وما زال يتـــردد فى أسماعنا نشـــيد الانتصار حين تحولت مصر الى مقبرة للغزاة يوم جاءها الصليبيون فأسر ملكهم . وهو مؤمن بالمستقبل يحدوه الأمل فى قدرتنا على أن نعيد أمجادنا ، مؤمن بالتطور وبميلاد شعب جديد فى مصر . وهكذا نلاحظ فى هذا الوصف الممتع الطويل قدرة الشاعر الكبيرة على التصوير مثلما رأيناها من قبـــل فى نثره ، ولا نلمح هدوء الانفعال الا حين تلح عليه المخيلة بصور الماضى .

أما قصيدته السياســـية ، فقد أخفى مقصده تحت عنوان « فصل الربيع » ثم عاد فأخفاه ثانية عندما مدح الخديو فى نفس القصيدة ، ولكن مقصده واضح ، فبلاده التى أحبها ، قد أصبحت مطمعا لكل مغامر غريب ، فالسلطة فيها للخـــديو الغريب ،

او للاستعمار الغريب ، بل لكل أحد من دون ابنائها ، ففى كل يوم يسمعون وعيدا ويرون حدثا لأن المستبدين لا يهمهم هذا الشعب فى كثير أو قليل ، ولكن الشعب لا يرضى الذل ، فهو صاحب الأمجاد الخالدة ، وليس من سبيل الى خداعه عن آماله ، ولكن ما السبيل الى تحقيق تلك الآمال ؟ ان الضغط يعقبه الانفجار ، فطريق الثورة اذن هو الطريق الوحيد الذى ترفرف فى نهايته أعلام السيادة .

يا زمنا حدثانه ما تنتهى فتبتدى
احس قومى انهم احرار غير اعبد
ليست لهم بلادهم وهى لكل أحد
فهم لذاك أصبحوا فى مبرق ومرعد
لم يرتضوا بذلة كالعود أو كالوتد
او بهرج شيد على مستقبل مهدد
ككفن مزركش من فوق ميت ملحد
كم شدة عادت على اصحابها بالسؤدد
كالعود احيا نشره احراقه فى الموقد

ولعلنا لاحظنا بعد كل هذا أن الغريب فى شعره قليل قلة نادرة على عكس نثره ، ولاحظنا ان للمخيلة عملها وتدخلها الكبير فى نثره على عكس شعره الذى لم تعمل عملا فيه الا فى القليل النادر ، اما اكثره فهو صادر عن الاحساس الصادق ، ولعلنا لاحظنا أيضا ان شعره قليل اذا ما قورن بنثره ، ويعلل لذلك العقاد حين يقول : « كان يكتب كثيرا ولا ينظم الا عرضا فى أثناء الكتابة أو فى خاطرة عابرة قلما يسترسل معها الى الاطالة ، فاتسعت له فى النثر مجالات السليقة الشاعرة ، وظهرت فيه لفتات الشاعر واغراضه ، وخصائص ذوقه وفكره ، ولعله لو أطال النظم كما اطال النثر لكثرت موضوعاته وتساوت فى هذه المزية قصائده ومقاماته ، وربما

كان البكرى ممن يرون كما كان يرى الأقدمون (ان الشعر أسرى مروءة الوفى وأوفى مرءوة السرى) وأن الانقطاع له والاكثار منه لا يجملان بصاحب المقام الدينى والحسب العريق ، وليست الكتابة كذلك عند أصحاب هذا الرأى ولا سيما الكتابة التى تصاغ فى قالب الرسائل بين الأكفاء ولا يطلع عليها القراء الا اذا طالعهم بها أديب من محترفى الصناعة ، ليتولى هو شرحها وتقديمها الى الناس كما جرى فى كتاب (صهاريج اللؤلؤ) ديوان البكرى الجامع لنخبة نثره وشعره . ويؤيد ذلك أن البكرى طبع كتابه (أراجيز العرب) وشرحه وقدمه ... فهو يتقدم هنا بنفسه ولا يحتاج الى شارح غيره لأن التأدب بحفظ الأشعار ورواية الأخبار مما يطلب من الأسرياء فى الزمن القديم ، ولأن التأليف والتفسير فىالأراجيز والمختارات أشبهباملاء الدروس منهباحتراف الكتابة ، أما اذا ظهر له كلام منثور كما ظهر فى (صهاريج اللؤلؤ) فالأجمل أن يكون اظهاره وشرحه موكولين الى غيره » (١) وهكذا ترك البكرى للشيخين أحمد الشنقيطى وأبو بكر محمد لطفى المنفلوطى شرح « صهاريج اللؤلؤ » .

يقول الشارحان : « يظن بعض الناس أن الشعر كما قيل فى تعريفه (الكلام الموزون المقفى) وهو ليس كذلك ، بل الشعر هو كما قال صاحب السماحة المؤلف فى وصف أحد البلغاء (شاعر الا انه فيلسوف وفيلسوف الا أنه شاعر ، فكره عالم الحقيقة والمثال ، لأن الفلسفة شعر الا انها حقيقة والشعر فلسفة غير انه خيال) وانما الكلام الموزون المقفى هو المحل المختار الذى يسكنه الشعر ، ومن الطف تعبيرات العرب تسمية هذا المحل (بالبيت) فيقولون بيت الشعر الذى يسكنه ، لأن الذى جرى عليه الاختيار

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٧٠ .

من قديم هو وضع كثير من الشعر فى ذلك المحل وهى (الأوزان الموسيقية) . على أن معظم الشعر وأجوده لم يوضع فى ذلك المحل بل أختير له النثر المرسل ، والمرسل المسجع فى العربية وهذا الذى يسميه الافرنج (الشعر المنثور) أما القافية فقد جرى الاصطلاح عليها أيضا تتميما النغم الموسيقى اى الوزن ، الا أن العجم من فرس وافرنج وغيرهم جعلوها بطريقة سهلة لأنهم جعلوا لكل شطرين قافية أو لكل أربع شطرات قافية ونحو ذلك ؛ فلم يتقيدوا الشعر الا بقيد خفيف يسهل معه البلوغ الى جميع الأغراض وتناول كثير من الأفكار ، أما العرب فقد جعلوا القافية واحدة فى كل القصيدة ، فأصبحت الاجادة فى الشعر عندهم أو البلوغ به الى التعبير عن المقاصد المختلفة من أصعب الأمور ... وقد أراد المؤلف بهذه القصيدة التى أسماها (ذات القوافى) ايجاد مثال للشعر المتعدد القوافى فى العربية وفك هذا القيد الشديد المانع الشعر من الارتقاء » (١) .

وهذا الالتفات المبكر الى شكل القصيدة العربية والرغبة الملحة فى تحطيم قيد القافية ذات النغمة الرتيبة يؤكد رأينا بأنه واحد من تلك الحلقة الذهبية التى أخذت بصالح القديم دون أن تتعصب الى حد فناء الشخصية وبصالح الجديد دون أن تحاول اقتلاع الجذور ، مؤمنة بأن التطور هو عملية بناء وليس عملية اقتلاع . ومن أجل ذلك نلاحظ — كما لاحظ العقاد (٢) — أننا أمام ناظمين أحدهما يولى وجهه شطر الموروث فيتحدث عن دورمية والآخر يولى وجهه شطر حركة التجديد فيضع ذلك المضمون القديم فى شكل جديد ، هو الشعر المرسل ويسمى

(١) مهاريج اللؤلؤ (حاشية ص ٣٤٠) .
(٢) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٦٢ .

القصيدة « ذات القوافى » (١) . وليس فى القصيدة جديد من حيث المضمون فهى غزلية استطاع شـــارحاها أن يردا أكثر أبياتها الى أصولها فى الشعر العربى ، ولكنها بقيت ترمز الى المدرسة الشعرية التى ينتمى البكرى اليها ، رمزا قويا لا لبس فيه ، أعنى الكلاسيكية الجديدة .

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٢٤١ .

النّـــاقد

ما زال النقد بين الفن والعلم موضع اختلاف ، فعلى الرغم من الدراسات النفسية التى أخذت طريقها الى النقد الأدبى محاولة تعميق مفاهيمه ، ففرقت بين عمل المخيلة وعمل الاحساس وتعرضت للتجربة والصدق الفنى ، وأخذت تشرح دوافع الابداع تشريحا ، وعلى الرغم من تأثر النقد فى مراحل تطوره بالمنطق حينا وبالمنهج التاريخى حينا آخر ، وبعلوم الاجتماع والأجناس والجمال فى عصرنا الحديث ، الا أن الجانب الذوقى ما زال له مكانته الكبيرة فى ميدان النقد الأدبى . وما من شك فى ان الذوق نفسه يصدر عن عوامل متشابكة كالبيئة والثقافة والوراثة والعادة ، الا أن أحكامه فى النهاية ذاتية .

فعندما كان الناقد العربى القديم يحكم على البيت بأنه أشعر ما قيل فى الغزل أو الهجاء أو المديح كان يصدر عن ذوق ، وعندما كان ابن سلام يقسم الشعراء الى طبقات ، كان مقياس التفضيل بين الشعراء الذين عاشوا فى بيئة واحدة وفى زمن واحد هو المقياس الفنى أى كثرة الشعر وجودته ، وهو فى ناحية الجودة يصدر عن ذوق أيضا . وكذلك عندما كان المفضل الضبى يجمع مفضلياته ، وعندما كان الأصمعى يجمع أصمعياته ، وأبو تمام يصنف حماسته ، كانوا جميعا يقومون بعملية نقدية تتلخص فى انتقاء قصائد بعينها ، واختيار أبيات بعينها من بعض القصائد ، على أساس ذوقى ، وان كان الذوق فى كل هذه الحالات ، هو ذوق الناقد المثقف . وكذلك الشأن عندما صنف البارودى مختاراته والبكرى « فحول البلاغة » « وأراجيز العرب » فى عصرنا الحديث .

ومن الواضح أن مختارات البارودى ومصنفات البكرى تهدف أول ما تهدف ، الى احياء التراث ، فهى محاولة تضــــاف الى محاولات العصر كله ، التى كانت تنظر الى التراث نظرة الكلاسيكيين الأوربيين الى التراث اليونانى ، وان كانت نظرة العرب أواخر القرن الماضى واوائل هذا القرن الى تراثهم أكثر عمقا وشمولا . فهو يمثل لهم الفكر الاسلامى واللغة العربية والمثل العليا فى عصور السلامة والقوة ، ومن الغريب ان المطلع على « معجم المطبوعات العربية » الذى يضم كل ما طبع حتى عام ١٩١٩ ، يجد أن أول ما لفت نظر المعاصرين من التراث ، هو الأدب بشعره ونثره (١) ، لأنه فى نظرهم مرآة حياتهم وسجل قيمهم ومعجم لغتهم ، وهو من ناحية أخرى الجانب الخصب فى انتاجهم الفنى الذى يهدف الى بناء الانسان نفسه قبل بناء حضارته المادية . واذا استطعنا ان نكون الانسان العربى الحديث تكوينا سليما ، استطعنا أن نضمن بعد ذلك انطلاقه الى بناء حضــارته الجديدة على أسس سليمة من الماضى القويم . ونحن نستطيع أن نستعين بالأوروبيين فى انشاء طرق المواصلات أو بناء دار الأوبرا أو غير ذلك ، فتعمل بأيد مصرية وتصبح مواصلات مصرية أو مسارح مصرية ، والحقائق العلمية حقائق انسانية عامة لا تختلف من بيئة الى بيئة ولكن العادات والتقاليد والمثل العليـــا هى التى تختلف وهى التى تصور ايمان الانسان أو الحاده ، وتماسكه أو انحلاله وفلســـفته فى الحياة بصورة عامة من حيث نظرته للحق والباطــل والجمال والقبح والخير والشر .

ويرتبط بهـــذا الهدف أمر آخر يتعلق بالتوجيه فى صناعة الأدب ، فقد كان على الأديب الناشىء قديما (٢) أن يحفظ الكثير

(١) راجع أيضا قصة الأدب فى العالم ج ٣ قسم أول ص ٣٣٨ وما بعدها .
(٢) المقتطف يناير ١٩٠٦ .

من شعر الجاهليين والاسلاميين أو أن ينثر ديوان الحماسة ، والهدف من ذلك تكوين الأديب تكوينا لغويا وفنيا . وهكذا الشأن فى « فحول البلاغة » « وأراجيز العرب » للبكرى ، فمن المسلم به أن الاراجيز تحوى من غريب اللغة مالا يستوعبه أى نص أدبى آخر ، فهو يهدف اذن الى تكوين الأديب المعاصر تكوينا لغويا ، بعد أن شاع الدخيل ، ثم يهدف بعد ذلك الى تقديم نماذج جيدة من الشعر والنثر فى العصر العباسى لتكون أشبه بالاطار الثقافى للأديب يكونه تكوينا فنيا ، فلا يتطلع بعد ذلك أو يسقط وهو يرتقى سلم الشعر الطويل ، فالمثل الأعلى فى الشعر هو هذه النماذج التى ينبغى أن نحتذيها فى فترة الانبعاث ، وتلك مهمة الناقد الموجه للأديب .

اختار البكرى من فحول البلاغة ، ثمانية شعراء هم مسلم ابن الوليد وأبو نواس وأبو تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز والمتنبى وأبو العلاء . وكلهم عباسيون كما نرى ، ففى هذا الاختيار معنى تفضيلى للشعر العباسى من حيث القيمة الفنية ، أو هو قمة الشعر العربى فى مراحل تطوره . ولكن الواضح أن ما اختاره لأبى العلاء يقارب نصف الكتاب كله ، وقد وقف طويلا عند نثره قائلا : « ان لأبى العلاء رسائل كثيرة فى الأدب كأحسن ما كتب الكاتبون ، وقد نحا فيها منحى الشعر من الاكثار من التشبيهات والمعانى المخترعة وغيرها من المحسنات . » (١) فهو يرى نثر أبى العلاء نوعا من الشعر المنثور فيه خيال الشاعر ودقة تصويره ونبض أحاسيسه ، وموسيقاه الممثلة فى السجع ، ومن المؤكد أن البكرى يتأثر أسلوب أبى العلاء فى نثره الفنى ، أو شعره المنثور الذى تحدثنا عنه فى « صهاريج اللؤلؤ » ، ولكل ذلك فهو لا يفرق

(١) فحول البلاغة ص ١٨٨ .

بين هذا اللون من النثر وبين الشعر فى مختاراته أو فى كتابه السابق .

وقد علق المقتطف على ظهور الكتاب قائلا : « هو سفر جامع للمختار من شعر ثمانية من فحول الشعراء ... ونصف الكتاب المختار من شعر المعرى ونثره ونصفه للمختار من شعر بقية الشعراء ، وفيه معانيهم المخترعة وتخيلاتهم العالية ... وعلق على بعض الشعر شرحا موجزا ، وعلى نثر أبى العلاء المعرى شرحا مسهبا كثير الفوائد . وقد بلغنا أن سماحته الف لكل شاعر من هؤلاء الشعراء كتابا قائما بنفسه جمع فيه ترجمته ونعوته وكيفية تصوراته فى الشعر وطريقته فى الصناعة والانتقاد على أقواله ... وحبذا لو اسهب فى شرح الشعر فى هذا الكتاب وبين ما فيه من المعانى المبتكرة وقسمه أقساما بحسب موضوعه أو بحسب قوافيه واضاف اليه فهرسا يستدل به على موقع كل فصل والى رؤوس الصفحات ، ما يعلم به اسم الشاعر الذى فيها شعره تسهيلا للمراجعة » (١) .

لاحظ المقتطف اذن احتفال البكرى بأبى العلاء المعرى فى شعره ونثره ، واذا كنا قد فسرنا سر اهتمامه بنثره الفنى يرجع الى اعتباره لونا من الشعر ، فان سر اهتمامه بشعره يرجع دون شك الى ما فيه من فلسفة وحكمة ، أو بمعنى آخر ما فيه من مواقف انسانية . واذا كان قد أطال فى تفسير نثر أبى العلاء ، فذلك يرجع الى الاشارات الكثيرة فى نثره التى تتعلق بحقيقة تاريخية أو بمثل قديم ، وكل هذا يحتاج الى تفسير للقارىء . اما الشعر — خاصة وهو شعر عباسى — فلا يحتاج الا الى تفسير بعض غريبه ، أو الوقوف عند معنى غامض ، دون أن يعمد الى شرحه شرحا قد يقتل

(١) المقتطف يناير ١٩٠٦ .

موسيقى الأبيات وما فيهـــا من ايحاءات جمالية ، فمن المؤكد ان الكلمة عند الشاعر ذات طاقة ايحائية مركزة بحيث يصعب او يستحيل على الناثر فى كثير من الأحيان أن يرفعها ويضع مكانها كلمة اخرى ، أو يحاول تفســيرها دون أن يفقـــدها كثـيرا من حيويتها .

ونحن نعرف ان البكرى لم يترك لنا فيما ترك من مؤلفات ، تراجم لشاعر أو لمجموعة من الشعراء ، فلعله رغب فى ذلك ، ولكن لم تسعفه الظروف التى مرت به ، حتى يتفرغ لذلك العمل . ولكن ملاحظة المقتطف الأخيرة هى الجديرة بالوقوف عندها . فلو قسم لنا البكرى مختاراته حسب الموضوع ، لوضع يدنا على سر اختياره للقصيدة . ومن أجل ذلك فنحن محتاجون للاجابة عن هذين السؤالين : على أى أساس اختار قصائده ؟ وعلى اى أساس كذلك انتقى ابياتا بعينها من القصائد ؟ .

ان القصائد الكاملة نادرة فى مختاراته ، ولـكننا نجد سينية البحترى التى عارض بعض صورها فى وصفه لقصر عابدين كما مر بنا ، ونجد دالية المعرى « غير مجد فى ملتى واعتقادى » التى تأثر البكرى بقوله فيها : « وشبيه صوت النعى اذا قام بصوت البشير فى كل ناد » وذلك فى مقطوعة :

وما اذن القوم لمـــا اقاموا صـــلاة الجنازة يوم الوفاة
واذن للطفــــل يوم الولاد فهــذا الأذان لتلك الصــلاة

ومن الواضح أن القصيدة الأولى وصفية أشبه باللوحة الكاملة وأن الثانيــة تزخر بالحكمة العميقة ، فسر الجمال عنده يكمن فى الأثر النفسى الذى تتركه القصيدة فى قارئها ، وهكذا نستطيع ان نفسر اختياره .

فالشاعر عندما يهجو مثلا يكون مغيظا ولكن القارىء لا يشاركه

هذا الغيظ ، وعندما يمدح يرغب فى العطاء والقارىء لا يناله شيء من ذلك العطاء ، وكذلك الشأن فى المواقف التى لا يتجاوب القارىء مع الشاعر القديم فيها ، على عكس المواقف الانسانية الخالدة . ومن النادر أن نجد قصيدة كاملة فى الوصف أو فى الحكمة ، ومن هنا كانت القصائد قليلة ، على خلاف المقطوعات .

وأساس اختياره لأبيات معينة من القصيدة يرجع الى هذه الناحية ، وقد أعانه على ذلك ، أن البيت الشعرى المفرد ، مستقل بافادته عما قبله وعما بعده كما يقول ابن خلدون فى مقدمته ، وقد ترتب على هذا أنه استطاع انتقاء الجزء الذى يبغيه من القصيدة والذى يصور وحدة فكرية أو صورة مستقلة ، فالقصيدة العربية بوجه عام متعددة الأغراض ، ومن الحق أن الشاعر كان يعرف حسن التخلص من غرض الى آخر ، ولكن ذلك لا يمنع أن انتقاء جزء معين كالوصف مثلا وترك جزء آخر كالمديح لا يخل بوحدة القطعة المنتقاة .

وهكذا انتقى البكرى أبياتا للمتنبى فى الحكمة تحكى تجربة انسانية وتقطر لنا الألم تقطيرا ، وترك بقية قصيدته « عيد بأية حال عدت يا عيد » التى يهجو فيها كافورا هجاء مرا ، لأن الهجاء تجربة فردية محضة ، أما الأبيات التى اختارها فهى اللحن الباكى للشاعر الذى جرب قسوة الأيام وتجرع مرارة اليأس وذاق عذاب الحرمان :

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى
شيئا تتيمه عين ولا جيد

ياساقيى أخمر فى كئوسكما
أم فى كئوسكما هم وتسهيد

اصـــــخرة انا مالى لا تحـــركنى
هـــذى المدام ولا هـــذى الأغاريد

اذا أردت كميت اللون صـــــافية
وجـــدتها وحبيب النفس مفقـــود

ماذا لقيت من الدنيـــا واعجبهـــا
انى بما انا باك منـــــه محســـــود

وترك كثيرا من قصيدة المتنبى فى « شعب بوان » ووقف أمام اللوحة الرائعة التى رسمها الشـــاعر للجنة وقد توقفت الخيل لا تود ان تبرحها الى أرض اخرى والندى يتساقط كالجمان على أعراف تلك الخيل ، ولكن الشاعر الفارسى يواصل سيره وأغصان الأشجار الملتفة على مدى النظر تحجب الشمس عنه ، الا اشعة من ضيائها تنير له الطريق ولا تلفحه بقسوة الحر ، وانما ترسم من خلال الغصون دوائر ذهبية تنتثر امامه أشبه بالدنانير ، فاذا ما صـــد ببصره الى ملقى الدنانير التى تفر من يديه ، لم يجد الا الغصون وقد اثقلتها الثمار . ولكنه ثمر عجيب يبدو امام الناظر لصفائه ونقائه الشديد كأنما هو شراب قد تجمد او « اشربة وقفن بلا اوانى » ، فاذا ما سرح الطرف الى الأمواه على جانب الطريق ترامت الى مسامعه موسيقى عذبة تنبعث من صليل الحصى كلما عبثت به المياه فى حركتها الدائبة كما تتحرك أيدى الغوانى الحاليات فتترامى الى مسامعنا وشوشة الحلى المنغمة . فالشـــاعر هنـــا لا يلتقط الصورة كما يلتقطها المصور وحسب ، وانما يحرك صوره تحريكا يعجز عنه الرسام ويعطينـــا فسحة من الزمن فى هـــذه الحركة ، بينمـــا يتجمد الزمن فى يد المصور . وهكذا نرى كيف كان البكرى يتخير القصيدة او يتخير الأبيات .

وفى نفس العام صدرت للبكرى مختاراته من اراجيز العرب كما قلنا ، ولم تجمع من قبل فيما نحسب مختارات للرجز ، وكأنما أحس أن الرجز من حيث المستوى الفنى دون الشعر ، فاحتاج أن يقدم لكتابه بقوله :

« وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب سماع الرجز من الشعر . روى أن العجاج أنشد أبا هريرة (ساقا بخنداة وكعبا ادرما) فقال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يعجبه نحو هذا من الشعر . وقد كان الرجز ديوان العرب فى الجاهلية والاسلام ، وكتاب لسانهم ، وخزانة أنسابهم وأحسابهم ، ومعدن فصاحتهم ، وموطن الغريب من كلامهم ، ولذلك حرص عليه الأئمة من السلف واعتنوا به حفظا وتدوينا . قيل ان أبا سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ، كان يحفظ الف أرجوزة ، وقيل مثل ذلك عن أبى تمام حبيب بن أوس الطائى وغيره . ومن وصاياهم المعروفة رووا أبناءكم الرجز فانه يهرت اشداقهم » .

فالتفاته الى الرجز اذن نوع من التأثر بالسلف فى توجيه الناشئة توجيها لغويا وفنيا ، فهو فن العرب الخلص وموطن الغريب ، كانوا يهتمون بتنشئة أبنائهم على روايته ، ومن اجل هذا يختار منه المقطوعات لأشهر الرجازين ، ويفسر ما غمض منه . وكأنما يكتسب عنده الرجز صفة قريبة من القداسة لأن النبى كان يحب سماع هذا اللون ، فهو يرد مقدما عمن قد يتساءلون عن قيمة هذه المختارات اذا كان القدماء أنفسهم لم يعنوا بانتخاب مختارات منه .

وما كاد يصدر الكتاب حتى تناوله المقتطف بالنقد قائلا : « يندر أن ننتقد كتابا من الكتب التى تهدى الينا لأسباب أولاها بالذكر اننا رأينا الكتاب يتهيبون الانتقاد ويخاصمون المنتقد

حاسبين انه يقصد لهم شرا ولا سيما اذا كانوا يكتبون للتعيش ، وهم لو أنصـــوا المنتقد لجازوه مالا ومدحا على انتقاده كتبهم ولا سيما اذا أبان مغامزها ومواقع الضعف فيها ، فلما وقع نظرنا على كتاب أراجيز العرب الذى ألفـــه صاحب السماحة السيد محمد توفيق البكرى شيخ المشايخ فى القطر المصرى ، قلنا هذا كتاب يستحق الانتقاد لأن مؤلفه لم يؤلفه للاكتساب ولا هو ممن يخشى أن تعرض بضاعته للنقد . ولابد من أن يكون قد تخير أبلغ الأراجيز وعلق عليها شرحا مسهبا فسر غريبها وبين مدلولاتها من حيث أخلاق العرب وعوائدهم ، ولو كنا نعلم أن (الرجز من سفاسف القريض) . فأخذنا نقلب الكتاب ونتصفح الأرجوزة بعد الارجوزة ونتلو ما على أبياتها من الشرح الموجز والمسهب حتى اتينا على جانب كبير منه ، فأغلقناه آسفين على الوقت الثمين الذى اضاعه المؤلف فى جمعه وتحريره لقلة نفعه بالنسبة الى ما بذله فى تاليفه من المشقة وفى طبعه من النفقة . ولسنا نحسب هذا الكتاب أول دليل واعظم برهان على فضل مؤلفه علامة الزمان كما قال احد مقرظيه ، بل عندنا أن فى كل فصل من كتابه (فحول البلاغة) من الفوائد والفرائد ودلائل العلم والفضل اكثر مما فى هذا الكتاب كله ، فحبذا لو أتحفنا بمثل تلك النفثات لأن ديوان الانشاء واسع النطاق ، وقل أن تجد بين كتابنا من اتقن لغة الأعراب مثله ، واطلع على كنوزها وعرف أساليب البحث التى اتقنهــــا الأوربيون حديثا . وهى المعبر عنها بالتحليل والانتقاد . » (١)

ان ما قدره البكرى قد وجده فى هذا الانتقاد فالرجز حمار الشعر او من المهمل واذا كان البكرى قد احتج لرأيه حين ذكر قيمته فان المقتطف لم يثبت رايه بدليل كأنه قضية مفروغ منها ،

(١) المقتطف نوفمبر ١٨٩٥ .

وما زال الشرح موضع انتقاد بالرغم من أنه لم يترك كلمـــة دون تفسير ، وبالرغم من الاســهاب فى بعض المواضع التى تحتاج الى ايضاح أو مقارنة . ولم يتحدث المقتطف صراحة عن سوء الاختيار ، ولكن يفهم ضمنا من حـديثه أن البكرى لم يوفق فى اختياره . وقد سمت صاحب الأراجيز فلم يرد على الانتقاد ، ولكن العدد التالى من المقتطف كان يحمل نقدا اقسى وهجوما اعنف لمحمد المويلحى ، وعلى الرغم من أن المويلحى لم يخرج فى انتقاده عن النقاط التى آثارها المقتطف من قبل ، الا أن حججه قوية ، وأسلوبه شديد السخرية . يقول المويلحى :

« وضع جامع الأراجيز فصلا فى تفضيل الرجز وعلو شأنه وسمو مكانته واستشهد على ذلك بقوله (وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب سماع الرجز من الشعر وهـــذا أخبار حكمه حكم الحديث المرفوع لأنه لا يقوله الا معاين ، فكل مسلم يطالبه من أين له هذا وفى أى كتاب وجده وبأى سند يرويه . ثم استدل على تفضيل الرجز ايضـــا بقوله : (روى أن العجاج أنشد أبا هريرة ، فقال كان النبى يعجبه نحو هذا من الشعر) وقد ذهب فى هذه الرواية الى غير المقصود منها وحملها على غير حقيقتها لأن المشار اليه فيها هو أوصاف النساء فى الشعر لا نفس الرجز ، وغرض الشاعر ان يسأل أباهريرة عن التشبيب بالنساء فى الشعر هل عليه فيه حرج فى الاسلام وأنشده هذه الأبيات :

قامت تريك رهبـة أن تصرما ســاقا بخنـداة وكعبا أدرما

فقال ابو هريرة : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد مثل هذا فلا يرى بأسا ...) وعلى هذا فقد اخطأ جامع الأراجيز فيما ذهب اليه وتعمد نسبته الى النبى عليه السلام . وليس الرجز فى الموضع الذى وضعه فيه من الرفعة ، بل هو شىء حقير ، وبين علماء اللغة اختلاف هل الرجز شعر أو نثر ، ولم يكن له شأن عند العرب ولا مقدار ... وان كان الرجز من الشعر فهو من حثالة

القريض وغناء القصيد وهو عند العرب بمنزلة الزجل عند العوام في أيامنا ، وما استعملته العرب في جاهليتها الا وقت الضرورة وحين المناسبة في بعض المواقف لأنه أقرب تناولا من الشعر ، ولم يقولوا منه الا البيتين أو الثلاثة ، وكانوا يقولونه ركبانا ومشاة ويساجلون به على الآبار ...

« وقد صدر جامع الأراجيز كتابه بقوله : (هذا كتاب وضعناه في ذكر المختار من أراجيز العرب وتفسير غريبها وشرح معانيها وتبيين مقاصدها) ، ومن يتصفح الكتاب يجد ان جامعه لم يستوف شيئا مما جاء في هذا القول ، وقد قصر كل التقصير عن الوصول الى هذا البيان وأشوى الغرض واخطأ الاصابة . ونحن نبين هذا للقارىء الكريم بيانا جليا بذكر ما يحتمله نطاق المقتطف من الشواهد التي ننقلها عن هذا الكتاب ، وما نورده من النموذجات التي تدل على بغيته . قال الراجز :

عوجا تبـــارى ناعجـــا مفوقا أعيس محضا أو نجاة دمشقا

وقال الشـــارح (مفوق أى معلم والعيس حمرة الى بياض والدمشق الخفيفة) ... فعلى هذا يجرى الشرح وينهج ، لا يكاد فهم القارىء يمسك منه شيئا ويقف للبيت على معنى كأنما واضعه من شدة الاختصار يكتب تلغرافا صادرا عن البيوت التجارية ... وأضف الى ذلك انه كثيرا ما يقتصر على الكلمة الواحدة او الكلمتين في شرح البيتين والثلاثة والأربعة والقصيدة المستغلقة الألفاظ ... ونرد على ذلك ان الأبيات التي يروق لجامع الأراجيز ومفسر غريبها وشارح معانيها ومبين مقاصدها أن يحل معناها ويشرحه ، اما أن يردد الفاظها بذاتها ويقتصر عليها وأما أن يذكر عنها جملة موجزة مضطربة ...

« أما ما قاله جامع الأراجيز عن تبيين مقاصدها ، فلم نفقه له معنى بعد أن اتينا على الكتاب اطلاعا ، فان أراد معاني الشعر فقد رأيت ما رأيت من ذلك ، وأن قصد به بيان المناسبات والوقائع

التى قيلت لأجلها القصيدة ولأى سبب وضعت وما هو تاريخها ومن المقصود بها ومن الممدوح فلم نشر لذلك على شيء يستحق الذكر سوى انه ابدل اسم الممدوح بغيره فى قصيدة العجاج اللامية التى يمدح بهـــا يزيد بن معاوية فرفعه ووضـــع مكانه يزيد ابن عبد الملك ...

« هذا وليس الذى جمعه صاحب الكتاب بالمختار من الأراجيز ، فقد أساء الاختيار واخطأ الانتخاب ووقعت يده على القصائد المحشوة بحواشي الألفاظ وسخرى القوافي وغليظ المعانى . حتى ان القارىء ليخرج من الكتاب وما فى يده شيء منه وما يعلق بذهنه بيت فرد من تلك الأبيات ، لا بل جلمود من صم تلك الجلاميد ... ويقول قوم ان كتاب الأراجيز ليس لصـــاحبه والنزاع واقع في أمره . » (١)

ومن الواضح ان نقد المويلحى يدور فى جملته حول النقاط التى اثارها المقتطف من قبل كما قلنا ولكن بصورة اقسى وبحجج اقوى ، ولكن الجديد فيه أنه يثير امرين آخرين ، أولهما يتعلق بجامع الأراجيز نفسه ، والحقيقة ان هذا الراى أثير فى ذلك الوقت على اساس أن جامعه هو الشيخ الشنقيطى العالم اللغوى ، ولكن اى فخر يزيد من قيمة البكرى أن ينسب الكتاب اليه ؟ ثم أليس البكرى نفسه من اكبر المتعمقين فى ادبنا العربى ومن اكبر لغويى ذلك العصر ؟ لقد اثيرت فى ذلك الوقت مسالة تحقيق « لسان العرب » وكتب مصطفى لطفى المنفلوطى حول هذا الموضوع واراد ان يرشح احد اللغويين لذلك العمل الضخم ، فلم يجد أمامه خيرا من البكرى (٢) . وموضوع الالتفات الى التراث وجمع المنتخبات فيه ليس جديدا

(١) المقتطف ديسمبر ١٨٩٥ .

(٢) المؤيد ١٩٠٧/١١/٢١ .

عليه ، فهو صاحب « فحول البلاغة » . ولو غضب الشنقيطى حقيقة لما شرح « صهاريج اللؤلؤ » الذى صدر بعد ذلك ، فشرح من الأدلة القوية على بطلان الاتهام ، الأمر لا يعدو ما يثار دائما عندما يؤلف أديب من غير المحترفين كتابا ، أو يكتب قصة أو مسرحية أو ينظم قصيدة فسرعان ما تدور العيون حول أقرب المحترفين اليه ، ثم تدور الألسنة بعد ذلك مشككة فى نسبة ذلك العمل اليه ، لأنه اقرب أن يكون من عمل المحترف الذى يتعيش من قلمه ، وما زالت تتردد أمثال هذه الشبهات فى أيامنا هذه دون سند قوى أو حجة مقنعة .

اما الأمر الثانى فيتعلق بقيمة الرجز من حيث استحسان الرسول له ، فراى المويلحى ان مداول النص يتعلق باستحسان الرسول للغزل وحده وليس للرجز الذى تضمن وصف النساء ، لأن الرجز نثر او شعر ردىء . والواقع أن موسيقى الشعر عنصر جوهرى من عناصر تاثيره فى النفوس ، فاذا فقد الشعر تلك الموسيقى ونسحت فيه النثرية الشديدة ، والرجز لما فيه من السعة فى قبول الزحافات والعلل ما لا يوجد فى بحر آخر ، يفقد النغمة الموسيقية التى اعتادتها الأذن فى الشعر ، واغلب الظن أن البكرى لم يجمع مختاراته من الرجز ليتذوق القارىء رفعة الفن ، بقدر ما كان يهدف الى ان يحصل القارىء غريب اللغة ، ومن أجل ذلك كان السلف يروونه أبناءهم . واذا كان النص الذى أورده البكرى عن ابى هريرة موضع خلاف فى تفسير دلالته ، فان هناك من النصوص مالا تحتمل اختلافا ولا لبسا .

وهكذا لم يصمت البكرى هذه المرة ، ففى العدد التالى من المقتطف نشر رده ، ولم يدخل فى ملاحاة مع المويلحى : وانما وجه رده للانتقاد الأول ، وان كان قد رد على حجج المويلحى فى مقالة دون أن يشير الى قراءته لنقده ، فيقابل الحجة بحجة

أقوى ، ويدحض فكرة بعد فكرة . فاذا كان الناقد قد يرى سوء الاختيار فالتحدى هو أبلغ رد ، وعليه أن يأتى ببعض الأراجيز التى تفوق تلك المختارات لتكون موضع مقـــارنة أمام الناس ، وأما اختصار الشرح وتقصيره عن توضيح عادات العرب ، فذلك يخرج من حدود الكتاب وعن الشرح اللغوى الذى يهدف اليه ويحتاج الى كتاب مستقل ، ولكنه كان يعرض لأحـوال العرب كلما اقتضى المقام ذلك ، واستدعى تفسير النص أن يعرض لشيء من التفصيل . وكان واضحا أن قوة الحجج التى ساقها البكرى وكثرة مصادره التى رجع اليها فى رده كافية لاقفال باب المناقشة بعد أن قال الكلمة الأخيرة .

ونجد تحـدى الواثق ودقـة الباحث حين يقول فى رده : « ان المنتقـد يرى أن ما جمعنـاه من الأراجيز ليس من أبلغها كما كان يؤمله ، والجواب عنه أننـا نطالبه بأرجوزتين فأكثر من كلام العرب أبلغ مما أوردناه ، ونقول الآن انه لا يجد ذلك وان قلب الأوراق الكثيرة واستنفض الأسفار الجمة . ولا ندرى كيف لم يجد حضرته فى جميع ما جمعناه من الأراجيز أرجوزة تروقه وتعجبه ، على أن احدى ما اخترناه منها كان سبب اتصال الأصمعى بالرشيد العباسى وحظوته عنده ...

« ويرى حضرة المنتقد أن الشرح الذى علقناه عليها ليس مسهبا مفسرا لغريبها وليس مفصلا للأخلاق والعوائد . والجواب عن ذلك اننا ما زلنا نقرأ شروح المتقدمين فلا نراها مسهبة مطولة ، بل تكون على متونها كالثوب على لابسه ان قصر عيب وان طال عثر به . وما زلنـــا نلوم المتأخرين على التطويل فى شروحهم والخروج عن الموضوع بالاستطرادات المخلة والتوسعات المملة ... وأما الأخلاق والعوائد ونحوها فلم نر أحدا من المؤلفين العالمين بصناعة

التأليف والترصيف يرى ان محل ذكرها كتاب شرح وضع لتفسير غريب الاراجيز ، بل لم نر أحدا ممن عانى شرح كلام العرب فعل ذلك قبل . هذا التبريزى فى شرحه للحماسة والآمدى فى شرحه لمفضليات الضبى والأصمعى وابن حبيب وغيرهم لم يخرجوا جميعا فى شروحهم عن حد ما سرنا عليه فى كتابنا بل لم نخرج نحن فى شرحنا عن طريقتهم فى شروحهم . ولكننا مع ذلك لم نغفل عما اقتضاه المقام من ذكر أحوال العرب فى أسفارهم وتنقلاتهم ، وما اعتادوا ذكره عند الوقوف على الديار وطلب الصيد ونحو ذلك . اما التوسع فى جميع عاداتهم واحوالهم ومعارفهم وأخلاقهم وأديانهم وعلومهم فلا يكون استيعابه الا فى كتاب بل كتب تؤلف بهذا الخصوص ...

« وقال حضرة المنتقد (ولو كنا نعلم أن الرجز من سفاسف القريض) أقول لو وفى هـذا الموضـوع حقه من البحث والتروى قبل ان يكتب فيه لقال كما قال امام الأئمة فى فنون الأدب وشيخ الشيوخ فى علوم العرب الامام يونس النحوى ، قد قيل له من أشعر الناس فقال العجاج ورؤبة فقيل له لم ــ ولم تعنى الرجاز ــ فقال هم اشعر من أهل القصيد ، انما الشعر كلام فأجوده أشعره . هذا واذا كان الرجز من سفاسف القريض كما يقول ، فما بالهم عند المفاخرة بأديب أو شاعر يقولون كان يحفظ كذا ألف أرجوزة . قال صاحب العقد فى أول باب رواة الشعر ، قال الأصمعى (ما بلغت الحلم حتى رويت اثنتى عشرة ألف أرجـــوزة للأعراب) ... وقد رأينا الجاحظ وهو أعلم النـــاس بالعربية وفصحها يقول فى كتاب (البيان والتبيين) وقد اراد وصف ابراهيم الســندى بالبلاغة (وكان يتكلم كلام رؤبة) ولم يقل النابغة ولا الأعشى ... وقال يعقوب بن داود : « لقيت الخليل بن أحمد يوما بالبصرة فقال لى : يا أبا عبد الله دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم ،

فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : هــذا حين انصرفت من جنازة رؤبة) . . . » (١)

ومن أجل ذلك كانت أكثر مختــاراته « لرؤبة والعجاج » فهما أشهر علمين من أعلام الرجز كما يقول يونس ثم اختار بعد ذلك الكثير من أراجيــز « ذى الرمــة » ومن المعروف أنه أكبر شـــاعر مصور فى الأدب العربى ولوحاته التى رسمها للصحراء وللطبيعة الصـــامتة ولحيوان الصحراء والحركة التى أجراها والزوايا التى اختارها تضعه على قمة المصورين (٢) ، ثم اختار مقطوعات لبعض الرجازين الآخرين بذوق الناقد وحس الفنان . والرجز كما هو معروف كان أبياتا قليلة تلقى عند امتياح بئر أو فى حادثة طارئة ، فهو اشـــبه بالجملة الشـــاردة تلقى للتمثل ، وتحمل فى مضمونها شيئا من فلسفته العامة ، ولم تطول الأراجيز الا على يد الاسلاميين كالعجاج ورؤبة وذى الرمة . ونستطيع أن نلمس ذلك فى كل مقطوعة من مختاراته ، حتى أبيات الغزل تحوى شيئا من فلسفته العــامة فى دلالة الوجد على الحب الضائع ، عندما نستمع الى الراجز يقول :

دع المطـــايا تنسم الجنوبا ان لهـــا لنبـــأ عجيبـــا
حنينهـــا وما اشتكت لغوبا يشهد أن قد فارقت حبيبـــا
ما حملت الا فتى كئيبـــا يسر ممـــا أعلنت نصـــيبا
لو ترك الشـــوق لنـــا قلوبا اذن لا ترنا بهن النيبـــــا
ان الغريب يســـعد الغريبا

هذه هى المقطوعة الأولى من مختاراته ، كل بيت فيها يصلح للتمثل به فى موقف من المواقف ، وفى المثل « لا أفعل ذلك ما حنت

(١) المقتطف يناير ١٨٩٦ .

(٢) راجع لوحات ذى الرمة (الأدب العربى فى العصر الأموى لشـــوقى ضيف) .

النيب » ، ولكن من الواضح أن الغريب فيها قليل وهى المقطوعة الوحيدة التى لا تنوء بالغريب ، ونراها تتحدث عن الغربة ويبدأ بها اراجيزه ، فلعلها كانت تتحدث عن غربة الناقد الفنان نفسه ، فقد صدرت « أراجيز العرب » بعد اقالة من نقابة الأشراف ، عندما تحمس لاصلاح الأزهر ففسر تحمسه تفسيرا سياسيا . اما الأرجوزة التالية فهى لذى الرمة ، وهى تحوى الكثير من الصور ، كصورة الحمر الوحشية يرفعها السراب ويزهاها فيخيل لرائيها انها تسير ، وصورة النوق وهى ترسل أيديها الى الأرض أو ترفعها فى مسيرها كأنما هى أيدى النساء فى المآتم ، وأما الأرجوزة الثالثة فهى للعجاج وكلها فى وصف بقايا الأطلال ومناظر الرحلة ، باستثناء خمسة أبيات فى المديح أقرب ما تكون الى الحكمة منها الى المديح . ولم أتخير هذه الأراجيز تخيرا وانما هى اول ما افتتح به المؤلف منتخباته ، وسار على نفس النهج فى بقية المختارات . فعملية الاختيار اذن ما زالت تصدر عن ذوق يرى النص الجميل يرتبط ارتباطا مباشرا بتأثيره فى النفس .

واذا مضينا نتتبع المختارات ، تجد أن الشروح نفسها كانت تطول وتتحول الى مقارنات أشبه بمعرض كامل للصور ، اذا ما لاح أمامه منظر ينفسح وتتحرك رؤاه فى دقة . فها هو ذا فى الأرجوزة الخامسة – وهى لرؤبة – يشرح فى ايجاز مسير حمار الوحش وأتنه تتبعه الى مورد الماء ، تتلفع بالليل ، حتى اذا وصل القطيع الى المورد الملىء بالمياه وقد فاضت على جوانبه ، خاضت فيها الأرجل فسمع لها خضخضة ، واقتربت الأفواه الظامئة ، ولكنها لم تبل صداها ، فقد فوق الصائد سهمه فتردت واحدة ثم اتبعه فتردى غيرها ، وعدا بقية القطيع لا يلوى على شىء .

فجئن والليل خفى المنسرق

اذا دنا منهن انقاض النفق

في المـــاء والساحل خضخاض البثق

بصبصن واقشعررن من خـوف الزهق

وبل نضـــح المـــاء أعضـــاد اللزق

وسـوس يدعو مخلصـــا رب الفلق

ومتن ملســـاء الوتين في الطبـــق

فما اشـــتلاها صــــفقه للمنصفق

حتى تـــردى أربـــع في المنعفـــق

بأربع ينـزعن أنفـــاس الرمـق

وهنا يتوقف البكري ليعرض قصيدة « لذى الرمة » تصور نفس المنظر ، وان كانت سهام الصائد لا تصيب . ولا يحاول الناقد تفضيل إحدى القصيدتين ، ولكنه يقرر أن كلا الشاعرين قد أجاد الوصف وأبدع التصوير . فعين الناقد اللاقطة اذن ، كانت في القصائد ـ تتخير الصورة الفنية أو المقطوعة التي تصدر عن حقيقة فلسفية أو موقف انساني كما ظهر ذلك في « فحول البلاغة » ، وهكذا الأمر في إختيار الأراجيز ، بالرغم من هدفها اللغوي الواضح .

وقد نتساءل عن شعر البكري نفسه ، والى أي حد يتفق مع رأيه في مختاراته ، أو بمعنى آخر هل اختلفت وجهة نظر البكري الشـــاعر مع رأي البكري الناقد ونظرته الى الشعر ؟ لقد تســـاءل عن ذلك من قبـل ، المرزوقي في شرحه لديوان الحماسة ، ورأى أن مختارات أبي تمام لا تتفق في كثير من الأحيان مع وجهة نظر أبي تمام الشاعر ، وأجاب عن ذلك بأن اختيـــار الشاعر الناقد لا شأن له بنهجه في الشعر لأن الناقد المنصف يستجيد كل شعر جيد وان خالف نهجه (١) .

(١) شرح المرزوقي لديوان الحماسة ص ١٣ (القاهرة ـ ١٩٥١) .

والواقع أن البكرى الناقد يتفق مع البكرى الشاعر ، لأن خير شعره هو مقطوعات الحكمة ، ومطولة فى وصف مصر ، ثم وصفه المعركة الحربية بين الجنـــود العثمانيين وبين اليونانيين . أما مدائحه الخديو ، فقــد اضطر اليها اضطرارا كما أوضحنا من قبل ، ومع ذلك فالتـكلف وفتور العاطفــة فى أبيات المديح يستتران خلف الزخرف الشكلى وتفضحهما العين الناقدة للوهلة الأولى .

المفكر

كان البحث يدور حول موطن الداء بجسم الأمة الاسلامية فى نهاية القرن الماضى ، وكان باعث الفكرة ومحركها هو جمال الدين الأفغانى كما ذكرنا . ولا شك ان الجذور الدينية العميقة فى أسرة البكرى ، وثقافة السيد محمد توفيق ومنصبه الدينى ، كل هذا كان يدفعه الى التفكير المتواصل مع المفكرين فى هـذا الموضوع الحيوى الذى شغل العقول . وعندما زار الآستانة عام ١٨٩٢ ، التقى بالسيد جمال الدين ، وكان هذا اللقاء كان كافيا لبلورة الفكرة ووضعها موضع التنفيذ فى كتابه الذى الفه عام ١٨٩٣ ، بعنوان « المستقبل للاسلام » .

والحقيقة أن شخصية جمال الدين القوية كانت تلهب حماسة مريديه ، وافقه الواسع كان يفتح عقولهم على آفاق جديدة من الادراك ، كأنما يمسك بيده مبضع الجراح يشرح به معضلات الحياة أمامهم ، والبكرى معجب به أشد الاعجاب ، تحدث عنه فى « صهاريج اللؤلؤ » حديث المفتون ، وهو بعد فى كتابه « المستقبل للاسلام » يذكره مرة ومرات ويستشهد بآرائه ، ويأخذ قوله قضية مفروغا منها ، أو قانونا أزليا .

ويعالج فى كتابه هذا موضوعا طالما فكر فيه الناس ، ولكنه ينظم البحث ويعمقه لأول مرة ، فهو يقسم بحثه الى فصول ثم الى جزئيات ، ويثير فيها كل ما يجول فى الخواطر ، ويفند الآراء مستندا الى نتائج الباحثين المتخصصين . وهو يعلم أن منا من يأخذ أقوال الغربيين ، ومطاعنهم فى الشرق الاسلامى

ماخذ الحقائق العلمية التى لا تقبل المناقشة ، ولكنه يواجه تلك الآراء بنقيضها عند غيرهم من علماء الغرب ايضا . وهكذا تسلمه المقدمة الى الفرض ، ويسلمه الفرض بعد البحث الى النتيجة .

ويبدأ البكرى المفكر حديثه فى الفصل الأول من دراسته بمقدمة يعرض فيها لرأس مال الأمم ، فيراه يتوقف على أمرين طبيعيين ، هما كثرة السكان وخصب المكان . ويبدو هذا أمرا بديهيا ، التفت اليه ابن خلدون فى مقدمته والتفت اليه من الباحثين الأوربيين الكثيرون أمثال (مونتورو) و (تين) عندما تحدثا عن مستقبل الصين وروسيا . وترتبط بهذه المقدمة فكرة أخرى هامة كثر الحديث عنها اليوم وتتعلق بالموازنة بين الانتاج والاستهلاك ، لأن زيادة النسل وكثرة التعداد مع قلة الموارد توقع الأمم فى الضيق والشدائد أو فى الأوبئة والحروب . ومع أن هذه حقيقة أولية فقد تغيب عن افهام وعقول بعض المسئولين مثلما غابت عن وزير معارف فرنسا فى خطابه الذى ألقاه على مجمع المعارف عام ١٨٦٨ عندما قال : « ان من يمكنه أن يزيد سكان فرنسا مليونا من النفوس يفيدها أكثر ممن يزيد حدودها بعض فراسخ من الأرض بواسطة الحرب والدم بألف ضعف » (١) .

ويرى البكرى أن هذا القول يخلو من الصواب ، لأن من يزيد مساحة بلد يزيد فى موارده ، فيجعل الزيادة فى السكان محتمة . ثم يستشهد برأى « ليبيج » فى هذا الموضوع عندما قال : « اقتضت الحال زيادة السكان فى بلدان أوربا زيادة كثيرة غير طبيعية حتى اختلت النسبة بين عديدهم وبين غلات تلك البلاد ، فلا يمضى غير حقبة من الزمن حتى تعجز الأرض عما يفى بحاجتهم

(١) المستقبل للاسلام ص ٨ .

مهما انهكوا قواها بمختلف الأسمدة ، وعندها لا يحتاج الى نظريات علمية أو قياسات فنية لايضاح الناموس الطبيعي الذي يأمر الانسان بأن لا يغفل عن المحافظـــة على أبواب رزقه ، ويعاقبه العقاب الأليم عند مخالفــة ذلك . ولا يكون ثمة للأمم الأوربية من حيلة ولا مخلص الا أن تتفـــانى لتبقى ، فنرى اذن أمثال مجاعات سنة ١٣١٦ وسنة ١٣١٧ ، وحروب بعد ذلك تليها حتى يحمل الأمهات جيف القتلى لاطعام اطفالهن كما وقع ذلك فى حروب الثلاثين سنة المعروفة ، فكل ذى دربة وروية دقق النظر فى أمر ممالك أوربا ومستقبلها ، يجدها غير قائمة على أسس متينة بل على أسنة الابر . »

اذا كان رأسمال الأمم فى المكان والســكان ، فما حظ الأمة الاسلامية من هـــذين الأمرين ؟ الواقع أن المتأمل يجد العالم الاسلامى هو قلب الدنيا ، أما جناحها الأيمن فهو العالم الوثنى ، وأما جناحها الأيسر فهو العالم المسيحى . موقع العالم الاسلامى اذن هو موقع القلب ، وبقاعه أطيب بقاع الدنيا ، فيها النيل والفرات وسيحون وجيحون ، وفيها وديان مصر وسهول الهند وسواد العراقين وبطاح الأناضول وجبالها وريف فارس ، وهى ممتدة شاسعة من بحر الأطلنطيق الى ساحل الباسيفيك ، آخذة من حواشى سيبيريا شمالا الى جزر المحيط جنوبا ، وعـــدد سكانها ثلاثمائة وستون مليونا من البشر .

ولكن ألم يذهب بعض الغربين الى ان طبيعة أرض الشرق بجوها الحار ، مفسدة للهمم ، فهى نقمة بدلا من أن تكون نعمة ؟ ان هذا الرأى تفنده الأقيسة الصحيحة والآراء النافذة . وهنا يستشهد المؤلف برأى « قولتير » ليدحض هذا الرأى الباطل ، اذ لو كان سليما ما قامت الحضارات فى الشرق الذى ساد الدنيا

زمنا ، بل ما ضعفت أمة بعد قوتها ، والواقع غير ذلك ، فها هى ذى الأمم الغربية نفسها وأرضها لم تتغير وجوها لم يتبدل ولكن الذى تبدل فيها أخلاق أهلها . وقد أعجب من قبل الامبراطور « چوليان » بقوة أخلاق أهل باريس وجدهم وصلابتهم وطباعهم الهادئة ، ولكن أهلها كما يقول « ڤولتير » قد أصبحوا أخف احلاما وطباعا من فراشة . ثم أين عباقرة أثينا وروما اليوم ؟ ويستمر « ڤولتير » قائلا : « كان من عادة (شيشرون) » الخطيب الرومانى ان يهزأ بالانكليز ويتنادر عليهم حتى أنه كتب مرة رسالة لأخيه (فانتوس) الذى كان ضابطا مع قيصر فى غزوته التى غزاها بانكلترا يسأله مستهزئا انكان وجد ثمةفلاسفة كبارا أو رياضيين عظاما . فهلا علم (شيشرون) أنه نشأ بعده فيها أعظم فلاسفة العالم ورياضييه ، تحت تلك السماء المظلمة بعينها . هـــذه كلهـــا امثلة تدل على أن ليس للاقليم اثر يذكر فى ارتفـــاع الأمم وانخفاضها . »

من الواضح اذن أن الجو لا علاقة له بالتقدم والتأخر ، وأن راسمال الاسلام كبير من حيث الأرض الطيبة وعدد السكان ، ولكن الا يعبث المستعمر الأوربى بهذه الأرض الطيبة ؟ أليس من الجائز أن يستوطنها الدخيل الأجنبى ويستولى على رأس المال ويبقى المسلمون أبدا عاطلين منه ؟ هنـــا يلجأ البكرى الى علوم الحياة يستعين بها فى الاجابة عن هذا التساؤل ، وهو فى حاجة الى الوقوف عنـــده لأن اعراض المرض ظاهرة بجسم الأمـــة الاسلامية . ويبدأ المؤلف مقررا أن الحيوان أو النبات أو الانسان لا يستطيع أن يعيش فى وسط غير مماثل لما نشأ فيه ، فلا يمكن للأسماك أن تعيش فى الصحراء ولا للناقـــة أن تدوم فى المـــاء ولا للنخيل أن ينبت بين الجليد وكذلك الشأنبالقياس الى الانسان والحيوان . وينقل راى « لوبون » فى كتابه (الفسيولوچيا) حيث

يقرر أن التاريخ أثبت مرارا عجز أهل الشمال عن الاقامة الدائمة فى أرض الجنوب ، فالبربر وهم من أهل الشمال وبلاد الجليد فتحوا بلاد الرومان ولكن لم يمض قرن واحد حتى أفناهم الموت فلم يبق من الفوطيين واحد فى ايطاليا . وهذه هى مصر ، حكمتها أمم كثيرة فأكلتهم وبقى الفلاح المصرى كما هو على أرضه . وكذلك عجز الرومان عن أن يستوطنوا افريقيا مع أنهم استوطنوا أسبانيا وفرنسا وجعلوهما بلادا لاتينية . وقياسا على ذلك يتنبأ بمستقبل الفرنسيين فى الجزائر ، فيرى انها ستهلك ذرارى فاتحيها . وقد صدق حدسه فى أيامنا هذه ، فقد تحولت الجزائر الى مقبرة للغزاة ، فحملوا عصيهم وعادوا من حيث جاءوا قبل أن تفنيهم الطبيعة . فالأمة الاسلامية وان أصابها الضعف والتصدع فى كثير من جوانبها ، فانه لم يزل فيها من الخصائص ما تمتاز به على كثير من الأمم ، وذلك من أثر دينها وارث سلفها . وكثير من المبشرين أدركوا ذلك . مثل القسيس (اسحاق طيار) الذى يقول : « ان الاسلام يمتد فى أفريقيا وتسير الفضائل معه حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والاقدام من أنصاره ، ومن الأسف أن السكر والفحش والقمار تنتشر بين السكان ، بانتشار دعوة المبشرين . »

واذا اختلفت بهم البلدان وتنوعت الأجناس وافترقت الألسنة فقد وحدتهم وحدة الاسلام وجمعتهم جامعة الدين ، فوطن المسلمين هو مجموع الأمة الاسلامية ، « وهو الذى قيل فيه ، حب الوطن من الايمان» وليس المراد به حب التربة والمسكن والأهل والعشيرة ، ولو كان كذلك ما كانت الهجرة فى الاسلام ، فمن قال من المسلمين فى أية بقعة من الأرض « وطنى » فقد قال « دينى » . ولذا تجد المسلمين مهما تباعدوا أو تباغضوا لا تزال تعمل هذه الجامعة عملها فيهم ، فيفرحون ان أصاب الخير جزءا

منهم ويجزعون لنكبة تصيب بعضهم . فالجامعة على هذا الاساس تسير مع سنة العمران اذا نظرنا الى تجمع الأفراد فى شكل قبائل ثم فى شكل دول ثم فى صورة أمم . « وهذا لا ينافى أن كل أمة اسلامية تحفظ استقلالها وكيانها ، وانما تقوم الجامعة الدينية على جامعة الجنسية ، فيدافع جميع المسلمين بالتضامن عن جميع أرض الاسلام . »

انه نفس رأى جمال الدين الذى كتبه مرات فى جريدة العروة الوثقى ، فى الحث على اتحاد كلمة المسلمين بعنوان « الوحدة الاسلامية » أو « الجنسية والديانة الاسـلامية » ، فعنده الا جنسية للمسلمين الا فى دينهم ، الذى لا يميز بين جنس وجنس لأن الرسول يقول : « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » . فلا فخار للأنساب ولا امتياز للأحساب ، ومن ثم قام بأمر المسلمين فى كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف فى جنسه ولا ورث الملك عن آبائه (١) . وكان هدف جمال الدين كما قلنا تكتيل المسلمين جميعا تحت جناح دولة اسلامية كبيرة مع احتفاظ كل دولة بكيانها الذاتى . وهى نفس النظرة التى ينظرها البكرى والتى طالعنا بها محمد عبده وغيره من تلاميذ ذلك الرائد .

الرابطة الدينية اذن رابطة قوية ، وتعاليم الاسلام السامية قد مدت جذورها فى أعماق المسلمين ، وما دام الأمر كذلك ، فان رأس المال السابق لابد أن يزداد مع الأيام ، فتتسع رقعة البلاد الاسلامية ، ويزداد عدد المسلمين ، بالرغم من كل العقبات التى تحاول أن تسد الطريق امامهم ، لأن الاسلام يجتذب الكثيرين

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٤٩ ، ٢٧٦ .

من الوثنيين ويمتد جنوبا الى أعماق أفريقيا وشرقا الى جزر المحيط متخطيا الحواجز ، فهو دين المستقبل كما لاحظ ذلك بعض الباحثين الأوربيين أنفسهم ، ورأوا أن بساطة العقيدة الاسلامية السبب الأول لسرعة انتشاره . وينقل آراء بعض المبشرين الذين سجلوا ملاحظاتهم فى هذا الشأن مثل (اسحاق طيلر) الذى يقول : « ليس أمر المسيحية واقفا عند العجز عن احداث مواطىء جديدة لأقدامها فقط ، ولكن المقام الذى هى فيه قد تعجز عن حفظه أيضا . ان دين الاسلام قد انتشر آنفا من مراكش الى واجا ومن زنجبار الى الصين ، وهو الآن ينتشر فى أفريقية بسرعة لا يتأتى عليها الوصف ، واننا لنرى الاسلام أوفق ما يكون لتهذيب الأمم المتوحشة وترقيتها . أما الديانة المسيحية فلا تنالها عقولهم ، وبذا قد نفع الاسلام المدنية أكثر مما نفعتها المسيحية . اذا دخلت الديانة المحمدية فى قبيلة زنجية محت عبادة الأوثان وأبطلت اكل لحوم البشر ووأد الأطفال ، وأنشأت فيهم النظافة وعزة النفس والوقار وكرم السجايا ، فيصير قرى الضيف بمنزلة الفريضة الشرعية ، ويندر السكر والقمار والمراقص الخزية ، وتعد العفة فى الاناث من خلائق التقوى ، ويفشو التناصح بالاحسان والأخوة والوجدان . » كما لاحظ (دى كاسترى) بساطة تعاليم الاسلام وخلوه من الأسرار والأحاجى ، والتيسير على متبعيه فى كثير من أمور دنياهم ، فهو دين متفق مع قانون النشأة الدنيوية ، أو بمعنى آخر ، هو دين الفطرة (١) .

ويترتب على ذلك عدة أمور كلها حقائق جذابة ، فالمساواة التى يدعو اليها الاسلام لا شك تغرى الفقراء وطوائف الهنود على اعتناقه ، وينقل المؤلف عن (لوشاتلييه) وعن

(١) المستقبل للاسلام ص ١٩/١٨ .

، اودوفيج دى كنتاسون ، رأيهما فى الدعوة الى المساواة ، حين لم يفضل الدين عربيا على عجميا ومن هنا كانت الأمم التى تتفرق فى طوائفها وفى أجناسها تجـــده المخلص لها من أجل اقامة أركان المساواة والاخاء والحرية .

ويتوقف المؤلف طويلا عند حركة الصوفية وأثرها فى انتشار الاسلام . فمن الواضح أن العالم الاسلامى قد وقف عن التقدم والغلب امام الدول الأوربية منذ فترة طويلة فاستطالت هـــذه الدول على الممالك الاسلامية وغلبت الكثير منها بالقوة العقلية والمادية ، ولـــكن الذى أعجزها وضاعت معه قوتها وحيلتها هم الصوفية . وعلى هذا فالصوفية ــ فى رأى المؤلف ــ هم القوة الدالة على الحيوية والنماء فى العالم الاسلامى ، فتراهم فى افريقيا وفى الصين وفى الهنـــد وأواسط آسيا وجزر المحيط يدعون الى الاسلام ، حتى ان الخطوط التى ترسم فى افريقيا لبيان حدود الاسلام وراء خط الاستواء ، تنقل متقدمة الى الجنوب فى كل عام من أثر فتوحات مشايخ الصوفية فى مجاهل أفريقيا . وما دخل الفرنسيون قرية فى الـكونغو الا وجـدوا الصـــوفية قد سبقوهم اليها وزرعوا جذور الاسلام فيها . ومن يطلع على المؤلفات الكثيرة التى تؤلف فى أوربا أواخر القرن التاسع عشر عن الطرق الصوفية وتاريخها ووسائل الدعاة ، يدرك أن موضوع الصوفية هى الشغل الشاغل للباحثين فى الاسلام . ويعجبون كيف يستطيع التاجر وطالب العلم والمجذوب أن يؤدى رسالته فى سهولة ، وفى ذلك يقول (شاتلييه) : « والخلاصة أن الاسلام مدين بكل فتوحاته السلمية وانتشاره فى الأقطار لجماعة الصوفية فمشايخ الطريق هم فى الحقيقـــة الذين يديرون حركة الاسلام الحية ، ولا يخفى ما فى عملهم هـــذا من الخطر على المصالح الأوربية . » وبلغ من اهتمامهم أن كلفوا جماعة من الباحثين

برئاسة (أوكتاف دوبون) للبحث فى أحوال الصوفية فطبعت أعمالها فى مؤلف ضخم ورسمت خريطة عامة توضح ما يوجد من الطرق فى كل بلد من بلاد الاسلام حتى تستعصى حركاتها وتنقلاتها فى الأقاليم .

ومن الواضح أيضا أن المؤلف يهدف من اشباع هذا الموضوع الى الرد على منكرى العقائد الصوفية والداعين الى تصفيتها باعتبارها مما دخل الاسلام فى القرن الثانى عن طريق الفرس بدليل أن مشايخ الطرق الأولين كلهم أعاجم كالجنيد التهاوندى وابو يزيد البسطامى وابراهيم بن أدهم البلخى وبشر الحافى وسهل التسترى وغيرهم . والوصول الى المعرفة عند الصوفية فى زعمهم ليس من طريق النظر والتجربة ، بل من طريق الرياضة كالاهتزاز الشديد فى الذكر لتخليص النفس من الحس ، فهذه العقائد لم يجىء بها كتاب ولا سنة . ومن أجل ذلك يرد البكرى ذاكرا اعتراف الأوربيين بانها الحركة الحية الباقية الآن فى الاسلام ، والتى فتحت للاسلام قدر ما فتحته سيوف الفاتحين الأولين . واصلاح الصوفية لا يكون بتصفيتها ، بل بتوجيه التصوف حتى يصبح مدرسة عظمى هدفها العلم بالشرع والعمل به (١) . وقد ألح البكرى بعد ذلك على هذه الفكرة وخطط لها ولكنه لم يتمكن من تنفيذها لأن الأيام أسرعت به الى نهاية أخرى .

ثم ينطلق البكرى الى فكرة أخرى لا شك انها من أسباب كثرة عدد المسلمين ، وهى تعدد الزوجات . فاذا كان كثرة النسل فى البيئات التى لا تجود فيها الطبيعة من دواعى تدهور الاقتصاد ، فان كثرة النسل فى البيئات الأخرى كانت من أسباب

---

(١) حاشية « المستقبل للاسلام » ص ٢٠ .

انتشار الاسلام ، وتعدد الزوجات سلاح فى يد المسلمين يستطيعون اشهاره لزيادة العدد زيادة كبيرة فى وقت سريع بينما لا يستطيع ذلك أصحاب الديانات الأخرى ، وفى ذلك يقول (دى كسترى) : « ومن الوسائل الناجحة فى المسلمين لانتشار الاسلام ، الزواج ، فان سلاطين السودان يتزوجون من الأسر الوثنية لهذه الغاية ، ولا تمكث النساء وأولادهن حتى يصير الكل من أقوى الأسباب لانتشار الدين الاسلامى . »

هذه هى الأسباب التى دفعت بالاسلام فى كل اتجاه ، وقد بلبلت هذه الفتوحات أفكار الأمم الأخرى حتى عدوها من الخوارق ، وتوقعوا أن يمتد ويتشعب ثم يكتسح البوذية بياسه القوى وهنا ينبغى على بقية الأمم أن ترقب الأمر بحذر شديد كما يقول (وازيليف) . وقد ردد نفس القول (هانوتو) وزير خارجية فرنسا فى مقاله الشهير الذى فنده محمد عبده ، فهو يتوقع أن يزداد عدد المسلمين فى الصين زيادة هائلة لأنه الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل الى التدين به ، كل ميل الى اعتناق دين سواه . ويعلل كاتب آخر من الأوربيين هذه الظاهرة قائلا : « ملأ الأوربيون بلاد الصين بجماهير المرسلين من كل ملة ونحلة ، وسهلوا لهم سبل التملك ووعدوهم بالمساعدة ، فأدخل هؤلاء المرسلون بعضا من أهل الصين فى دينهم بعد ما وعدوهم بالحماية الأجنبية من كل سلطة للقانون فجرأهم ذلك على ارتكاب ما تحرمه القوانين ، والاعتداء على أهل البلاد فنجم عن هذا معظم الأسباب التى أوجبت كره أهل الصين للمسيحيين كرها يشبه التعصب ، وبالجملة ان الأوربيين القائلين بالمساواة يعاملون اللون الأبيض من بنى الانسان معاملة الأخ لأخيه ، واللون الأصفر معاملة الرجل لخادمه واللون الأسمر معاملة السيد لعبده ، ويطلقون الرصاص على ذى اللون الأسود كما يطلقونها على الوحش الضارى .

فالانسان كلما مال لونه الى السواد كان نصيبه من هؤلاء الخذلان وفاقدى الامتحان ، ولهذا كان أكثر الأمم الشرقية لهم متكاثرا . »

من أجل ذلك كله ندرك أن حظ الاسلام من الارض أوفر حظ وان ارضه اله لا يمكن أن ينتزعها منه غيره ، كما ندرك أن عدد المسلمين يتزايد على الأيام ، وان صفاتهم الفطرية قويمة وجامعتهم الدينية عظيمة ، فرأسمال الاسلام ضخم ، ولا ينقصه الا الأمور المكتسبة والأسباب الوضعية التى لابد أن تدفعه طبيعة العمران لتحصيلها شاء أو أبى فيصل الى ما قدره الله له من السعادة .

وهكذا ينتهى الفصل الأول وقد أسلمنا المؤلف الى هذا الرأى بعد نقاشه الطويل وادلته العقلية والنقلية . ولكن المستشرق الانجليزى « مرجليوث » متأثر بالعقلية الاستعمارية يقرأ هذه الدراسة فلا يناقش جوهرها وانما يرى أن الاستعمار البريطانى قد وفر الأمن للبلاد الاسلامية التى استعمرها فزاد عددها لأن الزيادة — كما يرى — قاصرة على مصر والهند ولا تتعداها الى الدول الاسلامية التى تحكم نفسها حكما مباشرا (١) .

وينتقل المؤلف الى الفصل الثانى من كتابه ، فيتناول فيه أسباب انحطاط الأمة الاسلامية . والحديث كما ذكرنا كان يدور حول هذه الأسباب ، فأرجعها صاحب « السبب اليقين » الى البعد عن تعاليم الاسلام وارجعها الكواكبى فى « طبائع الاستبداد » الى ظلم الحكام وطغيانهم ، واتى الكواكبى مرة أخرى فى « أم القرى » بعدة أسباب على ألسنة أعضاء المؤتمر الذى تخيله ، منها الجهالة وسيطرة الأوربيين على الدول الاسلامية .

(١) راجع مقال مرجليوث فى المؤيد ١٩٠٧/١٠/١٦ .

ولكن البكرى لا يدخل الى صلب الموضوع مباشرة وانما يتحدث عن القوانين العامة التى تخضع لها الأمم جميعا فى ضعفها وارتقائها . ففريق من العلماء يرى أن هناك ناموسا طبيعيا تخضع له الأمم مثلما يخضع له الأفراد . والفرد اذا جاء زمن مشيه مشى وحده واذا جاء زمن النطق نطق وحده أيضا وكذلك المجتمعات الانسانية مسيرة بقانون ازلى أشبه بالقوانين الطبيعية والفلكية التى تسير الكواكب فى أفلاكها ، وكل مجتمع هو نتيجة حتمية لماض طويل الأمد يحمل معه كل بذور التحول ومراحل التطور التى يمر بها كما لا يبلغ المرء مرحلة من عمره ما لم يمر بالأدوار التى تفصله عنه . أما الفريق الثانى فيرى الأمة أشبه بالشمعة المذابة يمكن تشكيلها ، والارادة تفعل فى كيانها فعل المعجزات . قال بهذا أفلاطون وارسطو وليبنيز وليكورنج وأوضح دليل على صحة هذا الرأى — فى نظر البكرى — اليابان التى استطاعت بارادة ابنائها تحقيق الأحلام .

ولكن ما السر وراء تحريك الارادة ؟ هنا يلجأ البكرى الى ابحاث الفلاسفة ويستعين بها . فليبنيز الحكيم يقول : « لو كان امر التعليم موكولا الى لغيرت وجه أوربا فى أقل من قرن » و « ديدرو » يقول : « علة العلل فى ارتقاء او انحطاط الأمم هو العلم او الجهل » . هذا فرض واحتمال من الاحتمالات العديدة ومنها الاستبداد ولكن البكرى يدحض الفرض الأخير حين يقرر ان الحكومة لا تكون الا على قدر استعداد الأمة ، وما شذ عن ذلك لا حكم له ، لأن المصادفة قد توجد حكومة فوق قدر الأمة ، فلا تلبث أن تتبدل بموت القائم بها ، بحكومة اخرى تفسد كل ما أتت به الأولى . ومن الفروض التى كانت تجول بالخواطر أيضا انتشار البدع باسم الدين وتكاثرها حتى كاد أن يتوارى جوهر الدين نفسه ، فيقرر البكرى أن كل ذلك

يرجع الى الجهل بالدين ، فلولا الجهل به ما تمكنت البدع الفاسدة من الانتشار . وهكذا يتخذ المؤلف منهج البحث الاستقرائى ، فيدحض الفروض حتى لا يبقى أمامه الا الجهل فيقيم البنية على انه علة العلل .

« هذه الأرض وان تنوعت أسماء أجزائها فى المواضعة ، واختلفت ألوان بقاعها فى الخرائط ، فهى بسيط واحد ، فيه العامر والغامر ، والأمم فيه كأمة واحدة ، فيها القوى والضعيف ، وقد أوجدت المصادفة بعض هؤلاء فى حيز عامر مفعم بالنعم ، والبعض فى حيز غامر مملوء بالنقم ، وجبل الانسان على حب الأثرة لنفسه ولو هلك فى ذلك أهل الأرض جميعا ... فوقع بين القوم بسبب ذلك ما يسمى بتنازع الحياة . وهو فى الواقع قتال بلا سيوف ورماح ، كل يطلب الطيبات لنفسه ويحرص على نزع ذلك من الآخر بقوة بأسه . معمقة يعيش فيها الجليد ، ويهلك الرعديد ، ويحيا القوى ويموت الضعيف ، فلهذا احتاج كل واحد أن يكون أقوى من قرنه ، فتراجعوا فى الأزمان الأولى الى القوة الجسمية ، حتى اذا سما العقل واستنبط من الأساليب ما طمس به قوة الجسم ، فزعوا الى القوة العلمية ، ولهذا قال بعض السياسيين (الجاهل الآن كالأعزل فى القرون الوسطى) فمن كان أكثر علما كان أكثر قوة ... ومن هذا يعلم أن جميع أحوال الأمة متوقفة على حال أشخاصها من الجهل والعلم ، فان صلحت الأشخاص ، صلحت الأحوال والعكس بالعكس ، وبهذا جاء القرآن . قال تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) » (١) .

وللعلم نبعان فى الوجود ، الدين والحكمة ، فنأخذه من الدين

---

(١) المستقبل للاسلام ص ٣١ .

أولا ثم من الحكمة ثانيا ، وينقل عن « ابن مسكويه » رأيه في فرعي الحكمة النظري والعملي . فبالنظري يمكن تحصيل الآراء الصحيحة وبالعملي يمكن تحصيل الهيئة الفاضلة . ولكن هل هناك تباين بين الدين والعلم مثلما يرى بعض الناس ؟ الواقع أن ذلك باطل ، وانما وقع لهم هذا الوهم حين حصلوا من الدين ما ليس منه ، أو أخطأوا مقاصده . فالعلم عدو الأوهام المنتشرة بين الناس باسم الدين ولكنه ليس عدوا للدين الحق الذى تحاول هذه الاوهام ستره عن الأبصار . وقد يبدو شيء من العلم المتداول يناقض في ظاهره الدين ، ولكن هذا كما يقول « هربرت سبنسر » (من قبيل العلم الذى أكثره وهم) ، وكما يقول « باكون » (القليل من العلم يبعد من الله والكثير منه يقرب منه) ، وفى ذلك يقول « هكسلى » أيضا : (الدين والعلم كتوأمين متلاصقين ، فصلهما يؤدى الى موتهما ، فان العلم ينمو متى كان دينيا ، والدين يثبت متى كان علميا) .

فالعلم الالهى أو الفلسفة الأولى هى أس العلوم ، وبداية الانطلاق والتطور ، هكذا قال جمال الدين الأفغانى عندما سأله « رينان » عن سبب عقم المدارس فى الشرق ، فقرر « أن سببه فقد الفلسفة الأولى منها اذ هى للعلوم كالسلك للعقد أو القاعدة للمسائل ، فان فقد السلك تبدد العقد أو عدمت القاعدة تناثرت المسائل . » أما الدين فليس هو مجموع حركات بدنية كما يفهم الناس أو لفيف من الأحاجى لا يصل اليها الادراك ، بل ارشاد الخلق الى الحق ثم هدايتهم بقواعده الى ما فيه سعادتهم ، ومن هنا يمتاز على العلم بأنه يجمع السعادتين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . واما العلم فليس هو الأبواب المحفوظة التى يلقب أصحابها بالعلماء عند المسلمين اليوم ، بل هو أوسع من ذلك رحابا وافسح مجالا ، فهو معرفة حقائق الوجود جميعا ، ولكل علم وظيفة

لا يقوم بها غيره فى جسم المجتمع ، كما لكل عضو وظيفة لا يقوم بها غيره فى جسم الانسان .

النتيجة واذن أن الجهل هو سبب انحطاط الأمة الاسلامية ، الجهل بالدين والجهل بالحكمة أو بالعلم . « أما الدين فلو حكمناه فى نفوس أكثر المسلمين الآن ، وطبقناه على عقائدهم وأخلاقهم وأحكامهم لوجدنا لدى أكثرهم فى محل كل عقيدة قرآنية أو خلق دينى عقيدة خرى أو خلقا آخر يكاد يضاد الأول على خط مستقيم . واذا كان الأول آلة للعلاء كان الثانى علة للانحطاط . ليس الغاية من الدين مجرد الانتساب اليه ، فان ذلك لا يهدى الى خير ولا يدفع عن شر . وانما العمل والانتفاع بكل ما جاء فيه هو الذى يرقى بصاحبه الى ذرى الكمال ، وذلك كالطب ، فانه لا يكفى أن يعتقد الانسان انه نافع فيبرأ من مرضه وأوصابه وانما يحصل على ذلك باستعماله والائتمار بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه ...

« وأما العلم فحالهم فيه كحالهم فى الدين فهم كل يوم يبتعدون عنه ويقربون من نقيضه ، ولهذا تجد الكتاب عندهم كلما كان أقدم كان أنفس وأجود ، بخلاف الأمم الحية ، فانه لا يقرأ الكتاب فيها اذا مضى عليه عشرون عاما . منذ كسرت أقلام المسلمين الأولين نرى العلم واقفا بيننا لا يتحرك ، أين الجماعات المشتغلة بالعلوم الالهية ؟ أين منشئو المذاهب والآراء ؟ أين المحامون عن العقائد ؟ أين المؤلفون فى الرياضيات ؟ أين المخترعون لعلوم لم تكن كالجبر والكيمياء ؟ أين من نقل فلسفة أوربا كما نقل أولئك فلسفة اليونان ؟ أين من شرح كتب كانت وديكارت مثلما شرح ابن رشد كتب ارسطو وابن كمونة كتب أفلاطون ؟ أين من جمع علوم الأوائل فى سفر شامل كما فعل الفارابى فى كتب التعليم الثانى ؟ أين من ألف فوق مائة مؤلف من الطب كابن سينا والرازى ؟ ... أكثر ما عند

المسلمين الآن اختلاف فى اعراب البسملة وبيان وجوه الصفة المشبهة وأمثالها ، وشيء من الفقه يعلمونه ولا يعملون به ، وما عدا ذلك فقشور من العلم فى المدارس الحديثة ، المقصود منها صنع موظفين للحكومات ، أو أجراء لبعض المهن كالطب والحقوق ونحوهما . » (١)

بمثل هذه القدرة على التفكير المتعمق ، استطاع البكرى ان يضع يده حقيقة على موطن الداء فى جسم الأمة الاسلامية وأن يقنعنا برأيه وهو يجوس خلال جبال من الأبحاث العلمية ، ويسلمنا النتيجة بعد أن خلصها من كل شوائبها . ومهما اختلط علينا الطريق الآن فى مسيرنا ، فان الحقيقة التى اهتدى اليها البكرى المفكر ـ وهى على بعد خطوات منا ـ تبقى الدليل الذى يقود ركبنا فى رحلة التطور .

اذا كان الجهل سبب الانحطاط والعلم سبب النهضة ودافعها وقوامها ، كان لابد من البحث فى وسائل هذا العلم . ولكن الا يرى بعض اليائسين ، « أن الفساد حل بالمسلمين فى نفوسهم ، فى أمتهم ، فى دينهم ، وفى دنياهم ، وقد سكن فى كل عضو منهم علة وفى كل جارحة الم وازمنت الأدواء واستطرقت الى بعضها حتى أصبحت كل علة تسوق عللا ، وكل مرض يهيج أمراضا ، وغدا شبه الدور والتسلسل ، فيتيه فى هذا التيه ، ولا يدرى كيف يسرى ، وماذا

(١) حاول الكواكبى فى كتابه « طبائع الاستبداد » أن يرد كل العلل الى الاستبداد ، فهو فى رأيه سبب ما يحيق بالأمة من جهل وما يصيب الناس من ضلال . ولكن المتعمق يرى الاستبداد نتيجة وليس سببا والكواكبى نفسه عندما حاول أن يواجه الاستبداد ويقضى عليه ، رأى أن الوسيلة الوحيدة هى توعية الأمة وادراكها لحقوقها ، وهكذا وصل فى النهاية دون أن يشعر الى جوهر الامر لأن التوعية والادراك يرتبطان بالمعرفة والعلم وانعدامهما يرجع الى الجهل ، وحين يوجد الجهل يصبح الاستبداد أمرا ميسورا وحقيقة واقعة .

يصلح وماذا يترك وأى دواء يستعمل ، وقد اختلفت الأمراض وتباينت الآلام ، فيقف حائرا بائرا يائسا ، يرى أن خلق جديد أهون من اصلاح هذا » ! الواقع أن كل الأدواء ظاهرية فاذا سلم الجوهر ، تلاشت من تلقاء نفسها ، كما يحس المريض بالألم فى كل جزء من جسمه ويصور له الوهم ألوانا من العلل ، فاذا وضع يده على موطن الداء تلاشت الآلام كلها . وفى ذلك يقول البكرى : « فلمثل هذا الحائر المشتبه أضرب المثل الذى ضربه (فكتور هوجو) الشاعر الكبير قال : مثل سلطان الاستبداد ، مثل مصر بنى على بطائح (النيفا) فى الروسيا ، وقد جمد الثلج ماءها فشيدت القرى والمنازل على الجليد وسارت العجلات ودارت حركة المعاش فى الأسواق كأكثر ما يكون ، وضرب الرجل برجله الأرض فوجد أصلب من الصخر ، لا تعمل فيه المعاول ولا يقطعه الديناميت ، فقيل له ان هذا كله ظل زائل ، ولا يلبث الا عشية أو ضحاها حتى يمحى فلا يكون له أثر ، فكذب وانكر ، وهاله الأمر . وبينما هو كذلك واذا بشعاعة من الشمس سالت على هذه الدنيا الصغيرة فاذا هى حلم حالم . قال (هوجو) هذه الشعاعة هى الحرية ، وأقول أنا هى العلم . » (١)

ومن المسلم به ان الدول الأوربية قد سبقتنا فى مضمار العلم ، فلا سبيل الى اللحاق بها الا عن طريق الأخذ منها أولا وهكذا شأن الحضارات دائما تأخذ ثم تعطى . وقد نختلف فى وسيلة الأخذ فيرى بعضنا أن ترجمته الى لغات المسلمين هو الأجدى ، وهو السبيل الذى سلكته كل الأمم السالفة فى نقل العلم اليها كما فعل العرب فى نقل علوم اليونان والسريان وكما فعل الأوربيون فى نقل علوم العرب ، حتى لنجد كثيرا من مؤلفات العرب الأصيلة مترجمة

(١) المستقبل للاسلام ص ٤٣ .

الى اللاتينيـــة ومطبوعة بها منذ قرون ، وهى مفقودة من البلاد الاسلامية . ونحن اذا ترجمنا العلم ، فقد نقلناه الينا ، وان تعلمنا اللغات فنحن فقد نقلنا أفرادا منا الى العلم . ولكن الفريق الآخر يرى الطريق الأوفق هو تعليم المسلمين لغة من لغات العلم وهى الفرنسية والانكليزية والألمانية لتكون لغتهم العلمية ؛ ففى رأيه أن سير المترجمين وسير العلم فى حركته أشبه ما يكون بالفرق بين راكب الناقة وراكب الباخرة ، فان بدأ كلاهما من نقطة واحدة ؛ فلا يلبثان أن يفترقا فيسبق العلم النقل ، ومن أجل ذلك غيرت الأمم الآن منهجهـــا الى العلم واهتمت بتعلم اللغـــات كما فعلت اليابان .

يبدو أن كلا الرأيين وجيه ، ولكن الأجـدى علينا أن نوفق بينهما فنجعل تعلم اللغات الأوربية اجباريا فنعطى كل فرد مفتاح المعرفة ، ثم نجعل التعليم والتأليف بلسان الأمة . ومتى فعلنا ذلك امكننا أن نسير مع العلم لأن كتبه ونتائجه تصبح كتبنا ونتائجنا ، وامكننا أن ننقل منـــــه ما نشاء . غير أن معضلة تجابهنا هنا ، لا يغفل البكرى عنها ، وهى معضلة اللغة العربية من حيث قدرتها على استيعاب المصطلحات الحديثة . ومن العجيب أن يقترح البكرى هنا اتخاذ أحد المعاجم الموجودة بين أيدينا أصلا ، ثم نذيله بما استجد من مصطلحات ، ناقلين ألفاظ العلوم واصطلاحات الفنون كما هى بعد تحوير قليل تنتظم به فى صيغ اللغة الاصلية ، بينما كان يحاول ايجاد ألفاظ من متن اللغة أو يلجأ الى النحت والاشتقاق فى مجمعه الاول كما رأينا من قبل . وهنا يتفق البكرى مع معاصره « قاسم امين» عندما هاجم الاشتقاق لانه جهد لا لزوم له تنفر منه الأذن ، بينما تتقبل اللفظة الأجنبية بعد تحويرها (١) .

(١) راجع فصل « الكاتب » من كتاب قاسم أمين .

والواقع أن هذين هما الطريقان للتعريب وأسهلهما وأقربهما الى الأذن أيضا اللفظة الأجنبية المحورة ، وقد تنبه البكرى الى أن هذا الطريق بعيد عن مواد اللغة التى رتبت المعاجم على أساسها فرأى أن توضع الكلمات الجديدة بذيل المعجم ، ولكن المصطلحات الجديدة كلما تكاثرت أصبحت بحاجة الى ترتيب يختلف عن ترتيب المعاجم ومن ناحية أخرى لا نستطيع أن نعتبر اللغة قد هضمت هذه الكلمات وأفادت منها ، وانما تبقى غريبة عنها كما نستعمل اليوم كلمة « تليفزيون » أو كلمة « كوميديا » ، واذا كانت الأذن تنفر من الكلمة المشتقة ، فانها بتوالى الاستعمال والسماع تتقبلها ولا تعود تنفر منها ، وقد كان قاسم أمين يعجب لأن بعض الكتاب يستعملون أحيانا كلمة سيارة بدلا من « أوتوموبيل » ونحن اليوم ننفر من الثانية لا من الأولى . ومن الحق أن النحت والاشتقاق عملية شاقة ولكنها تثرى اللغة وتحفظ تراكيبها ، ومن أجل ذلك يأخذ المجمع اللغوى الآن بالرأى الثـــانى على الرغم مما فيه من مشاق .

هذه هى جهود البكرى فيما يتعلق بالنقطة الأولى من تخطيطه المفصل لجوانب العلم ــ تحدث فيها عن وسيلة نقله ورأى أن نقطع الطريقين معا ، ومن المسلم به أن هذا الحل هو أوفق الحلول ، خاصة اذا كانت مرحلة التطور تقتضى أن نقطع الشوط مسرعين ، ولا شك أننا اليوم نسير بخطى حثيثة لنلحق بركب العلم ، بعد أن فرضنا تعلم اللغـــات الأوربية ، وترجمنا وما زلنا نترجم الدراسات الأدبية والعلمية الأصيلة . وبقى أن يجيب البكرى عن بقيـــة الأسئلة التى تتعلق بكيفيـــة التعليم من حيث مناهجـــه ومعاهده ، والمال اللازم لذلك وكيفية تدبيره ، ومن يقوم بجهود التعليم فى تلك المرحلة التى تحارب فيها وسائل التعليم من اكثر من جانب .

« اما كيفية تعليم العلم وترتيب ذلك فأهم ما يجب أن يعمل فيه أن يكون التعليم عاما اجباريا على ثلاث طبقات (ابتدائى وثانوى وعال) وأن يكون التلاميذ بقدر عشرين فى المائة من عدد السكان ، منهم واحد فى المائة للمدارس العالية وسبعة فى المائة للثانوية وما بقى فللمدارس الابتدائية . وأن يكون الأساتذة على نسبة واحد لكل خمسة عشر تلميذا فى المدارس العالية وواحد لكل ثلاثين فى المدارس الثانوية ، ولكل خمسين فى المدارس الابتدائية . وعلى هذا يجب أن تكون المدارس الابتدائية منتشرة فى كل قرية انتشار المساجد والزوايا والمدارس الثانوية فى كل مركز والمدارس العليا (اى الجامعة) فى أمهات المدن . وينبغى أن تكون الغاية عند الكافة من طلب العلم أن يكون المرء سعيدا فى رزقه ، سعيدا فى نفسه وفى فكره وفى بيته وفى امته ، لا أن تكون أداء الامتحان واخذ الشهادة . » (١)

هذا النص يعرض فيه البكرى المفكر لعدة قضايا ، فيثير موضوع التعليم الاجبارى الذى لم يتحقق الا بعد وفاة البكرى بزمن طويل ، فهو يستعمل التطور ويجد التعليم الاجبارى أمرا جوهريا للاسراع به . والحقيقة أن هذه الفكرة ترجع الى تفكيره العام فى الطبقة الأرستقراطية التى احتكرت كل شىء حتى التعليم ، لأن مصروفات المدارس الثانوية مرتفعة ، وأجور التعليم بالمعاهد العليا القليلة أكثر ارتفاعا ، أما من شاء التعليم الجامعى فعليه ان يرسل بأبنائه الى أوربا ، وسياسة « دانلوب » بصورة عامة لا تهدف الى ايجاد طبقة مثقفة تستطيع أن تكشف عيوب الاستعمار ، وانما تهدف الى تخريج طبقة من الموظفين . ومن اجل هذا يدعو البكرى الى كسر الارستقراطية والاستعمار ليصبح

---

(١) المستقبل للاسلام ص ٤٤/٤٥ .

العلم كالماء وكالهواء . وهى دعوة جريئة فى ذلك الوقت المبكر خاصة اذا ارتبطت بالدعوة الى انشاء الجامعة بل الجامعات كما يقول . وهى اول صوت يرتفع مناديا فى مصر بانشاء الجامعة ، قبل دعوة مصطفى كامل وقاسم امين ولطفى السيد بأكثر من عشر سنوات . وهو يدرك مهمة الجامعة ومهمة العلم كله ، فلا ينبغى أن نهدف الى مجرد الحصول على الاجازات العلمية ، وانما الهدف الأسمى البحث والتعمق فيه وفتح النوافذ جميعها ليتسرب تيار من الهواء النقى الذى يزيح الركود والجمود العلمى . أما النسب التى حددها لعدد الأساتذة فهى نسب مثالية ما زلنا نطمح فى تحقيقها ، لنرتفع بمستوى الدراسة ولتكوين شخصية الطالب الباحث ، ومن الواضح انه متأخر بالاحصائيات الأوربية فى هذا الشأن . فهى نظرة طموحة تمثل دعوة جريئة ، سبقت عصرها بزمن طويل .

ويستمر المؤلف فى حديثه قائلا : « ان جداول التعليم فى المدارس (البروجرام) هو بمثابة الجوهر ، وكل ما عداه فى مقام العرض ، فعليه يتوقف الفلاح فى الحياة او الخيبة فيها . وطالما حرص الفلاسفة على تبيان اهمية هذا الأمر ، واهتمت به الحكومات . قال جان جاك روسو (ان اكثر ما نتعلمه فى المدارس كأنما نتعلمه لننساه لا غير ، ذلك أن معظم مما لا نستفيد منه فى حياتنا مرة واحدة) . وقال اخر : (الفساد فى التعليم يفسد امة بأسرها) ، وقال هربرت سبنسر الفيلسوف الانكليزى : (لو لم يكن عندنا من العلم الا ما نعلمه فى المدارس لكانت انجلترا اليوم على ما كانت عليه فى القرون الوسطى . فجميع ما عندنا من المعارف الكبرى التى صرنا بها امة عظيمة فى الدنيا ، لم تنشأ من المدارس المعدة لذلك ، بل من اكواخ حقيرة وزوايا مهجورة) . وقال (كوربون) عن مدارس فرنسا : (ان ثلاثة ارباع الوقت يضيع فيها سدى) ، وقال (هنرى دوقيل) فى جلسة عامة

بأكاديمية العلوم فى فرنسا : (انى عضو فى المدرسة الجامعة ـ كلية باريس ـ من مدة ، وانى اليوم على وشك الاعتزال من الأعمال فأقول لكم قولا يجب ان يملأ كل اذن وهو أنى ما دامت هذه المدرسة على هذه الحال ، فلا تسوق الا الى الجهالة) .

« واذا كان الأمر من الأهمية بحيث استدعى ايراد هذه الأقوال عن مدارس أوربا ، وجب أن نجعله فى المنزلة القصوى من الاهتمام به ، ولا تقلد الأمم بنقل بروجراماتها كما هى ، وقد سمعنا أقوال الفضلاء فى قيمة تلك البروجرامات وقلة جدواها فى التربية العامة ...

« والاختصاص بالفن الواحد من اهم الأمور فى بلوغ الغايات فى العلوم ، اذ العلم يعطيك من نفسه بقدر ما تعطيه من نفسك ، ومما يجب تعويد الطلبة على السير مع العلم كل يوم . وعدم الوقوف طول العمر عندما يتلقونه فى المدارس ، وذلك بالاطلاع على فهارس دور الكتب والوراقين والوقوف على كل ما يجد فى الفن . » وهكذا يرفض البكرى مناهج التعليم الأوربية ، وهو يعرف أن الكثيرين ممن تغذوا بغذاء الثقافة الأوربية ، سوف يعترضون ، ومن اجل ذلك يسوق كل تلك الآراء ليؤكد وجهة نظره ، وليثبت أن تقليد الأمم لا يفقد الشخصية المستقلة وحسب ، وانما يجعلنا نقع فى اخطاء لا مبرر لها ، واذا اتسعنا فى تطبيق هذه النظرة قلنا ان القضية التى تثير نفس الرأى اليوم ، خاصة بأعضاء البعثات الذين يعودون وفى رؤوسهم المناهج الغربية التى درسوها ، ويقومون بتدريسها فى معاهدنا بالرغم من عدم ملاءمة بعضها لظروفنا ، فمشاكل لغتنا غير مشاكل لغاتهم ونظرتنا لتاريخنا غير نظرتهم لتاريخنا ، وظروفنا الاجتماعية غير ظروفهم ومشاكلنا النفسية ايضا غير مشاكلهم وقوانيننا تتصل بالشريعة

وقوانينهم تختلف بل ان امراض المناطق الحارة غير امراض المناطق الباردة وقل مثل ذلك فى بقية الدراسات .

ويدرك ان عصر الموسوعات قد انتهى ، وأن عصر التخصص قد بدأ من زمن في أوربا ، بعد اتساع مجالات المعرفة ، ولا يمكن ان تتعمق دراساتنا ونكتشف مجاهل العلم ما لم نمنحه كل جهدنا ووقتنا ونسير معه العمر كله نتابع كل جديد فيه ، والا اضطررنا ان نبقى سطحيين بينما يتجاوز العالم السطح ويغوص الى الأعماق ، ويخرج كل يوم بجديد . وهى دعوة طبيعية ، فمع اننا اخذنا بمبدأ التخصص اليوم ، خاصة فى الدراسات الجامعية ، فما زلنا بحاجة الى مزيد من التخصص وتضييق دوائر البحث .

ولكن البكرى المفكر لا يحب ان يترك موضوع المناهج دون ان يقول رايه فيه ليستكمل بحثـــه من كل الوجوه . وهو يدرك ان الأمر لا يحتاج الى مجرد نظرة مفكر ، وانما يحتاج دراسات مستفيضة ، واوجه نظر متعددة ولذا لا يفصل فى المناهج وانما ينظر اليها نظرة عامة . فيرى التعليم الابتـدائى ينبغى أن يلم التلميذ فيه « بما يحفظ العقيدة » وهو مبادىء الالهيات ، (ما يحفظ الجسم) وهى مبادىء الصحة ، (ما يحفظ النفس) مثل علم الأخلاق ، (ما يحفظ العائلة) مثل تدبير المنزل ، (ما يحفظ الأمة) مثل مبـادىء السياســة والتاريخ ، (ما يحفظ المال) كالزراعة أو الصناعة أو التجـارة ومبادىء الاقتصاد والحساب وأما المدارس الثانوية فيتوسع الطالب فى دراسة هذه العلوم . وتبدأ مرحلة التخصص فى المـدارس التجهيزية فيـدرس المادة التى يبغى التخصص فيها وما يتصل بها من العلوم ولغة اجنبية من لغات العالم . واما المدارس العليا فيتعمق فيها الطالب الدراسة السابقة .

وهى نظرة واعية يطل منها على المعرفة بصورة عامة ولا يغفل عن جانب من الجوانب . والملاحظ انه ما زال يتبع منهج البحث الاستقرائى فى نظرته فيبدأ بالفرد فيما يحفظ عقيدته أولا وجسمه ونفسه وعقله بعد ذلك ، ويتدرج الى العائلة باعتبارها الخلية الاجتماعية الأولى ، ثم تتسع نظرته فتشمل الأمة وما يحفظها أو بمعنى آخر ينتقل من الخاص الى العام كما انتقل من قبل من الفرض الى القانون .

فاذا فرغ المؤلف من برامج الدراسة تطرق الى موضوع المال اللازم لذلك ويبدو انه يائس من الحكومات لأنه يرى ان طريق الحكومة بالطلب منها والالحاح عليها والاستماتة فى ذلك قد لا يجدى ، فالاكتتاب العام الدائم والدعوة الى هذا المشروع بكل وسائل الأعلام ، أجدى من الاعتماد على الحكومة « وقد كان للسيد جمال الدين رأى فى ذلك ،وهو أن ينشأ صندوق يسمى (صندوق المسلمين) يوضع فى كل قرية وعلى كل طريق ومسجد ويجمع فيه المال لاصلاح أحوال المسلمين » . هذا اذا فشلت المحاولات المستمرة مع الحكومات ، ورفضت السلطات حتى فكرة فرض ضريبة جديدة تخصص لنشر التعليم . ومن المؤكد انه كان محقا فى سوء ظنه بالحكومة ، لأن الاستعمار البريطانى لم يوافق الا على انفاق ما يعادل واحدا فى المائة من ميزانية مصر ، على التعليم (١) ، واضطر الداعون الى الجامعة بعد ذلك ، أن يكتتبوا لمشروع الجامعة اكتتابا عاما كما هو معروف .

« أما البحث عمن يقوم بهذا الأمر فهو أهم الأبحاث وأس المسائل . الذى يقوم بهذا الأمر اما الأمة واما الحكومة .

(١) راجع فصل الحياة الاجتماعية (حركة البعث فى الشعر العربى الحديث) .

أما الأمة فما دامت فى الطفولية فلا يمكنها أن تميز خيرا من شر و أن تترك اللعبـــة وتشترى الكتـــاب ، وأما الحكـومة فهى اما حكومة وطنية وهى فى الغالب الآن مع الأمم الاسلامية فى مقام السيد مع العبد ، فان تعلمت الأمة وارتفعت أصبحت فى مكان الوكيل مع موكله وهيهـات هيهـات أن تســاعد على ذلك ، وأما الحكومة الأجنبيـــة فهى بمثابة الوصى الطماع مع القاصر الغنى ، فمصلحتها أن تحـــول بينـــه وبين الرشـــد دائما واذ قد نفضنا ايدينا من هؤلاء جميعا ، فلم يبق أمل يرجى وأمنية تنتظر الا من فئة قليلة بلغت الرشد فعرفت الحال والمآل ، أعنى بها (عقــلاء المسلمين) ، هــذه الفئــة هى المسئولة وحدها ولا مسئولية على عامة الأمة ... » هو اذن يائس فى نهاية بحثه من الإستعمار ، يائس من الحكومة ، يائس من الأمة فى مجموعها ، ولكنه مدرك أن سكون الأمة اشـــبه بسكون العليل لا بصمت الموت ، ومدرك أن الفئة القليلة المؤمنة قادرة على أن تقوم بدورها وتدق ناقوس الخطر فتصحو الأمة من غفوتها فلا يمكن أن يكون استقلال بغير امة متيقظة ، ولا يمكن ان تتيقظ الأمة بغير العلم . وإذا كان محـــور دراســـته مصر ، فان تفكيره يمتد الى خـــارج حدودها ، فيدعو فى النهاية الى الافادة من المؤتمر الذى هياه لنا الحج ، فهو مؤتمر عام ينبغى أن نشغله لبحث قضايا الشعوب الاســـلامية واصـــلاح أحوال المسلمين والدعوة الى نشر العلم لأنه وسيلة الاصلاح .

ومرة أخـــيرة يجهز على دعاة الاستسلام والمشايعين للفـكر الاستعمارى دون تبصر ، الذين يعتقـدون أن الأوربين بدافع المدنية وروابط الانســانية لابد أن يصلحوا احوال البلاد التى احتلوها كما عبر عن ذلك « روزفلت » فى احدى خطبه حين قرر

بتبجح واضح ان ما تأخذه الدول الاستعمارية من خيرات الدول المحتلة هو نظير ترقيتها . فيرمى البكرى هؤلاء السذج بالغفلة لأن الأوربيين يصلحون البلد لا الأمة مثلما نضع ثيابا مهندمة على تماثيل الخشب فى المحلات التجارية ، زخرفة على خراب ، والأمة لا يمكن أن تنازع غيرها سبيل الحياة الا معتمدة على نفسها ، لأن المستعمر لا يلتفت الا الى الاصلاحات التى تعود عليه هو بالنفع ، كمن يعمر بيتا بأجرته ثم يسكنه مدة طويلة حتى اذا خرج منه يوما كان البيت قد عاد الى حالته الأولى ، او اشد سوءا . فاصلاح الفرد هو أس كل اصلاح حقيقى ، وهو مالا يفعله المستعمر ، بل يسعى جهده لصده ورده .

وهكذا استطاع البكرى المفكر فى كتابه هذا أن يصل الى النتيجة المنطقية لانحطاط العالم الاسلامى ، وأن يرسم الطريق لاصلاحه ، مخططا لمشروعه ، ملتفتا الى كل جزئياته حين تحدث عن نقل العلم ومنهج التعليم وتدبير المال اللازم ، ونفض يديه من السلطتين الشرعية والفعلية واعتمد على الشعب فى القيام بهذا الدور الطليعى ، وسبق عصره فى كثير من القضايا ، شأن المفكرين الذين يرون اشراقة الفجر قبل غيرهم ، واعتمد فى دراسته على مناهج البحث الحديثة ، واطلع على مراجع لا حصر لها ، واتى بحجج دافعة وهو يناقش ويفند آراء الغربيين الذين تلون النظرة الاستعمارية تفكيرهم ، وآراء الشرقيين الذين فقدوا صلابتهم وغررت بهم الدعايات .

ولن نستطيع ان نستكمل صورة البكرى المفكر الا اذا عرضنا لكتاب (التعليم والارشاد) الذى « رسم ترتيبه ووضع شكله وتبويبه السيد محمد توفيق البكرى ، واشار بجمع ما يلزم هذا التبويب من المواد المفيدة والنقول العديدة ... ليكون سفرا جامعا

يقرؤه مشايخ الصوفية وخلفاؤهم للمريدين » كما جاء فى مقدمته .
ومن الواضح أن البكرى لم يكن يملك القدرة على تنفيذ مخططه فى كتاب « المستقبل للاســـلام » من حيث انشـــاء المدارس والجامعات ، ورأى ألا تكون دعوته نظرية ، فأراد أن يبدأ بتطبيقها فى المحيط الذى يملكه . واذا كان قد أشار فى برامجه السابقة الى أبواب الدراسة ، فان هذا الكتاب الجديد تفصيل لما أجمل من قبل ، فيتحدث عن باب « ما يحفظ العقيدة » ويقسمه الى العقائد والعبــادات ، وباب « ما يحفظ النفس » ويقسمه الى الفضــائل والرذائل فيستعين بعلم الأخــلاق ، وقد كان بامكانه تعميق مفاهيمه لو استعان أيضا بعلم النفس . ثم نرى بعد ذلك باب «ما يحفظ الجسم» ويعنى به علم الصحة ، وباب « ما يحفظ العائلة » ، واذا كان هــذا الباب غامضا فى كتابه « المستقبل للاسلام » فقد وضح مقصده هنا عندما عنون فصوله بما يجب على الرجل لزوجته وعلى الزوجة لزوجهــا ، وحقوق الوالدين وتربية الأبناء . ولكن أخطر ما فى هذا الكتاب ، البابان الأخيران ، باب « ما يحفظ الأمة » وباب « ما يحفظ المال » .

ومقدمة الكتاب ومنهجه يدلان على أن الأفكار للبكرى ، فعندما يعرض الكتاب للحكومة الاستبدادية ندرك أن البكرى يعبر عن رأيه فى هذا الموضوع ، لأن الأفق الواسع الذى يتضح من خلال العرض لا يمكن أن يكون الا للبكرى المفكر ، وصاحب الثقافة الواسعة ، ويبدو أن البكرى ترك لمشايخ الطرق الصوفية الحديث عن الأبواب الأولى التى هى من صميم عملهم ، ثم كان وراء كل جزئية فى البابين الأخيرين ، خاصة وأن الأمر لا يحتاج الى سعة الأفق وحسب ، وانما يحتاج الى الجرأة الشديدة التى اعتدناها من البكرى قبل ذلك ، وهكذا نستطيع أن نفسر وجود مثل هذا النص فى ذلك الفصـــــل . « ان طول مكث الشرقيين تحت نير

استبداد المستبدين ... تمنع القلم عن أن يجرى على قرطاس بيد شرقى فى البلاد الشرقية ، بذكر **الحكومة الجمهورية** ، وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين ، وان المبوسين بها أعلا شأنا وارفع مكانة من سائر أفراد الانسان ، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هـــذا الاسم دون من عداهم ... ان الرعايا لايزالون يتحملون المتاعب والأوصاب ، ويكدون أيام سنيهم ، ويسهرون لياليهم مشتغلين بلا فتور بالغرس والحرث والحصد والدرس ، والندف والحلج والغزل والنسج ، مهتمين بالحدادة والنجارة ، والملاحة والتجارة ، ساعين فى حفر الأنهر وانباع المياه ، وانشاء الجداول والجسور ، متكبدين آلام التغرب فى الحر المبيــد والبرد المميت ، كى ينالوا (أى الحكام) أرغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، ويحوزوا الراحة والرفاهية والحظ والسعادة ، وهؤلاء الظلمة لا يفترون عن السعى فى سلب ما بأيديهم جبرا ، وغصب ثمار مكاسـبهم وفوائـد متاعبهم رغما ، ولا يدعون لهم مما اكتسبوه بكد يمينهم وعــرق جبينهم سوى ما تقـــدم به حياتهم الدنيئة ، حتى تراهم بعد اقتحام هذه الأخطار وتحمل تلك المصاعب ، لا يقتاتون الا بكسرات خبز رديئة ناشفة يبلونها بدموعهم المنسكبة من جور ولاتهم الفاتكين ، ولا يسترون أبدانهم الا بخلق رثة مرقشـــة بدمائهم السائلة من سياط حكامهم الجائرين ، ولا يسكنون الا فى الأكنة المنخفضة والأخصاص الخسيسة ، كأنهم أنعام حرمتهم الطبيعة من المزايا الانسانية ... » (١)

اى جراة تلك التى دفعت البـكرى الى هذا الهجوم العنيف والحديث الصريح الذى يكشف عورات المجتمع الاقطاعى كما

(١) التعليم والارشاد ص ٥٩٦/٥٩٨ .

كشفها من قبل عندما قارن بين المحرومين والمترفين فى « صهاريج اللؤلؤ » ولكن الانفعال يبلغ حده فى هذا الهجوم ضد الظلمة الجائرين من الحكام كما يقول . انها دعوة واضحة لا الى مجرد الثورة هذه المرة ، وانما الى اقامة حكم جمهورى لأنه الحكم الوحيد الجدير بالبشر فى عصرنا الحديث .

عندما نقرأ هذا القول فى فصل « الحكومة الجمهورية » ، وعندما نقرأ « فصل الاقتصاد الشخصى والسياسى » فى باب « حفظ المال » ، حين يدعو الى الادخار والحد من الاسراف ، واستغلال المدخرات فى الاستثمار ، نحس اننا نقرأ لكاتب معاصر ، وندرك ان هذه العبقرية قد سبقت عصرها بأكثر من نصف قرن ، واذا كانت دعواته الى نشر التعليم وفتح الجامعات واقامة الحكم الجمهورى والحد من الاسراف ، قد تحققت فى هذه الأيام ، فما زالت أصداء صوته من نصف قرن ، ترن فى أسماعنا ، مؤكدة انا نسير على الطريق الصحيح الى الهدف الذى كان يراه بعيدا ونراه اليوم قريبا .

الفهرس

الموضوع	صفحة

صدر من سلسلة أعلام العرب

	اسم الكتاب	المؤلف
١	محمد عبده	عباس العقاد
٢	المعتمد بن عباد	علي أدهم
٣	جابر بن حيان	د . زكي نجيب محمود
٤	عبد الرحمن بن خلدون	د . علي عبد الواحد وافي
٥	ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦	معاوية	ابراهيم الابياري
٧	سيد درويش	د . محمد أحمد الحفني
٨	عبد القاهر الجرجاني	د . أحمد بدوي
٩	عبد الله النديم	د . علي الحديدي
١٠	عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١	مالك	أمين الخولي
١٢	القلقشندي	د . عبد اللطيف حمزه
١٣	الطبري	د . أحمد محمد الحوفي
١٤	الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥	ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمي
١٦	المختار الثقفي	د . علي حسني الخربوطلي
١٧	الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨	الأصمعي	د . أحمد كمال زكي
١٩	زكريا أحمد	صبري أبو المجد
٢٠	قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمي
٢١	شكيب أرسلان	أحمد الشرباصي
٢٢	ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندي
٢٣	أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب
٢٤	عبد العزيز البشري	د . جمال الدين الرمادي
٢٥	الخنساء	محمد جابر الحيني
٢٦	الكندي	د . أحمد فؤاد الاهواني
٢٧	الصاحب بن عباد	د . بدوي طبانه
٢٨	الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩	أحمد زكي	أنور الجندي
٣٠	حسان بن ثابت	د . سيد حنفي حسنين

اسم الكتاب	المؤلف
٣١ ـ المثنى بن حارثه الشيبانى	عقيد محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى	عبد القادر احمد
٣٣ ـ رشيد رضا	د . ابراهيم احمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	د . محمود احمد الحفنى
٣٥ ـ ابو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى	د . أحمد كمال زكى
٣٧ ـ الرهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ ابو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ احمد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين	د . فوقية حسين
٤١ ـ صلاح الدين الايوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش	انور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيق القيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد عبد الملك الزيات	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ ـ احمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل الكاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى	احمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ احمد فارس الشدياق	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى	د . محمود رزق سليم
٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ـ زرياب	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد احمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	د . محمد مصطفى هداره
٦٠ ـ المقرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الافغانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ـ الجاحظ	د . احمد كمال زكى
٦٣ ـ ابن ماجد	د . انور عبد العليم
٦٤ ـ محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر تصدر في ١٠ أبريل ١٩٦٧

العدد الخامس والثلاثون

اقرأ في هذا العدد :

أهم موضوعات العدد :

رئيس التحرير :

عباس أدهم

الدكتور

يطلب من
مكتبات
"مكتبات
التأليف"
سابقاً